محمد خيري
DIAVLO
رواية
قتل ترانزيت
حين تصبح الكتابة فخًا
ن للنشر والتوزيع
ساحر الكتب

الكتاب: قتل ترانزيت

المؤلف: محمد خيري

تصميم الغلاف: محمد دربالة

التدقيق اللغوي: محمد عبد العال

التنسيق الداخلي: هند محمود كمال

رقم الإيداع: 2024/32832

الترقيم الدولي: 978-977-778-404-7

---

30 عمارات العبور – طريق صلاح سالم – القاهرة
ت: 01096539633
إيميل: info@noonpublishing.com
جميع حقوق الطبع والنشر والتوزيع محفوظة للناشر

إهداء

إلى من أمسكت بيدي حتى تلتئم جراحها، ولم تتركها حتى نضبت دماؤها؛ إلى جدتي العزيزة، تَعلّمتُ منكِ الكثير، ورحلتِ عني في أمس الأوقات حاجة إليكِ.

الأول

الإسكندرية 2024

تحت هالة قمر القندس العملاق المكتمل بعد النصف الأخير من شهر نوفمبر، في تلك الساعة المُتأخرة من الليل، ومع اقتراب بزوغ فجر اليوم التالي، ارتفع صوت طنين منتظم للحن غربي من أحد عقارات ذلك الحي العتيق بمدينة الإسكندرية، عقار قد يتراءى للبعض تحفة معمارية شيدها الخواجة منذ زمن، لا يسكُنه سوى كل مُقتدرٍ أو ذا مكانة مرموقة، ولكن حقيقة الأمر غير ذلك، فبعدما غادر الاستعمار أراضي الوطن عام 1922م، خَلَت تلك العقارات من ساكنيها، ليغتنم حرّاسها فرصة رحيل الإنجليز عنها، ويتركوا مهنة الحراسة، وتصبح تلك العقارات ملكًا لهم ولأولادهم، حتى إنهم قاموا باستئجار باقي الشقق لئدر عليهم دخلًا شهريًا يعفيهم من مجهود البحث عن مصدر للرزق في زمن ضاق على أهله من شدة الفقر والبطالة.

كان حال ذلك العقار كحال أغلب العقارات القديمة في ذلك الوقت، ولكن ما جعله مميزًا هي حانة "دياڤلو" الموجودة بالطابق الأخير، حانة يعرفها كل رجل أراد ليلة مميزة بصُحبة إحداهن، فقد برهنَتِ الحانة منذ أن تأسست بأنها خير مكان لاحتواء علاقات اليوم الواحد، تلك العلاقات التي تعتريها الرغبة، الجموح، وحب الاستطلاع، فبها صفوة الشراب، نقاوة الطعم، ورائحة ليالي بيروت؛ خمرٌ عاتق يعرفه السكير، ودفءٌ مُشبعٌ بِعَبق رطب، يضُخ بالأوردة خدرًا مُرخيًا، يقود إلى الجنون تارة، وللهدوء تارة أخرى، أضفى

مرور السنوات على تلك الحانة سيرة يتحاكى بها كُل من زارها يومًا، ومن لم يزرها، بينما بالخارج اعتاد قاطني الحي على رؤية فتيات جَمِيلَات يصطحبن السكارى والمخمورين يوميًا من وإلى الحانة، واعتادوا في الليل أيضا على سماع موسيقى إفرنجية ذات لحن راقي لطالما كانت تميزها أذن المارة، ولكن مع مرور الزمن وانتقال ملكية الحانة من مالك لآخر، واختلاف الأذواق وانحدارها، انقضى عهد الراديو ومحطة إذاعة "فيولا" وأغانيها المميزة، وبدأ عهد موسيقى الچاز والروك، وراح المالك الجديد والقائم على إدارة "دياڤلو" بدس السماعات الصاخبة في شتى أركانها، فاستحال الهدوء صخبًا مستمرًا يصم الآذان، يبث في النفوس اضطرابًا، ما إن امتزج مع السُكْر بات هذيانًا ووَسوَسَة، يوقظ النائمين ويؤرق السهارَى، قبل أن تنتشر موضة شرب الفتيات لنرجيلة معسل الفواكة، فأُضيف زُكن النرجيلة بجانب الخمور التي يتضاعف سعرها يوميًا حسب الطلب، وصارت الحانة ملهى ليلي قائم مبدئه على النجاسة المطلقة. حين اعترض جيران الحي وقدموا للشرطة عدة بلاغات مفادها أن صخب الحانة جعل من النوم في الليل ضربًا من المحال، لم تُغلق الحانة كما اعتقدوا، ولم تنخفض حتى أصوات الأغاني، بل اكتفى مالك الحانة - ولأنه أرعن ذو علاقات هامة بذوي المناصب المرموقة - بإعادة هيكلة للحانة، لتبطن جدرانها من الداخل بشرائح الصوف العازلة، يكسوها من الخارج جلد أخضر كابتونيه لامع، حد قليلًا من صوت الصخب، لكنه ترك طنينًا يتسرب لأذن المارة بالخارج، تزداد وطأته مع اقتراب الليل وخلو الشارع من المارة والسيارات. ولأنه وكما قالت الست أم كلثوم " إنما للصبر حدود"،

افتتح الحاج «ضُبحي» - أحد ساكني العقار المجاور - وبمشورة الجيران؛ دكانًا في الجهة المقابلة، كان قد فقد الأمل في إعادة توضيبه مرة أخرى بعد سنوات من الغلق، ليعقد النية على فتحه مرة أخرى تحت مُسمى «قهوة بيرم» نسبة إلى جده الكبير «بيرم أبو المجد»، قهوةٌ على طراز قديم، تملؤها الأنتيكات وخشب الأرابيسك، وتفوح منها رائحة البن. ودرءًا للطنين الليلي قام الحاج «ضُبحي» بتصليح جرامافون كومودينو عتيق يعمل بالكهرباء، كان قد ورثه عن جده، وقام بتلميعه ليُصبح علامة من علامات دكانه، قبل أن يضعه على الرصيف تحت تَنَدَة تقيه المطر وخرء الحمام، وعزم يوميًا على تشغيل أسطوانات السيدة أم كلثوم، طوال الليل وبلا توقف، ولاقت الفكرة استحسانًا من جميع الجيران، إذ كان صوت أم كلثوم أفضل من طنين البهائم الضم بحانة «دياڤلو»، وأمسى قاطني الحي ينامون على ألحان الست، ويستيقظون عليها. وأمست الحانة تستقبل أجود العازفين وأجمل المغنيات حفاظًا على التوازن السمعي.

في تلك الليلة كانت ألحان السيدة أم كلثوم بالخارج تنافس طنينًا غاشمًا أصدرته فرقة موسيقية اعتلت مسرح الحانة الصغير، وترويقًا لمزاج الحاضرين، وعلى ألحان أغنية «please don't stop the music»، تغنت فتاة من أصل ثلاث فتيات أوروباويات، لا تكاد تنظر لإحداهن حتى تخطف الأخرى أنظارك، يتراقصن وتتمايل خصورهن تحت رداء أحمر يشف من تحته أجسادًا نُحتت بضمير، وفي ركن بعيد، جلست فتاة قد اعتلت ملامحها الريبة، إذ إن صديقتها قالت لها إنها ذاهبة إلى الحمام لتعدّل من مكياجها، ولكن ذلك كان قبل

نصف ساعة، فلما فاض بها الكيل، قامت لتعرف سبب التأخير، ولكنها لم تجدها، فبداخل الحمّام لا يوجد سوى فتاةً تتغنج برفقة أحدهم، خرجت الفتاة في حيرة تتفقد بعينيها المكان بحثًا عن صديقتها، فلم تجدها، خرجت من باب الحانة العازل ممسكةً بهاتفها لتتصل بها، بعد لحظات تسلل إلى أذنيها صوتًا أثار بها الظن، فتلك هي نغمة هاتف صديقتها، التقطها من على بُعد، فقامت بإغلاق المكالمة وإعادة الاتصال مرة أخرى، فإذا بذلك الصوت مرة أخرى، يأتيها من أعلى، بضع خطوات كانت تفصلها عن سلم كبير يؤدي إلى طوابق العقار، صعدته بتخبط إثر الطنين الغاشم الذي أصاب أذنيها بعدما خرجت، فإذا بالصوت يقترب! والتقطت أذناها طقطقة من أعلى أثارت بداخلها شعورًا مُقبضًا، استكملت الصعود حتى بلغت نهاية السلم، فإذا بباب حديدي موارب يؤدي إلى سطح المبنى، تقف أمامه قطة هزيلة ترتعش من البرد، هرعت القطة إلى الداخل لتستقل السلم، فانتفضت الفتاة بعدما اقتربت لتدفع الباب الحديدي، بصرير مزعج إثر الصدأ انفتح الباب عن آخره، لتتبيّن من خلفه عددًا من الكراسي والمناضد البالية، تُشبه تلك التي في الحانة، ولكنها لم تعد صالحة للاستخدام، كادت الفتاة أن تغادر ولكنها اقتربت من تلك الكراسي في هدوء حين ميّزت من بينها ساق تفترش الأرض، تحمل حذاءً تعرفه، كانت قد اختارته بنفسها لصديقتها من أجل إطلالة السهرة، ضرب البرد أوصالها وتيبست، قبل أن تجثو على ركبتيها وتدنو منها، لتجد الساق الأخرى تنزف أسفل كرسي اخترقت إحدى سيقانه لحم الفخذ، صرخت الفتاة في ذعر صرخة حاولت أن لا تُكملها من شدة الخوف، قبل أن يغزو الدم عروقها وتقوم لتُنحي تلك

الخردوات جانبًا وتطمئن على صديقتها، بِوَهْن أبعدت بضع كراسي من فوق صديقتها التي لم تُحرك ساكنًا، وما هي لحظات حتى تبيّنت جسدًا للتو قد غادرت روحه، وجهٌ بدت عليه ملامح المُعاناة، عينان جاحظتان وكأنما رأيا الجحيم ذاته منذ قليل، ورقبة تعتليها بقعة زرقاء داكنة تميل إلى الاحمرار، جسد يقبع أسفل الخردوات في صمت لا يجوز وصفه سوى بصمت الأموات.

لم تستطع الفتاة كتمان صرخة أخرى بعدما أزاحت الكرسي الأخير بعنف، لتكشف عن باقي الجسد. كانت الراقدة المسكينة مخلوع فستانها ومرفوع إلى ما فوق الخصر، ومن بين فخذيها يسيل خطًا من الدم يقاوم التجلط. قامت الفتاة لتحتضن جسد صديقتها المغدورة، فأطاحت بكرسي سقط على الأرض مُحدثًا دَوِيًا شديدًا، جعل أفراخ الحمام تنتفض من فوق سور العمارة تاركة أعشاش لم تُكمِل بناءها، وهذا خير لها لو تعلم، فهي للتو قد غادرت سور عقار نجس، يحوي ملهى ليلي تُمارس من فيه النجاسة علنًا، فربما لو لم تكن غادرت لكان أصابها من الحظ جانب، وكانت لتتشوه أفراخها ويأتون إلى الحياة سكارى يصطدمون بالأعمدة إذا ما طاروا.

بعد أقل من ساعة، دوى في الحي أصوات عربات الشرطة التي توافدت سريعًا عقب اتصال حارس العقار؛ «صبري»، الذي كان قد انتهى من رص زجاجات المياه الممتلئة على سلم العمارة، ظنًا من أحد الساكنين أن وجودها يُخيف قطط السلم ويمنع تواجدها في العمارة، فلقد فاض به الكيل من كثرة القمامة التي تُبعثرها القطط على السلم يوميًا. قبل أن يصعد «صبري»، وفي الطابق الأخير، التقطت أذناه صوت صرخة لفتاة، فتبيّن الباب الحديدي المفتوح،

هرع إلى السطح ممسكًا طرف جلابيته بيده، فوجد فتاة تحتضن أخرى تفترش الأرض، وتبكي بحرقة شديدة، ولما تبيّن أن تلك التي على الأرض ساكنة لا تتحرك، أدرك حجم المصيبة التي للتو قد شهد عليها، فنزل مسرعًا إلى حجرته والتقط هاتفه الصغير ليتصل بالشرطة.

حين أتت الشرطة وتسرب الخبر إلى الحانة، لاذ بالفرار كل جبان لا يؤمن بملهى ليلي مُرخص - رغم ذلك يرتادونه - ومكث كُل سكير عربيد اعتاد على قدوم الشرطة بين الحين والآخر، أو هؤلاء الذين يستندون إلى شخصيات عامة من ذوي النفوذ.

لما أدرك رجال الشرطة سطح العمارة، وقاموا بمعاينة الجثة، أيقنوا بما لا يدعو للالتباس مجالًا أن ما في الأمر قاتل أراد التنكيل بتلك الفتاة المسكينة، وبعد عدة دقائق فحص فيها رجل الإسعاف جسد الفقيدة، أدرك - ومع الأسف - أن السبب وراء الدماء التي لطخت فخذ الفتاة، هو الشروع في ممارسة الجنس معها، مشيرًا إلى أن القاتل ربما قام بخنقها حتى ماتت، وذلك بعد مقاومة لا تُذكر، فتلك المسكينة غُدر بها، لم تستغرق بين يديه لحظات حتى صعد السر الإلهي، وذلك بيّن من أظفارها التي لم تتسنّ لها الفرصة أن تلمس وجه القاتل في أثناء الخنق، كنوع من المقاومة النسائية المعهودة، فقط استسلمت أطرافها وارتخت المفاصل، ولانت بين يديه كالعجينة الخامدة.

كان ذلك السيناريو الذي افترضه مُمرض الإسعاف مع المقدم «خالد الكومي»؛ ذلك الشرطي الذي للتو قد انتقلت خدمته من

محافظة أسوان إلى وجه بحري بالإسكندرية، تلك كانت مأموريته الأولى التي أسندها إليه العقيد «رشدي الدميري» بعدما أحل محله كمفتش مباحث.

أراد المقدم «خالد» أن يُثبت كفاءته من المرة الأولى، لذا راح يتخذ بعض الإجراءات الصارمة من أجل بدأ التحقيقات وسماع الشهود على رواقة، فهو يعلم عن ظهر قلب أنه لن ينل ثقة من يفوقه منصبًا؛ سوى بحل جريمة مُستعصية الأركان كتلك التي أمامه، فلقد عَلِم للتو أن القاتل يمتلك من الفطنة ما يجعله هدف صعب الوصول إليه، وذلك لأنه وبعدما نفذ جريمته، لم يكتفِ بالمغادرة دون إحداث ضجة، ولكنه أراد ألا يترك لوجوده أثرًا من الأساس، فقام بسكب زجاجة خمر مُفعمة بالكحول - تركيز عالٍ - فوق جسد الفتاة المقتولة، مما سيجعل التعرف علي بصماته أمر مُستبعد. كان وقع كلمات مُمرض الإسعاف على المقدم «خالد» بطيئًا من شدة التركيز، فأومأ الأخير برأسه مُشيرًا إلى تلك الزجاجة المقصودة، معقبًا على كلامه بأن للملهى الليلي بالطابق السفلي ضلوع في القضية، وأنه يُرجح وبالمراهنة أن ذلك القاتل كان ضمن قائمة زبائن الليلة، مُدللًا على كلامه بملابس السهرة التي كانت ترتديها القتيلة.

بحنق استعجل المقدم «خالد» فحص مسرح الجريمة جيدًا وضرورة توسيع دائرة البحث في الساعات المُقبلة، حيث أمر بتدقيق النظر إلى سُكان العمارة والتحقيق معهم جميعًا، بالإضافة إلى البحث في ملفات الأشخاص المُسجلين في قضايا سابقة التابعيين للمنطقة، أحيانًا يكون الحل في تلك الملفات. ثم وبعد ذلك ستنتقل التحقيقات إلى دائرة أضيق وهي الأهل. كما استعجل المُمرض

بضرورة نقل جثمان القتيلة إلى المشرحة، استكمالًا للفحص الجنائي لمعرفة ملابسات الجريمة، والتي كان بالفعل قد استنتجها هو منذ قليل، ولكن زيادة للتأكيد. أمر بأخذ صديقة القتيلة وحارس العقار إلى سرايا النيابة لأخذ شهادتهما واستكمال التحقيقات، قبل أن ينزل ليُلقي نظرة على ذلك الملهى الليلي الذي يُدعى «Diavolo Bar».

على أعتاب تلك الحانة، كان يقف عدد من أفراد الأمن المُبالغ في حجوم أجسامهم، عابسي الوجوه، فاقدي الكاريزما، لا يملكون لغة للحديث سوى الاعتراض بحجة القوانين، أو الإشارة بالدخول للزائرين في حالة استيفاء الشروط والقواعد، أو بالطبع الاستمتاع بتلقين أحدهم درسًا إذا تعدى الحدود، وكان ذلك ما جعل المقدم «خالد» يأبى الدخول في جدال مع هؤلاء الثيران الغشيمة، حتى لا يتفاقم الوضع وتصبح القضية، قضيتان، ولذلك قام بترك استدعاء لمالك الحانة نفسه، ولكن عليه أن يأتيه في النيابة، ليس هنا. أمر بأخذ كُل رجال الأمن الواقفون على باب الحانة للتحقيق معهم. قبل أن يغادر لاحظ خروج ثلاث فتيات من الواضح أنهن غير مصريات، وحين اعترض طريقهم أحد العساكر موجهًا نظره إلى المقدم «خالد» طلبًا للتأكيد على موقفه، أشار له أحد العاملين بالحانة أن هؤلاء الفتيات هن روسيات يعملون في إحياء حفلات هنا وأماكن أخرى، فأشار المقدم «خالد» إلى ذلك العسكري ومن حوله من عساكر بإفساح الطريق لهن، فتنحى العساكر جميعهم ببطء شديد، مُتمتمين بمعاكسات ومعهم كل الحق، فتلك أجساد لم يروا مثلها من قبل سوى في الأفلام.. بعض الأفلام.

***

الثاني

الإسكندرية 2009

بعدما تناول قرص دواء الضغط في السادسة والنصف صباحًا، اعتمر قبعته الصغيرة، وقام بإدخال قميصه الأبيض الفضفاض داخل البنطلون الكُحلي الذي قام بكيه ليلة أمس، قبل أن يُعدل شاربه القصير ويهبط إلى الشارع، بعد نصف ساعة وصل الريس «جودة» مكتبه بهيئة السكة الحديد، وقبل أن يقوم بتدوين أسمه بدفتر حضور الموظفين كعادة الموظفين، دلف إلى ذلك الكشك الصغير بداخل المبنى الإداري، حيا «منصور فتلة» ساعي الشاي، قبل أن يقف دقائق ليعد قهوته بنفسه كعادة كُل يوم، انتهى ليذهب إلى مكتبه في صمت، حيا الجالسين، خلع قبعته، أشعل سيجارة، ثم جلس على مكتبه وشرع في تدوين بعض مستخلصات الجمرك التي أبقته مستيقظًا لساعتين إضافيتين ليلة أمس، قبل أن يُعكر صفو مزاجه يدًا اقتربت لتسحب ورقة كان يستند عليها، رفع رأسه ليجد ابتسامة سمجة تعتلي وجه مترهل تملأه الثنيات، «عبد اللطيف الزنخ»؛ أضاف إلى اسمه لفظة «زنخ» نسبةً إلى براعته في تعكير مزاج الآخرين بمداعباته السخيفة، عرفه البعض أيضًا باسم «تيفا»، نسبة إلى رائحة عرقه الخانقة، والتي يتميز بها صيفًا وشتاءً وخريفًا وربيعًا، وكأنه وُلِد بها، ربما لهذا السبب ماتت أمه ساعة الولادة؟ لم تتحمل المسكينة الرائحة؟. ابتسم له الريس «جودة» في حنق واضح، قبل أن يسترد الورقة من بين أصابعه الغليظة المشبعة بالعرق.

- ارحم الورق شوية يا ريس.

قالها «الزنخ» في زناخة.

- ماكنش اشتكالك يا زنخ.

- الحق عليا عايز راحتك.

قالها وهو يهز فنجان قهوة الريس «جودة» في دائرة متعمدًا إفسادها.

لينهض الأخير في ضيق تاركًا له فنجان القهوة بعدما ألقى بعقب السيجارة بداخله ونفخ في وجه «الزنخ» دخان النَّفَس الأخير.

لملم الأوراق ودسها في حقيبة يد صغيرة، قبل أن يأتيه مرسال من «فتلة» الساعي، يطلب منه ضرورة التوجه إلى مخازن الوارد، فاستجاب الريس «جودة» على مضض، وذلك لأن المخازن أصبحت ليست من اختصاصاته بعد الترقية الأخيرة، ولكن الجميع يعلم أن للريس «جودة» حنكة تفوق رؤساءه في الهيئة، هذا ما جعل استشارته في كُل كبيرة وصغيرة أمرًا ضروريًا، للدرجة التي جعلته يقوم بالإمضاء على بعض الأوراق بدلًا من أشخاص آخرين يخشون فعل ذلك حتى لا يُجردوا من مناصبهم إذا ما حدث خطأ أو ما شابه، فالكُل يخشى على كرسيه الزوال، وعلى النقيض تمامًا كان هو يمتلك من الجرأة ما يجعله يعلم كيف تُدار الأمور، واثقًا من قراراته دون الرجوع لأحد، ودون أن يعبأ بأن ينال رضا هذا أو ذاك، فمنذ عدة سنوات حين قرأ في إحدى الجرائد عن تلك المسابقة التي أعلنت عنها هيئة السكة الحديد في حاجتهم إلى موظفين، تقدم بطلب

التعيين للوظيفة، وأرسلت إليه القوى العاملة ليُجري امتحانًا لتقييم قدرته على الجمع والطرح، وتمييز أعلام بعض الدول، فلما اجتازه كان في انتظاره لجنة مكونة من أربعة أشخاص، كان يجلس بينهم وكيل أول وزارة، ولأن الوظيفة التي عُرضت على الريس «جودة» في البداية كانت تقتصر على وجوده في ميناء البضائع بشكل دوري؛ قام وكيل الوزارة هذا بتحذيره مشيرًا إلى أن العمل تحت وطأة من يعملون بالميناء سيكون ليس بالأمر الهين. حينها نظر إليه الريس «جودة» في تحدٍّ قائلًا:

- أنا قدام مني إمام جامع، ركع ركعت، سجد سجدت، ساب الجامع ومشي مشيت ورا منه.

ليستشيط الآخر غضبًا ويعقب في انفعال:

- غور في داهية متلزمناش.

ليخرج الريس «جودة» من الغرفة ملوحًا بيديه قائلًا: مش عايز أشتغل عندكم.

ولم يمر سوى أسبوع وأتاه قرار التعيين مصحوبًا بطلب التقدم للكشف الطبي.

لم تكن هيئة السكك الحديدية المصرية آنذاك هيئة قومية كما هي الآن، فبعدما تعيّن الريس «جودة» ببضعة أعوام، أتى بيت خبرة إيطالي إلى مصر، وتم الاتفاق على عمل هيكلة وظيفية كاملة للهيئة، تضمن تغييرًا جذريًا في الدرجات الوظيفية، أفضى إلى تغير أسمائها، فمن كان «أمين مخزن» أصبح «أمين مخازن»، مَن كان

«مُفتش» أصبح «مُفتش أول»، ومن كان له في العُمر بقية وصار «مراقبًا» أصبح «رئيس قسم» ولكن شرط أساسي حصوله على بكالوريوس في الهندسة، حتى يستطيع الوصول إلى تلك الترقية، وفي حالة ما إذا كان كما الريس «جودة» لم يُكمل تعليمه، فإنه وبالخبرة يستطيع الوصول إلى «كبير فنيين»، أي «مدير عام» بعد الهيكلة.

تلك الهيكلة جعلت من الصغير كبيرًا، وساوّت بين رؤوس الجميع، رُفِعَت الدرجات الوظيفية، وأصبح لكل رئيس؛ رئيس، يقيِّمه ويقيِّم أداءه، وذلك ما لم يفضله المُهندسين أصحاب الشهادات العالية، تقاعسوا عن أداء وظائفهم، رافضين التغيير، مُتمسكين بالاستقرار والروتينية، ولم يكن ذلك غريبًا، إذ إنه كان معروفًا وشائعًا آنذاك أن كل من التحق بكلية، ثم بحث عن وظيفة فوجدها، ظل مُتمسكًا بها خشية ألا يفقدها، وتضيع سنوات دراسته هباءً منثورًا، فكان يرفض أي تغيير يطرأ على وظيفته، وعلى النقيض تمامًا، من لم يُكمل تعليمه فلا يشكل هذا فارقًا لديه، بل أنه عادةً ما يكون أكثر جرأة من المُهندس، يقفز أولًا ثم يُفكر، ولا يخشى زوال الوظيفة، لأنه يُدرك أنه سيجد غيرها - بالتخصص ذاته أو غيره - عاجلًا أم آجلًا.

لم يكن الريس «جودة» يعبأ بالتغيير قدر ما كان يعبأ بالعلاوة، فما فائدة التغيير ما لم يصحبه منفعة مادية؟ وبالفعل، بعدما كانت علاوته لا تتجاوز الجنية والربع إلا بقليل؛ تخطت حاجز الخمسة جنيهات، وذلك فقط إكرامًا للفظة «قومية» التي أضيفت إلى اسم الهيئة، بعد أن أصبحت تابعة لقطاع البترول.

حين دلف الريس «جودة» إلى المخزن، كان في انتظاره أمين المخزن وبرفقته بعض العاملين بقطاع الكهرباء، التزموا الصمت بعد حديث توقف حين اقترب الريس «جودة»، فقام أمين المخزن بسحب ذراع الأخير مستجديًا الحديث على انفراد. مشيا بضع خطوات مُبتعدين عن البقية، وحينها أفضى إليه أمين المخزن ما يعتمل في نفسه من حيره، بشأن أمر ما يخص أسعار بعض الحاويات التي تخص قطاع الكهرباء، مطالبينه بإمضاء عاجل لإيداع إحدى تلك الحاويات، مشيرًا إلى أن الريبة تكمن في اسم المورد الذي يتعامل معه قطاع الكهرباء، حيث أنه لم يتغير لقرابة السبعة أشهر، وذلك رغم أن الأسعار التي يعرضها ذلك المورد، تتزايد تدريجيًا عن سابقتها، مما يجعله متوجسًا خشية أن يكون متورطًا بشيء يجهله عن جهالة أو سوء خبرة، فقام الريس «جودة» بإلقاء نظرة على أوراق تصريح التوريد التي أتى بها هؤلاء العمال، ليجد أن ما سمعه للتو من أمين المخزن لم يكن سوى الحقيقة. طلب من الأخير أن يمتنع عن إعطاء تصريح بدخول تلك الحاوية إلى المخزن بحجة الرجوع إلى المفتش الذي يعلوه منصبًا، قبل أن يسحب من بين يديه ورقة تحوي جميع المستلزمات التي يوفرها ذلك المورد لهيئة السكة الحديد، وقائمة بأسعارها، وخرج الريس «جودة» ليترك أمين المخزن في حيرة أكبر من تلك التي قابله بها.

وبعد قرابة ساعة، قضاها أمين المخزن في التملص من أسئلة هؤلاء العمال عن تأخر دخول الحاوية، أتى الريس «جودة» مبتسمًا، وربت على كتف أمين المخزن مستطردًا:

- عم «شعبان» - مشيرًا لأمين المخزن - مش هيقدر يمضي على

استلام نَفس الحاويتين في يوم واحد.

عقد أحد عاملين قطاع الكهرباء حاجبيه وعقب:

- نَفس الحاويتين؟.. إزاي نَفس الحاويتين؟

فقام «شعبان» المخزنجي بالالتفات إلى الريس «جودة» وقبل أن يتكلم باغته الأخير بقرصة في جنبه ولاحق السائل قائلًا:

- زي ما بقولك كدة.. نَفس الحاوية دي دخلت إمبارح بليل.

- من مين؟. (أحد العمال مستفسرًا).

- مورد تاني قدّم نفس المستلزمات بسعر أقل.. والتخليص أهو.

قالها وهو يمد يده ممسكًا ورقة تحوي جميع المستلزمات التي تقدموا بها منذ قليل، وبجانبها أسعار أقل من تلك التي عرضوها، وتاريخ دخولها كان بالأمس.

بُهت الواقفون وكأنما أصابهم العمه، كز كبيرهم على أسنانه، قبل أن يغادروا واحد تلو الآخر متأففين غير راضين، تابعهم الريس «جودة» الذي آثر الصمت والتأمل في نشوة المنتصر.

- إيه اللي انت عملته دا يا ريس «جودة»؟ ومنين جيت بالتخليص ده، أني مدخليش حاجة إمبارح بليل!

كان ذلك «شعبان» المخزنجي، فلاحقه الآخر:

- طب ما أنا عارف إنه ما دخلكش حاجة إمبارح.

- ولما إنتَ عارف، إيه اللي هببته ده؟

- التلاتة اللي كانوا واقفين معاك دول، بياخدوا كل شهر ظرف غير مرتبهم.

- ظرف؟ يعني إيه؟

- يعني عشان يجيبوا المستلزمات اللي جابوها دي من نفس المورد كل مرة وبالسعر اللي هو يحدده، معناها إنه كل شهر بيديهم ظرف عشان يتعاملوا معاه هو دونًا عن باقي التجار.

- يا خبر اسود!

- كان هيبقى اسود.. الحمد لله.

- وإيه موضوع حاوية إمبارح ده؟

- أبدًا.. التجار على قفا مين يشيل في السبع بنات، خطفت نفسي لحد هناك، سمعت أسعار أقل، مضيت بدالك وكلها ساعة ولا اتنين ويجيلك المورد.

- الله يفتح عليك يا ريس «جودة»، أني مش عارف نقولك إيه.. عليا النعمة أني محقوقلك برقابتي، كان زماني ملطوط معاهم لو حد من إياهم فقع في الواحد مفك، كان زمانهم مفكرني واخد ظرف أني كمان.

ضحك الاثنان وهم الريس «جودة» بالمغادرة، قبل أن يُملي على «شعبان» كلماتٍ أخيرة قالها باهتمام..

(أهل المحبة انقضت مصالحهم لما الغُشم بِطلِت مصالحهم).

ولم يكن هذا هو الموقف الأول الذي يتدخل فيه الريس «جودة»

فيما لا يخصه، خشية أن يتورط أحدهم في باطل يؤذيه، ولكنه منذ يومه الأول في وظيفته، وهو لا يعبأ بقول شيء سوى «لا»، «لا» تأتي أولًا، بعدها من الممكن أن نتحدث، يُفضل أن يرفض أي شيء في بدايته قبل أن يتحقق منه، فإن كان صواب، عدّل من قراره، وإن كان غير ذلك، أصر على قولة «لا» دون رادع.

فبعد تعيينه بأقل من شهر واحد، عَلم أن صديق له يُدعى «عبد المجيد الشاذلي» كان بمفرده داخل ميناء الوارد، وعلى الرغم من قلة خبرة الريس «جودة» آن ذاك، إلى أنه علم بتورط «عبد المجيد» بمصيبة تهدد بطرده من الهيئة إذا ما وقّع على أوراق استلام حاوية مشبوهة دسّها أحد التجار وسط عربات قطار جديد، كانت قد أُرسلت إلى الخارج ليتم إعادة بنائها، هرع الريس «جودة» فور معرفته، ودخل إلى الميناء رغم أنه لا يملك تصريحًا بذلك، وهو يعلم في قرارة نفسه أن عاقبة الدخول هنا دون صريح، ستكلفه غرامة وقدرها خمسين جنيهًا، وراتبه حينها كان لا يتعدى الأربعين جنيهًا، ومع ذلك لم يستطع أحد إيقافه، دخل وفي اللحظات الأخيرة منع صديقه «عبد المجيد» من التورط في استلام تلك الحاويات، رغم أنه مُصدقٌ له باستلامها، ولكنه إذا كان أضاف اسمه في خانة الاستلام دون التفتيش الدقيق في الحاوية - كالعادة - كان من المُرجح أن يتم اتهامه بتغيير مشمول الحاوية، وهنا لن يتمكن من إثبات عدم اشتراكه في تلك الفعلة.

كان «عبد المجيد» يعلم في قرارة نفسه أن جرأة الريس "جودة" وشجاعته في الدخول إلى الميناء دون تصريح؛ لا تعني سوى شيئين لا ثالث لهما، أولًا، الريس «جودة» يعتز بصداقة «عبد المجيد» دون

شك، وذلك لأنهما تربيا في ظروف مشابهة، وتلاقَت قلوبهما ودًّا منذ أن التقيا، وثانيًا، أن الريس «جودة»، لن يكل أو يمل عن توريط نفسه أمام نصرة الحق، مهما كلفه الأمر، سيظل الشخص الذي لا يتهاون أبدًا في أمور قد تبدو للبعض عادية، ولكنه حتمًا سيعرف يومًا ما أن عليه أن يجثم على ركبتيه حين تأتيه رياح عاتية، تنوي اقتلاع جذور ثقته من مكانها.

بعدما قال الريس «جودة» حكمته لعم «عبد المجيد»، هم بالمغادرة، ولكن كان ذلك حين علت في الخارج أصوات عربات النجدة التي أتت على حين غرة وطوقت المكان بالكامل.

***

الثالث

الإسكندرية 2024

"لم أعد قادرًا على الكتابة، على ملء الفراغات، لم أكن لأكتب اليوم لولا أنني شعرتُ بإفلاس أدبي يلكزني كل يوم في أحلامي، متجسدًا في شخص نحيل يُشبهني، يأتيني في الليلة الواحدة قرابة العشر مرات، ولا يكُفُّ عن تنبيهي؛ لم تعد قادرًا على الكتابة، لقد كانت روايتك الأولى محض صُدفة لن تتكرر، فلا تحاول، فقط استسلم لأمرك الواقع واترك القلم، فلقد جفت الصحف، ونضح الحبر كماسورة صرف صحي، ونفقت أجساد بنات أفكارك مُعلنين استسلامهن، فاض الكيل، ولا مناص من ترك الكتابة، فإنها لم تخلق لأمثالك، ألا ترى أن حتى شرائط الحبر بتلك الآلة الكاتبة العتيقة قد تحجرت وأعلنت احتضارها!".

كانت تلك الكلمات التي كتبها «ياسين» بعد عناء شديد استمر لأربع ساعات متواصلة، وحين توقف عن الكتابة أدرك أن اليوم يكون قد مر سبع ليالٍ على محاولاته البائسة في استساغة أفكار استهلالية لروايته الجديدة، وأن جلوسه مُنكبًا على آلته الكاتبة طوال تلك المدة، كان بلا فائدة، فعلى الرغم من معدل كتابته البطيء للغاية، إلا أنه لا يرى ما يكتبه يستحق مثل هذا المجهود.

سحب الورقة من آلته الكاتبة، قرأ ما فيها لثوانٍ، قبل أن يكومها ويلقي بها في ركنٍ ما بغرفته امتلأ بالأوراق، مسح على شعره ووجهه قبل أن يضرب بكفه طرف الآلة الكاتبة من شدة الضيق، مسببًا بذلك جرحًا صغيرًا في راحة كفه شرع في النزيف، ذلك

ورسخت الآلة في مكانها دون أن تتحرك سنتيمترًا واحدًا؛ فهي تزن قرابة الأربعين كيلوجرامًا. سحب منديلًا من فوق مكتبه القديم ليكتم به الجرح، قبل أن ينفتح باب غرفته عنوة دون استئذان، فإذا بوالده، وقف ممسكًا بأكرة الباب، يرمقه بنظرة تملؤها الحسرة، نفخ «ياسين» في حنق وأدار وجهه عن والده، اصطنع انشغالًا بمسح جرحه الصغير، فانسحب الأب دون أن يُعلق، التفت «ياسين» لآلته الكاتبة متأففًا، وأخذ ينفُخ في أزرارها علها ترد له الجميل وتكتب له رواية جديدة من تلقاء نفسها، ولكنها أسفًا لم تفعل. اعتاد على الكتابة عليها منذ سنتين، كان يؤمن بأن تلك الآلة ستكون يومًا سببًا في كتابة شيء سيجعل منه شخصًا ذا قيمة، ربما لأن عُمرها يقترب من القرن، ومن المرجح أنها يومًا ما كانت سببًا في إعلاء شأن من كتب عليها، وربما لأنه يعلم بداخله أن عجزه عن الكتابة منذ فترة، لا يعني بالضرورة أنه لم يعد يجيدها.

أضاف ورقة أخرى، وأدار البكرة حتى عدل من زاوية الكتابة، ضغط زرًا طويلًا حتى صار المؤشر الحديدي بالمنتصف، وشرع ليكتب «الرواية الثانية».

وفي محاولة أخرى في التقاط أي أفكار تعبر بداخل رأسه الثقيل، التقط العدم، مد يده ليُمسك بمفتاح قفل صغير أغلق به الدرج الأول من مكتبه، أدار المفتاح حتى انفتح القفل، مد يده مجددًا ليسحب رزمة من أوراق ملفوف حولها شريط بني اللون، أخرجها ونزعه قبل أن يمر بعينيه على سطور كان قد كتبها منذ أكثر من عام، قبل أن تتداعى في رأسه التصورات حين قرأ العنوان المكتوب بخط يده؛ «أرض المخزن»، واستدعى ذكرى كتابته لتلك الورقات على ذات

المكتب قبل أن تتحول إلى رواية، وأخذ يقرأ فيما هو مكتوب فيها، متجاوزًا بعض الصفحات عمدًا حتى لا تجتاح عينيه الدموع وتدفعه إلى حالة يخشى أن تتملكه الآن تحديدًا، تمالَك نفسه بصعوبة حتى بلغ الورقات الأخيرة، والتي بدت مختلفة بعض الشيء، إذ كانت تعتري تلك الصفحات بُقع صغيرة صفراء سببت تحجرًا ملحوظًا، وشفَّت الأوراق من تحتها، رمقها للحظاتٍ طالت، قبل أن تغرق عيناه في دموع تأبى النزول، ثم نظر إلى السقف محاولًا ألا يتذكر، ولكن كيف هذا وهو لم ينسَ من الأساس، كيف له أن ينسى روايته الأولى التي استغرق كتابتها قرابة الثلاث أعوام! ينكب على آلته الكاتبة يوميًا منذ أن يفيق وحتى يغلبه النعاس، يأبى الطعام إلا قليلًا، تلكزه كليتاه أن أشرب بعض المياه، ولكنه لا يستجيب، فالعقل غادر الجسد وابتعد، تذكرة ذهاب بلا عودة حتى ينتهي من كتابة الرواية، شيءٌ ما يعتمل في نفسه أجبره على أن لا يتزحزح من جِلسته المعتادة كل يوم حتى يُنهيها، ليس عطشًا للكتابة، ولا انصياعًا لوحي إبداعي يقترب اشتراكه الشهري على النفاذ، بل درءًا لضجيج يضرب رأسه في غشم، ينخُر تلافيف المُخ بلا هوادة، كمستعمرة من السوس تَنبش في الجسد وتنهال عليه تفتيتًا إذا اتخذ قسطًا من الراحة، فلم يكن التوقف عن الكتابة خيارًا أو طريقًا بديلًا، ورغم كل الظروف أو ما قد يعوقه، لم يكن يتوقف، حتى انتهى، تقدم إلى إحدى دور النشر وعرض روايته دون الاكتراث بشروط النشر أو التعاقد وبنوده، ولم يعبأ بما قد يجنيه من نشر تلك الرواية، هو فقط أراد أن يتخلص منها، ينشرها فربما يقرأها البعض ولا تتوقف عنده، وهذا تحديدًا ما حدث، وافقت الدار على نشرها وفور طباعتها، طُرحت الرواية

في الأسواق والمعارض، وحققت نجاحًا لا بأس به بالنسبة إلى كاتب مُبتدئ، وذاع صيت ذلك الشاب الذي كتب في دراما الجريمة السياسية، بمنظور مختلف، برؤية غير مسبوقة، فأصبحت الرواية ضمن الكتب الأكثر مبيعًا على الفور، تطايرت النسخ على الرفوف سريعًا، وطالبته دار النشر بموجب بنود العقد، أن يتقدم برواية أخرى قبل أن ينطفئ نجمه الذي تلألأ في سماء السوق الأدبي، فوجد نفسه في خضم ضغوطٍ لم يكن يدري أنه سيواجهها يومًا، وأن عليه كتابة الرواية الثانية في مدة محددة، ما إن تخطاها، تعرّض للمسائلة وسُحبت روايته الوحيدة من الأسواق، وربما تشريده أدبيًا أيضًا، أي دار ستستقبل كاتب لا يفي بمواعيد تسليم أعماله؟

فإذا به ينصاع دون تفكير، فهو في أمس الحاجة إلى ذلك الدخل المحدود التي تدره عليه روايته الأولى، وبالطبع ما ستدره الثانية إذا انتهى من كتابتها، أو بالأحرى إذا شرع في كتابتها.

نهض «ياسين» وتوجه ناحية النافذة المغلقة بغرفته، أزاح عنها ستارة ثقيلة داكنة، ظن أن الشمس قد أشرقت، ولكنها اللحظات القليلة التي تسبق شروقها، اللحظات التي تتغير فيها صبغة السماء من لونها الأزرق العميق الذي يلطخ الظلام مثل الماس على المخمل الأسود، إلى عدة ألوان أخرى تنبض بالحياة، رياح خفيفة متبقية من ليلة أمس، تجعل الأشجار تصدر حفيفًا يشبه الهمس، وكأن الأوراق تهمس الأسرار لبعضها بعضًا، ومن بعيد، يبدأ توهج خافت في الظهور في الأفق، يبشر بشروق الشمس. ومع ازدياد سطوعها، حتمًا ستتلاشى النجوم التي افترشتِ السماء في الساعات الماضية، واحدة تلو الأخرى، وستترك على مضض مكانها في السماء حتى

بزوغ فجر آخر.

بدت أصوات الأجواء بالخارج هائجة بعد ليلة ممطرة جعلته مستيقظًا طوال الليل، فأدرك أن النوم في مثل تلك الأجواء سيكون عسيرًا، رمق «ياسين» بمجمع عينيه من بعيد ذلك الميدان الشاغر بالسيارات المركونة من حوله، وأعمدة الإنارة التي ربما أصابها التلف إثر الأمطار فجعلتها تضيء وتنطفئ في وهن؛ ميدان «محمد نجيب».

عاد مجددًا إلى مكتبه، حين أدرك صوتًا ما خافتًا يأتي من زاوية ما بالغرفة، لو لم تكن الأجواء من حوله هادئة لما سمعه، فعلم حينها أن ذلك لم يكن سوى هاتفه المحمول قديم الطراز، الذي لا يهتم لأمره إلا قليلًا، فهو دومًا ما يتركه على الوضع الصامت درءًا لرنينه المُزعج، وعلاوة على ذلك، قام بدسه وسط الكثير من الوسادات حتى يتغافل عنه عمدًا إذا أتاه اتصالًا، التقطه ليقرأ كلمة «رامي» ترقص أمامه في تلك الشاشة الصغيرة، فأجابه:

- صباح الخير.

- مستحيل تكون صاحي دلوقتِ!

- لسّه منمتش، بس شوفت الموبايل من شوية، عرفت إنك اتصلت.

- صاحي من بدري بحاول أكتب.. مش عارف، كالعادة يعني.

- منا قولتلك الحل وإنتَ مش عايز تصدق، إنتَ حر.

- ألا وهو؟

- تحشّش.. حشّش، تبدع، تطلع أفكار، خدها قاعدة كده.

- قاعدة خايبة إنتَ عارف إني عمري ما هعمل بيها.

- يابني أنا مقولتش تبقى حشّاش، أنا بقول وقت ما تحتاج تفكر، خليه يساعدك. ده مفتاح لبوابات كتير جواك.

- خليهولك.. هو وبواباته.

- As you like!.. هَعدي عليك بليل لما أفوق.. ونشوف حل غير الحشيش.

- مستنيك.

أغلق المكالمة قبل أن يرمي بالهاتف وسط الوسادات مرة أخرى، اقترب من الدرج، أودعه رزمة الأوراق، وأعاد قفله بالقفل مرة أخرى، قبل أن يواري المفتاح مكانًا هو فقط من يعلمه، ثم خرج من غرفته، تمشى في الصالة فإذا بأخيه «علي» يفترش الأرض على بطانية مُتسخة، غاطسًا في نومه، يصدر شخيرًا مخلوطًا بلعاب يتطاير أمام فمه، «بغل» كما ينعته أخوه دومًا، تفوح منه رائحة عرق خانقة، بجانبه لم يكن هنالك سوى ملابسه التي خلعها بعشوائية شديدة وألقاها على الأرض، وكأنه ينام في الشارع، تأفف «ياسين» في ضيق قبل أن يدلف إلى المطبخ، ليصنع فنجانًا من القهوة، فإذا بالبراد فوق البوتاجاز يغلي بلا توقف، حتى جفت المياه بداخله، فأصبح على النار بلا فائدة، يبدو أن أحدهم كان ينوي عمل الشاي ونسّي كعادته. نفخ «ياسين» في ضيق، قبل أن يرفع البراد الذي كاد يحرق يده من شدة حرارته، أدار مفتاح البوتاجاز، هدأت

الشعلة، ثم وضع رَكوَة القهوة بمياهها الباردة، وتركها تدفئ شيئًا فشيئًا، وهو في سره يلعن اليوم الذي أصبح فيه فردًا ينتمي إلى تلك العائلة المستهترة. عائلة ربما يتشاركون معه نفس الملامح والصفات الجينية المتعارف عليها، والتي يرثها أي ابن، ولكنه يشعر بأنه غريب بينهم، أفكاره، آراءه، وحتى ذوقه، مختلفين عنه تمامًا، فقط ما تقيدهم مع بعضهم البعض هي صلة الدم، ولكن ما دون ذلك، هو لا يشعر سوى بأنه يقف أمام مرآة، ينظر لشخص قد تبادل ذكرياته وتجاربه مع أشخاص لا يعرفهم، غرباء لم يستطع التواصل مع أفكارهم أو حتى فهم وجهات نظرهم، وكأنهم عاشوا في عالم آخر لا يستطيع الوصول إليه، لا ينتمي إليه. يسير على حبل مشدود، ويصارع اتزانًا بين عزلة فرضها على نفسه، وبين صورة مطبوعة في ذهن والده وأخاه، لا تتغير إلا أنها تبتعد عن حقيقته شيئًا فشيء، لا تُمثله، ولا يتطلع أن يتشابه معها في يومٍ ما.

لحظات مرت بطيئة، قبل أن يشعر بهزة عنيفة تضرب الأرض من تحته، حينها لحظ أن شيئًا ما يبدو غريبًا ناحية غرفته؛ سحابة سوداء بعيدة تأتي من منتصف البحر، كبيرة، مدلهمة، تتحرك بسرعة ملحوظة، وتقترب. بخطوات ثابتة دلف إلى غرفته، ثم نظر إلى تلاطم الأمواج العنيف، الذي فشل دومًا أن يُلهمه أو يجعل منه كاتبًا يستمد إبداعه وكتاباته من الطبيعة، فهو لا يهوى البحر على أي حال. تجلّت تلك السحابة السوداء من بعيد، وازدادّت اقترابًا وكثافة بعض الشيء، حتى ظهر من ورائها، قطارٌ ضخمٌ، اخترق السواد، صعد من أعماق البحر كالوحش، نفث من مُقدمته دخانًا أسودًا لم يزد المشهد إلا هيبة. قطار في حجم سفينة بضائع، يتحفز فترتفع

مقدمته كالخيل العاصي، ثم يقترب في سرعة، لترتعد الأرض من تحته مع كل دقة لعجلاته، تَضِرب في قضيب غير مرئي، لترتجف الأبنية وهي تزأر وتهتز أساساتها من ثقل مروره. كان القطار بحركته قاسيًا، عملاق يلتهم كل شيء في طريقه، ويترك خلفه مياه خضَّبها السواد وصارت هلاكًا، قوة لا يُمكن ترويضها، تندفع فقط إلى الأمام، تتردد صوت صافرته في الأفق، وكأنه كيانًا يتنفس، وحشًا حديديًا بدا وكأنه يسير في عالمه الخاص، لن يتوقف إلا إن التهم شيئًا يُشبع جموحه، وطغيانه.. طول عرباته الذي لا نهاية له، يمتد إلى أبدية يطمسها الضباب، وتواريها مياه بحر تلطخت بالأسود، وترك ذيل من مجاري صرف غير صحي من وراءه، حتى صار على بُعد أمتار من سور الكورنيش، وقبل أن يدركه، ضرب الصخور من قبله، فتطايرت، تفتتت، وتناثرت، تمايلت من حول «ياسين» الأبنية، وكأنها مصنوعة من الورق، انهارت وتساوت بالأرض.. كان هذا حين اقترب القطار من الميدان، بعثر النجيلة الخضراء، دهس الأشجار، اقتلع جذورها، ونبض المشهد نبضة تعني أن النهاية اقتربت، تبقَّت بضعة أمتار ويصطدم القطار بالشرفة التي يقف فيها «ياسين»، ولم يكن منه سوى أنه تدارك الخطر مُبكرًا وصعد ليقف على سور الشرفة، رمى القطار بنظرة أخيرة، قبل أن يتحفز للقفز، لحظات طالت قبل أن تشتد الريح، وتُخل بتوازنه، فأفلتت قدمه من فوق السور، وما هي إلا أجزاء من الثانية، حتى صار الجسد كاملًا خارج المبنى. أخذ يسقط ببطء، يتهاوى كورقة شجر، ورغم أنه يسكن الطابق الخامس، إلا أن الجسد أستغرق وقتًا كثيرًا حتى يصطدم بالأرض، وقتًا كان كافيًا للقطار ليحجب نور الأفق، ويزيد السقوط

ظلمةً. دقائق بسيطة حتى سَمع «ياسين» صوت طقطقة، وشعر بهزة خفيفة تتبعها سخونة تنتقل إلي يده تدريجيًا، أغلق عيناه منتظرًا ارتطامًا ليس بهيِّن، سيؤدي بحياته إلى موتٍ محتوم، قبل أن يشعر بمخالب عملاقه تخمش في ظهره، تُمسك به بضراوة، حتى كف عن السقوط، ثم ارتفع قليلًا، التف برأسه إلى أعلى ليبصر «نوحي»؛ بومته العقابية، كان حجمها في حجم جاموس صعيدي عتيق، طارت به حتى ابتعد عن المبنى المنهار، ارتفع رويدًا رويدًا قبل أن يختل توازن «نوحي» حين رأي صقر شرياص في حجم خروف يلوح من فوقه، افلت قميص «ياسين» بغته ليرفع مخالبه إلى أعلى دفاعًا عن نفسه، سقط «ياسين» مجددًا ولكن تلك المرة، سقط في وسط المياه.

***

الرابع

نيابة الإسكندرية 2024

«نريهان مجدي عبد السلام»؛ لم تكن سوى طالبة بكلية التجارة جامعة دمنهور، التحقت بها رغم أنها من ساكني الإسكندرية، ولكنه مجموع الثانوية العامة اللعين، وعلى الرغم من كونها وحيدة بلا أخوة، إلا أن والديها لم يعترضا على بُعد المسافة، وذلك لأنها لا تبعُد كثيرًا عنها. كانت تمتلك من سحر الجمال ما يكفي فتاة في عمرها، فعينيها اللتان كانتا في لون الفيروز، ذات الرموش المهدبة الداكنة، جسدها المشدود الذي يناسب فتاة عزفت عن أكل اللحوم منذ أعوام قليلة، بشرتها الدافئة، شفتيها الممتلئتين بلون وردي طبيعي، وشعرها الأسود الكثيف، يمتد في موجات ناعمة إلى أسفل ظهرها ببضعة سنتيمترات. مع ذلك هي لا تنوي سوى الارتباط بشاب واحد على الأرجح سيكون هو زوجها في النهاية، فهي لا تؤمن بتكرار الحب الذي يأتي مراتٍ عديدة، بل هي المرة، وإن باءت بفشلٍ، ربما ما يأتي بعدها ما هو إلا إعجاب من أحد الطرفين، يتحول مع الوقت إلى مللٍ يضرب بالعلاقة عرض الحائط، فيتفرقا بلا رجعة. لم تكن «نريهان» أيضًا ممن يرتادون الملاهي الليلية في العموم، بل كانت تلك هي المرة الأولى التي تذهب فيها إلى مكان مثل هذا، وكان السبب وراء ذلك هي «غرام» زميلتها بالكلية، والتي لم تكن تنفك أن تقضي الـ«weekend» - كما تزعم - في أحد الحانات الليلية، دون الالتفات لما سيقوله عنها الآخرين، هي فقط تذهب وتستمتع ولا تشغل بالها بأكثر من ذلك. في يوم الجريمة، ملأت «غرام»

رأس صديقتها بكلماتٍ بدت في ذلك الوقت مناسبة لها، إذ لم تكن «نريهان» في أفضل حالتها آنذاك، فوافقت على الفور، وما هي إلا دقائق وتواصلت «غرام» مع أحد معارفها من داخل «Diavolo Bar»، ليقوم بحجز ميعاد لها ولصديقتها في حفلة مميزة بعد منتصف الليل - على الرغم من أن حفلات منتصف الليل لا يدخلها سوا «كابلز» أو «ميكسيد جروبس» - وتولّت «غرام» إقناع والدة «نريهان» بشأن بياتها لديها اليوم لاستكمال دروسهما ومذاكرتهما، راجين منها أن تدعو لهما بالتوفيق، والسداد.

ولأن أسرة «غرام» كانت مُفككةً بطبيعتها، لم يُكن غريبًا أن تخرج في هذا الوقت بذات الحجة - المذاكرة مع إحدى الزميلات - وهي لم تكن سوى فتاة باتت تعلم جيدًا كيف تحصل على ما تريد دون أن تعبأ بموافقة أحد، وسرعان ما قام ذلك الصديق بحانة «دياڤلو»، بعمل حجزٍ لفردين من نفس الجنس ليلتها، فما بينها وبين ذلك الشاب يتكفل بسد تلك الجمايل. في تلك الليلة لم تكن صديقتها على ما يرام؛ شاردة الذهن طوال الحفلة، مُمسكة بهاتفها خشية أن يتصل بها أحدًا ولا تسمعه إثر الضجة المحيطة بها، وعلى الرغم من استحالة التّعرف عليها في تلك الحانة، إلا أنها رفضت أن تشرب أي مُسكرات، واكتفت بمشروب طاقة تمقث طعمه ورائحته، وظلت جالسة على كرسيها منذ أن بدأت الحفلة، على عكس «غرام» التي سأمَتِ التحايل والزّن والتشجيع على النهوض والاستمتاع بالرقص، لعلّ أحدهم يلتفت إليها ويتكفل بمصاريف تلك السهرة، ولكن بلا فائدة، فقامت هي وتركت «نريهان» غارقة في أحزانها وأفكارها، لتحظى ببعض المُتعة قبل انتهاء الحفل، وبعد مرور ما يقرب الساعة،

وفي أثناء انشغال «غرام» بالرقص مع أحد الشباب الذي أعجب بتمايلها بمفردها فقرر المشاركة، لاحظت أن صديقتها تقترب منها، لثثني عليها رغبتها في الرحيل، وكان من الواضح أن ثمة شيئًا ما يضايقها، فاستفسرت عنه، فآثرت «نريهان» الصمت وقالت لها إنها ستذهب إلى الحمام لتتفقد مكياچها قبل أن يرحلا، مشددة عليها ضرورة المغادرة فور رجوعها.

كان هذا ما قصته «غرام» على رئيس المباحث «خالد الكومي»، قبل أن ينظر مجددًا إلى التقرير الذي كلف به أحد الضباط المعاونين، والذي يخص وبالأهمية حانة «دياڤلو»، وما يتردد حولها من ملابسات وشكوك، وعن نوعية المشاكل التي تُحيط به في السنوات الخمس الأخيرة - إن وُجِدَت - فوجد أن تلك الحانة، لم تكن كما المتوقع مخفية عن الأنظار لا تُحدث جدلًا أو تُثير شكوكًا حولها، بل على النقيض تمامًا، في الشهر الواحد ما يقرب من الثلاثة محاضر تُقيد ضد أحدهم في تلك الحانة، والسبب إما خناقة عادية، أو ضرب مُبرح أدى إلى عاهة، أو معاكسات ومضايقاتٍ من نوع آخر، ولكن ما وجده غريبًا حقًّا، هو أن جميع المحاضر انتهت وأغلقت بذات الطريقة؛ الصُلح بين الطرفين، مهما كان حجم المشكلة كبيرًا، أو الضرر الواقع على أحدهم جسيمًا، فالتصالُح دائمًا هو النتيجة الأخيرة.

آثار ذلك في نفسهِ الريبة، وقرر إخلاء سبيل صديقة القتيلة، مع ضمان محل إقامتها الحالي تفصيلًا، مع التنبيه عليها بضرورة عدم مُغادرة البلاد أو السفر محليًا قبل إعلام النيابة أولًا، وذلك للرجوع إليها حين ظهور أية مستجدات تخُص قضية صديقتها، فقامت

بعد أن انهارت في نوبة بكاء مُبالغٌ فيها، ثم أتى دور حارس العقار «صبري» في التحقيق، الذي أشار وبالأدلة أن هذا هو اليوم السادس عشر له في تلك العمارة، فقد أتي برفقة زوجته واثنتان من بناته من محافظة كفر الشيخ، مؤكدًا على حديثه بأنه لا يعلم الكثير عن تلك الحانة، سوى أنها تجلب له يوميًا عشرات الفتيات والشباب الذي يطلقون على أنفسهم «ولاد ناس»، يتمتع برؤيتهم وسؤاله المعتاد لهم (على فين يا آنسة؟ على فين يا أستاذ؟) - رغم معرفته للإجابة - كان صادقًا رغم أنه لم يُقسم أو يحلف بالله مطلقًا، وهذا ما جعل من كلامه تلقائيًا بعض الشيء. أضاف أنه عَلِم من مصادر متنوعة، أن تلك العمارة لا يمكث فيها حارس أكثر من ستة أشهر، قبل أن يُغادر أو يتم طرده لسوء أخلاقه، مما جعل المقدم «خالد» يظن ربما من الصعب على حارس لعقار مثل هذا؛ التأقلم مع كل تلك المشاكل، فيوميًا أكثر من مائتي زائر لا يعرفهم، ربما كان من بينهم حرامي ينوي سرقة إحدى الشقق، أو قاتل مأجور ينوي التخلص من أحد السكان ذوي المكانة المجتمعية الرفيعة، أو ربما لأن لإدارة الحانة رأي آخر في اختيار حارس للعقار، يريدونه أخرس أبكم، قليل الكلام حذِر اللسان، يخشى اعتراض الزائرين منعًا للشوشرة (لا بيهِش ولا بينِش). في ذلك اليوم تحديدًا، لم يكن «صبري» مستيقظًا في ذلك الوقت، ولكنه، تلقى اتصالًا من أحد السكان، أيقظه منزعجًا من نومةٍ هنيئة، ولم يكف عن الاتصال حتى استيقظ «صبري» ليجيبه، فإذا به أستاذ «مؤمن» الزنّان، يتصل كعادته السخيفة في أوقات ليست بمناسبة، ليطلب منه تفقد سلم العمارة، لأن القطط أفسدت أكياس الزبالة وبعثرتها أرضًا، وتوبيخه للمرة الألف منذ أن أصبح

حارسًا لهذا العقار النجس؛ على عدم وضع زجاجات المياه الممتلئة في كل طابق، فهذا ما تخشاه القطط لسبب لا يعلمه إلا الله، بعدها لن تقرّب عمارتنا بأمر الله عز وجل. كان متحاملًا بعض الشيء على القطط، وكأنه عانى ماضيًا ما معها. تململ «صبري» بعد مكالمته، عازمًا أن يُكمل نومه، ولا ينتبه لذلك الساكن المعتوه، ولكن الأخير لم يكف عن الاتصال وكأنها نهاية العالم، تقترب من باب شقته هو على وجه التحديد، تطرق بابه في هيئة قطة صغيرة سثلقي في قلبه الرعب بتعويذة (المياو) التي لا تُقهر، وربما لأنه متغطرش بعض الشيء، لم يقدر على وضع زجاجة المياه تلك أمام بابه بنفسه، وأراد اختبار طاعة الحارس في الانصياع إلى أوامره غير المُبررة - حتى بعد منتصف الليل - ظنًا منه أنه قد ابتاعه من سوق البوّابين بمائة جنيهًا، يدفعها كُل شهر بعد مفاوضات لا حصر لها. على أي حال، قام «صبري» مغتاظًا، وفي عز البرد، ملأ خمس زجاجات من حنفية المنور بجوار غرفته غفا بين الواحدة والأخرى قليلًا، قبل أن يمر على كل طابق ويضع واحدة، ويرى ما إن كان هُنالك كيس مُبعثر من القمامة فيقوم بلمه، كان ذلك قبل أن يُدرك صوت «غرام» التي تفقدت السطح منذ قليل، فوجدت صديقتها قد فارقت الحياة.

أخلي سبيل عم «صبري»، وكان آخر ما قاله: "أنا تحت أمر الحكومة في أي وقت". ولم يدرِ «خالد»، من كان يقصد بلفظة (حكومة)، أهي العدالة أم زوجته؟

بعد خروجه بساعة أو أقل بقليل، دلف عسكري إلى مكتب رئيس المباحث معلنًا وصول «عماد غازي»؛ مالك حانة «دايقلو»، بإيماءة رأس أذن له بالدخول، قبل أن يُغلق «خالد الكومي» ملفًا به تقرير

شبه مُفصل عن تلك الحانة في السنوات الماضية، والتي استشف من خلال قراءتها منذ قليل أن تلك الحانة تعود إلى المدعو «عماد غازي» منذ أكثر من سبعة أعوام، أثيرت بهم الكثير من المشاكل والمناوشات حول ذلك المكان، ولكن بلا جدوى، فجميع المحاضر التي تم تحريرها فيه من حالات ضرب ومشاجرات، كانت تنتهي جميعها بالصُلح، وكأن طرفًا ما يتدخل في النهاية ليقوم بإرضاء جميع الأطراف، درءًا للغو والهراء.

ولا شك أن ذلك الطرف هو «عماد» بذات نفسه، يتدخل لينقذ محل أكل عيشه.

أغلق المقدم «خالد» الملف قبل أن يختلس النظر إلى صورة المجني عليها؛ «نريهان»، حين جلس أمامه «عماد» في ثقة شديدة لا توحي أبدًا أن هنالك جريمة قتل للتو حدثت بالقرب من حانته. أراد تدخين القيب فأذن له بذلك، قبل أن يستهل «خالد» بسؤاله:

- حضرتك بتمتلك المكان اللي في الدور الأخير من المبنى من حوالي سبع سنين، مش كده؟

- مظبوط.. بنيته من الصفر، من 7 سنين مكنش فيه «دياڤلو بار».

- جميل.. قصة نجاح يُحتذى بيها فعلًا.. بس ده مش موضوعنا، حضرتك طبعًا على دراية باللي حصل في الساعات اللي فاتت على سطح العمارة اللي فيها «دايڤلو» بتاعك؟

- سمعت طبعًا، والحقيقة استغربت من طلب استدعاء سيادتك ليا، خصوصًا إنه الجريمة اللي حضرتك بتقول عليها، محصلتش عندي

يعني.. خير؟

- أنا طبعًا عارف إنه الجريمة آه محصلتش عندك في البار بس، الموضوع مليان ملابسات، وعشان كده فضلت يكون موضوع الاستدعاء ده بشكل وِدي، لأن فيه ملابسات مش هتتفسر غير من عندك إنتَ.

- أكيد، اتفضل أنا تحت أمرك.

- حلو.. مبدئيًا يؤسفني أقولك إنه القاتل تقريبًا كان من مُرتادي البار عند سيادتك، وده لأنه الخمرة من ضمن أدوات إخفاء الجريمة، ثانيًا أنا الحقيقة تفاديت مشكلة كبيرة كانت ممكن تحصل أثناء رفع البصمات والتحقيق هناك..

- ربنا ما يجيب مشاكل.. هو بس أنا عايز أوضح لسيادتك إنه مش معنى أنه الخمرة كان لها دور في الجريمة، يبقى معناها إنه البار له دخل فيها!.. والمشكلة اللي حضرتك بتقول عنها أنا أحب أعرفها طبعًا.

- مممم كلام مُقنع والله، ووارد برضو، إحنا لسه في بداية التحقيقات وحاجات كتير هتظهر مع الوقت، لكن أحب أقولك إن الجاردات اللي بيأمنوا البار عندك، متآخذنيش في اللفظ.. بهايم، ممكن يلبسوك في حيطة وإنتَ مش واخد بالك.. متقمصين دور مش دورهم خالص، مقوي قلوبهم أنت برضو.. وده شيء مانصحش بيه.

- ممكن أعرف ايه اللي حصـ..

قاطعه المقدم «خالد» قاصدًا إظهار عنصر الغضب:

- اللي حصل أني كان ممكن أشمع المكان بكل سهولة لحين البت في الأمر، والاسم تعطيل جهات مهمة عن مباشرة عملها. لكن أنا عديت بمزاجي عشان نقعد القعدة الوديّة دي وأعرفك بنفسي.

لم يكن ليهتز «عماد غازي» لما قيل له، ولكن اختل توازنه بعض الشيء، عدل من جلسته ببطء ممهدًا اعتذار:

- أنا بتأسف لمعاليك عن اللي بدر من الولاد دي، وأحب أحيطك علم إنه الكلام ده وصلني، وبالفعل جاري تغيير الطقم بالكامل، مفيش بينا مجال للمغفلين اللي فاكرين نفسهم فوق القانون. ولكن أنا حابب أصحح بعض الأمور فيما يخص سياسة المكان..

- طبعًا.. وماله.

اسند المقدم «خالد» ظهره إلى الوراء قليلًا، قبل أن يستطرد الآخر:

- المكان له شوية قوانين من غيرها ميمشيش.. أهمها الشمعة؛ مينفعش مكان زي ده شمعته تضر بأي شكل، لأنه وزي ما حضرتك عارف، بيتردد عليه أسماء مهمة وليها مكانتها، وبالتالي إحنا في غنى عن خسارة الأسماء دي.

- الأسماء دي بقى كانت موجودة إمبارح بليل؟

- محدش يعرف مين كان موجود في حفلة 1 بليل غير اللي كانوا already موجودين.

- بمعنى؟

- بمعنى إنه الحفلات في البار نوعين.. «Standard» و"VIP"

والحفلة اللي كانت تقريبًا في ميعاد الحادثة، كانت «VIP»، ودي للأسف مبتتسجلش.

- بمعنى ايه مابتتسجلش؟ يعني الكاميرات دي كلها، فاضية؟

- لا مش بالمعنى ده.. خليني أوضح.. الحفلات الـVIP بيحضرها ناس مينفعش بشكل من الأشكال، يتصوروا، أو حتى يتعرف إنهم في نطاق المحافظة نفسها، وسيادتك سيد العارفين بالمراكز المهمة اللي من النوع ده، فبالتالي الكاميرات معمولها آوتو لوك، تقفل قبل الحفلة بساعة وبعده بساعه، علشان لا تجيب اللي داخلها واللي خارج منها، ولا اللي حضرها طبعًا.

- إنتَ عارف معنى كلامك ده يدينك إزاي؟

- يديني! ليه يديني؟.. دي سياسة المكان اللي مُتفق عليها في التراخيص اللي بمتلكها يا فندم. البنود دي مفيهاش هزار.. الساعة 12 بليل بتخلص الحفلة العادية وتتقفل الكاميرات، الساعة واحدة تبتدي حفلة "VIP" وتخلص حوالي الساعة 4، بعدها بساعة أو ساعة وربع، تتفتح تاني.. ولو حضرتك مش مصدقني تقدر تراجع كل التسجيلات اللي فاتت بإذن نيابة طبعًا، وهتشوف بنفسك إنه مفيش تسجيل واحد لحفلة "VIP".

بعد لحظات من الصمت أشار «عماد» إلى ضرورة زيارة المكان مرة أخرى للتأكد من تغيير طاقم البهائم، وأيضًا للمساعدة بأي شكل من الأشكال في كشف ملابسات القضية، ولكن مع التنويه عن التواجد خارج الساعات الرسمية، وذلك للحفاظ على بند الشمعة.

ابتسم المقدم «خالد» حين أدرك أن 90% من الثقة التي يتحدث بها «عماد غازي» مبنية في الأساس على علاقات سياسية هامة قام بذكرها في أثناء الحديث أكثر من مرة، ولإدراكه بأن التلاعب بسياسة مجلس سياسي سيكون أصعب من التلاغب بسياسة ملهى ليلي أو حانة، فهؤلاء الأوغاد مديرو تلك الأماكن يعلمون جيدًا أن التهاون في النظام يُخلف فوضى، فوضى ليست من النوع المُفضل بالنسبة لهم؛ تلك يُفضلون أن ينشروها داخل عقول زبائنهم فقط.

ودعه على وعد بمقابلة قريبة عاجلة تخص القضية التي يتمنى أن يظهر لها رابط ما يربطها بتلك الحانة، من قريب كان أو من بعيد، حتى تتسنى له الفرصة للعب في بند الشمعة، كما اتضح له أن الكاميرات المنتشرة في الشوارع المُجاورة والقريبة من العمارة التي تحوي تلك الحانة؛ لم تكن لتكشف المدخل الأساسي للعمارة، وكأن ذلك الأمر مُدبر منذ تواجدت تلك الحانة، حتى لا يتم التعرف على مُرتادي المكان من فئة «VIP» أو التعرف على سيارتهم حين ينزلون منها إلى الحانة.

لم يكن في مصلحة «خالد» أنه كان جديدًا على الدائرة، وذلك نظرًا لفقدانه عنصر مهم من عناصر البحث الجنائي؛ المصادر، لم يكن له أي مصادر مُدونة في دفتر المصادر(1) الرسمي للدائرة، وذلك من شأنه أن يُعيق التحقيق بشكل أو بآخر.

خرج «عماد» من المكتب في ثقة استمدها من حديثه الذي طال دون إدانة، أو رخامة كما توقع، وبعد دقائق من خروجه، عَلم المقدم «خالد» أن هُنالك شاب ينتظره في الخارج، تربطه علاقة وطيدة

بالمجني عليها، جاء من تلقاء نفسه دون استدعاء، يدّعي امتلاكه لمعلومات قوية تخص التحقيق، وذلك بصفته خطيب «نريهان»، وآخر من تحدث إليها قبل أن يتم قتلها بقليل.

***

«مشرحة كوم الدكة»

لم تكن الأجواء أمام المشرحة آنذاك كما اعتاد عليها أهل المنطقة، فالجميع هنا أِلف اصطفاف سيارات نقل الموتى أمام ذلك المبنى العتيق بالإسكندرية، ورؤية السيدات المتشحات بالسواد، وسحابة من دخان سجائر الرجال الحزانى، واقفين بجانب سياراتهم ونسائهم راجين مرور اليوم دون أن تقع إحداهم مغشيٌ عليها إثر الانهيار، فالأمر لا يتحمل المزيد من الإرهاق واللّف، يكفينا ميتٌ واحد.

في ذلك اليوم، كان الوضع هادئًا مستكينًا، لا توجد سوى سيارة إسعاف واحدة، بابها مفتوح على مصراعيه، وأمامه ممرضٌ وسائق، يقومان بإنزال جثمان المغدورة «نريهان»، وبعد وضعها على الترولي، استقبلهما في ردهة المبنى.. «غريب العتال»؛ أشهر من أنجبت مشرحة كوم الدكة، استقبل أكثر من ألف وثلاثمائة جثة على مدار خدمته في ذلك المبنى، بداية من ضحايا جرائم القتل، مرورًا بشهداء الثورة، وأخيرًا تلك الفتاة النحيلة التي لتوها دخلت من بوابة المبنى واستقبلها «غريب» استقباله المعتاد؛ قرأ جواب القبول ومعه قرار بأمر من النيابة لتشريح الجثة. امسك بالترولي ورفع الجثة فأوقفها على جنبها، قبل أن يضع تحتها لوح معدني طويل، ثم أعادها مرة أخرى، زحزحها قليلًا لتستوي فوق اللوح، ثم قام بشد

اللوح من ترولي الإسعاف إلى لوح آخر تابع للمشرحة، أومأ برأسه للممرض مشيرًا بأن: "طيير.. كله في السليم المدشدش".

اتجه الأخير إلى حجرة مخصصة لإنهاء الإجراءات الإدارية، بينما توجه «غريب العتال» وبرفقته جثة «نريهان» إلى حجرة أخرى بنهاية الردهة، ملصق بجانبها ورقة مدوّن عليها بخط النسخ (الثلاجة). أوقف الترولي، دس يده في غياهب البالطو المتسخ، أخرج ميدالية مكتظة بالمفاتيح التي نسي أبواب مُعظمها، بحث بينهم عن المفتاح ذو الفتلة البيضاء الملفوفة حوله، حتى وجده، وضعه بفوهة القفل، قبل أن يديره فيُفتح، أزال القفل وعلقه جانبًا، قبل أن يفتح البابين الخشبيين عن آخرهما، وقف بالداخل قبل أن ينير بالحجرة لمبة خافتة توشك على الاحتراق، سحب الترولي ثم استدار ناحية الثلاجة. بالداخل لم تكن الأجواء هي ذاتها خارج الحجرة، كان الهواء ثقيلًا، باردًا، مشحونًا بلزوجة تشعر بها حين تتنفس، الشهيق ليس سهلًا، والزفير دَمِثٌ في حضرةٍ من بالداخل.

أما عن الثلاجة التي أمام «غريب»، فلم تكن كالتي أعتاد الناس على رؤيتها في الأفلام؛ أدراج معدنية كبيرة الحجم موزعة بالتساوي، تحوي الواحدة منهم جثمانًا واحدًا لا أكثر. لم تكن كذلك، فتلك مكونة من ضلفتين كبيرتين بجانب بعضهما بعضًا، تشبه في تكوينها ثلاجة الجبنة لدى البقال، ولكنها من دون زجاج شفاف، معدنية الصُنع، طلاؤها أبيض باهت غير مُتقن. الضلفة الواحدة تحوي ثلاثة مستويات، كل مستوى عبارة عن مجموعة من العجلات المعدنية متراصة جنبًا إلى جنب، موضوع فوقها لوح معدني مطلي بالأبيض كما الثلاجة، يتحمل الأوزان الثقيلة إلى ما فوق المائة

وخمسين كيلوجرامًا - وكذلك العجلات - ولكن ما يعيبه حقًّا، هو أن «غريب» لا يعبأ بتنظيفه، فكثيرًا ما يأتي إلى المشرحة جثامين تعرضت للعنف قبل مقتلها، فتكون النتيجة، دماءً ناضحة أسفلها تتبقى فوق الألواح بعد أخذ الجثة لحجرة التغسيل، اقترب بالتروللي قليلًا قبل أن يضع جثمان الفتاة فوق أحد الألواح المتسخة، بمفرده دون مساعدة من أحد، صحيح أن الخبرة تعني الكثير في هذا المكان دون غيره.

***

الخامس

الإسكندرية 1987

على متن القطار «904» أسباني مكيف، المتجه من طنطا إلى القاهرة، جلس الريس «جودة» إلى جانب مدير إدارة الوحدات المتحركة؛ «حسني مدكور»، كانا في اجتماع بهيئة السكة الحديد بطنطا، وذلك لمناقشة بعض الأوراق الخاصة بقطار جديد جاري التفاوض على ضمه للهيئة في الأشهر القليلة القادمة. كانا جالسين بعربة الكافتيريا، يدخنون سجائرهم إلى جانب أكواب القهوة، وعلى حين غرة، هرع إليهم أحد العاملين بالقطار، وأخبر الريس «جودة» أن هنالك ذعر في عربة رقم «5»، انتفض الريس «جودة» وخرج خلفه، وتبعهما المهندس «حسني»، حين وصلوا عربة رقم «6»، لاحظ الريس «جودة» حركة غير طبيعية وصوت ضجيج ملحوظ داخل العربة، وبعدما تجاوزاها، كان ركاب العربة رقم «5»، مرتعدين، رافضين الجلوس في أماكنهم خشية ذلك الصوت المرعب، كان يشبه ضرب شيء معدني بقوة غاشمة وبانتظام، وكان مصدره أسفل منتصف العربة، مما جعل النساء يرقعن بالصويت والنحيب، وشعر الجميع أن هذا القطار - نظرًا إلى سرعته - على وشك الانقلاب، ظل الجميع في حالة ذعر، حتى دلف الريس «جودة» إلى داخل العربة، وجد أن الصوت مفزعًا بحق، وجميع الركاب، كبيرهم وصغيرهم مرعوبين، حينها أدرك المهندس «حسني مدكور» أن ذلك الصوت يرجع إلى «شيّالة الفرامل»، وبناء عليه، أرسل إشارة إلى وحدة المراقبة بطنطا حتى يقوموا بتبليغ القطار الذي يليهم، من أجل أن

يتوقف، وجاء الرد بعد دقيقة ونصف بالتعامل مع الموقف، وحينها أدرك الريس «جودة» أن الوضع بات خطيرًا، فالقطار يجري مسرعًا، وصوت الضرب أسفل العربة بات مرعبًا، وحينها اتخذ «حسني مدكور» قرار بوقف القطار في الحال، وأشار إلى أحد العاملين للنزول بعد توقف القطار ورفع الشيّالة، وهرع الأخير نحو «فرامل الهوا» ليقوم بإيقاف القطار، لاحظه الريس «جودة» وقبل أن يقوم بسحبها، أرداه الريس «جودة» بكف على مؤخرة رأسه، ناعتًا إياه بالغبي، وأمره بالتنحي جانبًا، قبل أن يذهب بشخصه ليقوم بفصل السرعة أولًا، قبل أن يتبعها بالـ«هوا» رويدًا رويدًا، حتى لا ينقلب القطار في ثوانٍ معدودة، كان ذلك قبل أن يتوقف القطار بضع دقائق، رفع فيهم أحد العاملين ذراع الفرامل الذي سقط وسبب كل ذلك الذعر، ثم تحرك، قبل أن يرسل الريس «جودة» إلى وحدة المراقبة قائلًا:

- مين عندك في طنطا يابني؟

فجاءه الرد سريعًا..

- المهندس «وليّم شحاته».

- طيب.. بلغ، القطر 904 إلى القاهرة بقيادة الريس «سيد جودة».

على الرغم من التصرف الجريء واللحظي الذي افتعله الريس «جودة» داخل ذلك القطار، وبالرغم أيضًا من وصول القطار - رغم توقفه - قبل ميعاده بقليل، إلا أنهم أخبروه أنه تسبب في ذعر لجميع الركاب، وأنه ورغم حفاظه على أرواحهم، إلا أنهم وجدوا فيما فعله؛ جرأة غير مطلوبة في مثل تلك المواقف، وإحياءً لماء وجهه، عرضوا

عليه مكافأة رمزية نظير التزامه بكتيّب الإرشادات الخاص بالسكك الحديد، وكانت تلك المكافأة تتمثل في ثلاثين جنيهًا رفضها الريس «جودة» معلقًا: "ملمعش بيهم جزمتي".

منذ ذلك الموقف ورغم ما حدث، إلا أن مكانة الريس «جودة» وسط المهندسين بالهيئة، تغيّرت بشكل ملحوظ، صار حديث البعض لفترة ليست بقصيرة جراء رفضه للمكافأة، حيث إنه من المعروف عن مهندسي الهيئة، رغبتهم الملحة في نيل المكافآت، فمن يرفض ثلاثين جنيهًا في وقت كان متوسط مرتب أمين المخازن آنذاك أقل من تلك المكافأة.

***

الإسكندرية 2009 م

قبل أن يغادر الريس «جودة»، كانت أصوات سارينة عربات النجدة في الخارج تتداعى بالتدريج. خرج أغلب الموظفين من الداخل حين عَلِموا أن وزير النقل بالخارج في زيارة مفاجأة لهيئة السكك الحديدية والأراضي التابعة لها، ولم يأتِ بمفرده بل صَحبه عدد من المستثمرين المصريين والعرب. ظن الريس «جودة» حينها أن وقع الإشاعات التي كانت تقال في الآونة الأخيرة، ربما كان صحيحًا، هل بالفعل قد أتوا حتى يناقشوا خصخصة الهيئة؟ ألم يكفيهم التوربيني؟ الذي قاموا ببيعه خردة وتم إلقاءه بعد ذلك في الجبل، بعدما كان القطار الوحيد الذي كان لا يميز بين موظفي السكة الحديد والركاب العاديين، فكلاهما يدفع ثمن تذكرته بالكامل دون خصومات.

بعدما طوق الوزير ومَن معه محيط الهيئة، كانت محطتهم الأخيرة هي أرض تابعه للسكة الحديد، ذات مساحة شاسعة وموقع فريد، وبالرغم من اختباء أغلب المهندسين والموظفين بالهيئة من زيارة الوزير خشية السؤال عن أي تفاصيل يجهلوها؛ إلا أن الريس «جودة» ظل ملازمًا لتلك المجموعة أينما حلّت أقدامهم، ليس فضولًا منه، بل ريبة من وجود العديد من المستثمرين الطموحين، ذوي الوجوه غير المعروفة، وكان أكثر ما يعتمل في نفس الريس «جودة»، هم هؤلاء المستثمرين الطموحين، فأخذ يسترق السمع إلى تلك المحادثات المدبجة المملة بين سيادة الوزير ورئيس الهيئة، حتى انتهى الطرفان من الديباجة المحفوظة، وبدأ الحديث عن ما أتوا جديًا لمناقشته والاتفاق عليه، وكان ذلك بخصوص تلك الأرض التي يقفون بجوارها؛ «أرض مخازن المَغلق»، وكان الحديث المُبرم بينهم، أن ضمن الحاضرين؛ مستثمر يُدعى «أمجد زهران»، ينوي والنية لله، أن يقوم بشراء تلك الأرض من الهيئة، كي ينشأ عليها عدة مشاريع حديثة، كمساكن للشباب تحيطها عدة مشاريع صغيرة ستجعل من تلك البقعة مكانًا ذا حيوية معمارية وسكنيّة متميزة، ناهيك عن سلاسل المطاعم الشهيرة والكافيهات التي ستنتشر في المحيط وبالطبع سترفع من شأنه، ولم يكن الأمر محض اقتراح أو مناقشة عابرة، بل كان الأمر قد تمت دراسته مسبقًا بالفعل، وهذا يفسر الزيارات السابقة التي تردد فيها على الهيئة وأراضيها مجموعة من المهندسين المعماريين لرفع بعض المقاسات للأرض.

وحين علت أصوات الجميع تطبيلًا لما يحدث، مُعبرين عن مدى إيمانهم بأن ذلك المشروع سيكون من أنجح المشاريع التي ستقام

في الدولة في المرحلة الراهنة والقادمة؛ إلا أن الريس «جودة» كان له رأي آخر:

- وفين البديل سيادتك؟

وسط استهجان العديد من الواقفين، آثار سؤال الريس «جودة» العقول، وداعبها، وبعدما عم الصمت للحظات، سرت الهمهمات بين الواقفين، وكان من المتوقع أن يقوم أحد الواقفين بتسكيته، ولكنه أكمل ما بدأه:

- مع حضرتك «السيد جودة» أمين مخازن، 28 سنة في الهيئة، وسؤالي لحضرتك طالما الأرض دي الهيئة هتبيعها، فين البديل؟

لم يجيبه الوزير رغم شهرة ذلك الوزير آنذاك بلسانه السليط، وجرأته البالغة، فأكمل «جودة»:

- هل سيادتك على دراية بإنه الأرض دي عليها معدات ووحدات معالجة فلنكات تابعة للهيئة؟.. ف يعني قبل ما سيادتك وسيادة الباشمهندس ما تمضوا وكلنا نبارك.. يا ريت توفرولنا البديل اللي هيتنقل فيه الهيصة دي كلها.

ساد الصمت لدقائق قبل أن ينظر وزير النقل إلى الريس «جودة» في تأمل، ثم أغلق لبيسة القلم قبل أن يخبر من حوله بضرورة إعادة التفكير بشأن تلك الأرض، فربما ليست مناسبة. اقترب من الريس «جودة» وأعرب عن مدى سعادته بوجود أحد المخلصين بين أولاده في الهيئة، قبل أن يغادر، ولكن قبل أن يغادر الجميع ظل «أمجد زهران» واقفًا بين الراحلين واحدًا تلو الآخر، يحدج بالريس

«جودة»، ويرميه بأشر النظرات، قبل أن يقترب منه ويرتب على كتفه وهو مشعلًا سيجارة بنية رفيعة، هامسًا:

- الله ينور يا ريس «جودة».. عظمة.

***

السادس

حين ضربت البرودة وجه «ياسين» بعد ارتطامه بسطح المياه، لم يشعر سوى بلسعة خفيفة في خده الأيسر، تبعها سخونة تسربت تدريجيًا إلى راحة يده، ذلك قبل أن يفيق من سرحانه ويدرك أن كنكة القهوة المكسورة يدها، قد طفح نصفها فوق يده، سحبها سريعًا ليضعها تحت مياه الحنفية الباردة، تزامنًا مع طنين عربة الجر في القطار العملاق، الذي لا يزال ينخر طبلة أذنه بلا رحمة، نفخ في ضيق قبل أن يترك المطبخ بحالته ويخرج، دلف إلى غرفته، أخرج من دولابه المفتوح دون ضلفة؛ ملابسه الداخلية، وهيأ نفسه لدش ساخن ربما سيُعدل من مزاجه، ولكنه لم يكن كما توقع، فالسخّان وكالعادة ليس في أفضل حالاته، المياه لا تنفك أن تصبح ساخنة لثوانٍ حتى تمسي باردة مُثلجة في ذات الثواني، خرج «ياسين» بعدما تعرض لعدة صدمات باردة وساخنة على التوالي، ثم عاد إلى غرفته ليواري أوراقه التي أخرجها منذ قليل، أغلق عليها الدرج بقفل نحاسي صغير، ثم جلس على مكتبه مجددًا، وعقد النية على الشروع في الكتابة، لعله يلتقط طرف خيط لتلك الأفكار التي ثُلح عليه بين الحين والآخر، ولكن لم يستغرق الأمر عدة دقائق حتى غفا «ياسين» فوق آلته الكاتبة دون أن يشعر، ولم يسعه في استرجاع كابوس القطار، فقد تسرب إلى أذنيه صوت جرس الباب، رفع رأسه قليلًا ليتأكد، قبل أن يسمعه مجددًا، نهض بثِقل وخرج إلى الصالة فلم يجد أخاه، أقبل على الباب ففتحه ليجد على بُعد متران؛ «رامي» يقف مستندًا على درابزين السُلم، ناظرًا إلى أسفل، انتظره «ياسين» قليلًا قبل أن يشب إلى الخارج قليلًا، مستفسرًا:

- بتبُص على إيه؟

التفت إليه قبل أن يلاحقه..

- الواد اللي اسمه «إسماعيل» اللي في شارعكم ده، عيِّل أستغفر الله.. تقولش قاتل له قتيل!

- «إسماعيل سلطح»؟.. عملك إيه؟

- شكله غلط، داخل الشارع ولسة هدخل العمارة لقيته جي يجري عليا، اتخضيت، وفي الآخر لقيته وصل عندي، بص لي وخد بعضه ومشي.. طب جريت عليّا ليه يابن المرة!.. كنت هناوله كف لولا إني في منطقته.

ابتسم «ياسين» قبل أن يشير له بالدخول.

دلف «رامي» من باب الشقة، ثم دفعه ياسين قليلًا إلى الداخل، خشية أن يُملي عينه من تلك الفوضى التي تسبب فيها أخيه «علي»، وقبل أن يُغلق «ياسين» باب غرفته، أخبر «رامي» ألا يحاول مجددًا خوض جدال ولو بسيط مع ذلك المدعو «إسماعيل سلطح»، وذلك لأنه وعلى الرغم من أنه يصغره سنًا بخمس سنوات تقريبًا؛ إلا أنه قصته عجيبة، وله ماضٍ لا يُستهان به، فإسماعيل تعرض لحادثة من صغره أفقدته النطق شبه كليًا، ولم تلك أكبر عقبات حياته، حتى بلغ من العمر ما يكفيه للتقديم على أداء الخدمة العسكرية، والتي بالطبع سيتم إعفاؤه من تأديتها، ولكن جرت الأمور على نحو مُغاير، فإسماعيل ولأنه لم يُكمل تعليمه أو يبدأه من الأساس، كان من نصيبه الانضمام تحت بند «العادة»، ولتلك الفئة حظ غير موفق عند

التقديم، فالمُعاملة - وللأسف - عادةً ما تكون غير لائقة، ولا تحمل في طياتها مصطلح اللقة، فمن المعروف عن المتقدمين «العادة» لدى المُختبِرين والأطباء؛ أنهم يكذبون دون مبررات، وذلك كي يحاولوا بشتى الطرق الحصول على إعفاءٍ أو تأجيل يُبعدهم عن أداء الخدمة العسكرية بشكلٍ أو بآخر، وكان من نصيب «إسماعيل» أنه حين تقدم للكشف الطبي ولم يجيب على أسئلة الطبيب المُجند، شعر الأخير أن ذلك المدعو «إسماعيل عبد المنعم سمنهوري جاد الله»، لم يكن صادقًا بشأن عدم قدرته على التحدث والإجابة، وحينها أعاد عليه الطبيب السؤال، ولكن تبعه بشبة أثارت غضب «إسماعيل»، فأخذ يُهلل بكلمات لم يفهمها الحاضرين بذات القاعة، وحين على صوته وأحدث جلبًا غير مُستحب في تلك الأماكن، تم سحبه من القاعة زاحفًا، ملعونًا بشرف أبيه وأمه وسلسفيل أجداده لادعائه الخَرَس. أدخلوه حجرة صغيرة، وانهالوا عليه ضربًا حتى ينطق، ولو كان المسكين قادرًا على التحدث، لما عَرِف أنه حتى لو أجابهم الآن، لما رفعوا عنه أيديهم. ظل الجنود يضربون «أسماعيل»، بضع دقائق تخطت العشر، حتى كلّت أيديهم، رموه في زاوية الغرفة يبكي ويحاول جاهدًا أن يلتقط أنفاسه، وبعد دقائق وحين هدأ قليلًا، أتى إليه أحد الجنود وأعطاه أوراقه، مُبلغًا إياه أن يأتي في صباح الغد كي يُنهي أوراق الإعفاء النهائي، فَرِح «إسماعيل» وكأنه وُلد من جديد، ونسي ما قدّمت له أيديهم، غادر مُتحاملًا علي قدميه التي لم تقوَ على حمله إثر الضرب. حين عَلِم أباه الحاج «عبد المنعم»، تمكن منه الغضب، إذ كان يريده وبالإجبار، أن يلتحق بالجيش لعلّه يجد مصروفًا لنفسه، وربما يتطوع فيُكمل حياته في الجيش، رغم

معرفته باستحالة ذلك نظرًا لحالة ولده الأخرس، ولكن لم يمنعه هذا من التوصية عليه رغبةً في إلحاقه دون النظر إلى إعاقته، وذلك لأنه تراءى له أن ذلك ربما سيكون أفضل له من فرقة البلطجية التي انضم إليها ولده مؤخرًا. في صباح اليوم التالي ذهب «إسماعيل» مرفوع الرأس، ينوي استلام شهادة الإعفاء النهائي ويحقق ما عجز عنه ثلاثة أرباع المتقدمين، ولكن وكما قالها الفنان سعيد صالح - رحمه الله - "طِبق الأصل العلقة اللي فاتت". كان في انتظاره طبيبًا غير ذلك الذي تعرض له صباح أمس، أرسله إلى ذات الحجرة ليتلقى ذات العلقة، وحين فرغ الضاربين من تلقينه درسًا في عدم الكذب والنطق إجبارًا حتى وإن كان لا يملُك لسانًا في الأصل، تركوه حتى يهدأ، ولكن في النهاية وحين يئسوا منه، أخذوه على محمل الجد، وسلموه شهادة الإعفاء بعد كثير من العناء.

لم يكن من شأن الشهادة أن تُغير في سلوك «إسماعيل» سوى للأسوأ، فربما كان والده على حق بأن الجيش كان سيُعدل من سلوكه ولو قليلًا، فإسماعيل أصبح ممن تخشى المرور بجانبهم في طريق مظلم كان أو حتى في وَضّح النهار، فقد تم تخديره في إحدى المرّات من قبل أحد البلطجية أصدقائه، وأصبح «إسماعيل» غير واعٍ لما يقوله أو بالأحرى.. ما يحاول قوله.

فكلما أرادت ضحبته الضحك والعبث، أعطوه حبة من حبوبهم المُهلوسة، وراحوا يجلسون كما المُتفرجين في مسرح. كان يعجبهم «إسماعيل» حين لا يدري ماذا الذي أتى به إلى هذا المكان، وماذا إن كان في الأصل ليس أخرس والبقية من حوله هُم فاقدي النطق، وأن حديثهم هذا غير مألوف بالنسبة له. وبعد أشهر قليلة من تلك الحالة،

أصبح «إسماعيل» الملقب بـ«سلطح» - نظرًا إلى كِبر مساحة قفاه - أحد بلطجية الحي، وذلك بعدما تورط في عدة مشاجرات أدت إلى إصابته بالعديد من العلامات والندوب في مختلف أنحاء وجهه وجسده، وحينها لم يكن من البلطجة بُد.

وأصبح من يعرفه، يخشاه، فهو شخص لا يحسب الكلمات قبل عدم التفوه بها، هو فقط يُبادر بالضرب حين يشعر باقتراب خطر.

حين استقر «رامي» فوق الأريكة بغرفة «ياسين»، بدا شخصًا ذا مظهر لائق، مُهندم اللحية الثقيلة نسبيًا، لا يظهر على وجهه أو عيناه مظهر من مظاهر الحشاشين الأصليين، الذين يعلنوا صباحهم بسيجارة ملفوفة محشوة بأفخر الأنواع، وإلا فلا صباح الخير حتى يأتينا المساء.

أغلق «ياسين» باب الغرفة مُتمنيًا لو كان أدار تلك المحادثة خارج ذلك البيت الكئيب غير الصالح للمعيشة الآدمية النظيفة، ورغم أنه لا يهوى الخروج من بيته مهما كلفه الأمر، إلا أن الخروج كان بمثابة المتنفس الوحيد بالنسبة له، ولكن ذلك المتنفس سيكلفه بعض المصاريف، حتى مُجرد التمشيّة على كورنيش البحر، ستكلفه بعض المصاريف، ولكن لم يختلف الحال عن بيته بشكل كبير، فأيضًا لم يكن البيت عامرًا بالأكل والتسالي وحتى أبسط الأمور الأساسية كمياه نظيفة صالحة للشرب من دون فلاتر منقية تالفة منذ سنوات، وكانت تتكفل السيدة «محاسن أم ليلى» بالعديد من وجبات الغداء التي ترسلها بين الحين والآخر، وذلك لشدة ارتباط زوجها الريس «عبد المجيد» بعلاقته الأخوية التي تربطه بوالد «ياسين».

حين صمت الاثنين لثوانٍ، أصدر «نوحي» صوت رفرفة بجناحية العريضين، مما أثار القلق لدى «رامي»، فما كان منه سوى أنه ابتعد قليلًا عن محيطه، حتى لا يتأذى، معلقًا:

- أنا نفسي أفهم إنتَ إيه غيّتك في تربية البتاعة دي؟.. بومة!

ابتسم «ياسين» في سخرية، قبل أن يلاحقه: "بغض النظر عن إنه البومة هي الطائر المفضل ليّا، وتربيتها آه مش سهلة ومحتاجة مجهود.. لكن «نوحي» له عندي مَعزة خاصة، ومش كل شوية هتسألني بقى، شوفلك قفلة".

- طيب سيبك.. عملت إيه في الرواية، لسّه برضو؟

تنهد «ياسين» قبل أن يستطرد: "الموضوع معقد، الدار عملالي وش، طول الوقت بيستعجلوني، ومدير الدار مش راحم نفسه كل ما يكلمني يفكرني ببند العقد اللي مضيته، واللي بيجبرني أشارك بعمل خلال سنتين بالكتير، أنا مش عارف عقلي كان فين وأنا بمضي العقد ده".

- وإنت مكنتش قريته؟

- للأسف مش القراية اللي هي.. أنا مكنش في دماغي أي حاجة من دي أصلًا، هي جت كده.

- طب وبعدين، لو مالتزمتش بالعقد، هيعمل إيه يعني؟

- غرامة مالية مش عارف كام ألف، وغير كده وده اللي يهمني، موضوع السُمعة، إنه يتنشر عنك كلام إنك مش بتحترم مواعيدك ولا شُغلك، حاجة مش لطيفة. خصوصًا في مجال الكُتب والقراية ده..

اللي بيقع فيه قومته مش بتبقى بالساهل خالص.

استغرق «رامي» في تحليل كلام «ياسين»، لعله يصل معه إلى حل يفيده في الحصول على أفكار لروايته الجديدة، وبعد دقائق من التفكير، أعرب «رامي» عما يدور في خُلده:

- مش عارف اللي هقوله ده ممكن يفيد إزاي، بس جايز يشتغل معانا كويس.

عدل «ياسين» من جلسته، مُعيرًا لصديقه الكثير من الاهتمام، كان ذلك قبل أن يستطرد «رامي» ويسترسل في الحديث: "أنا كنت شغال على مشروع كده لشركةٍ ما، وفكسوا منه بعد ما قطعت فيه شوط كبير، بس منهم لله بقى بعد كده خلعوا.. المشروع عبارة عن موقع مواعدة".

- مواعدة؟ شَقط يعني.

- شقط إيه!.. يابني اسمع.. الموضوع أشيّك من كده، الفكرة بتاعت الموقف قائمة على إن اتنين ميعرفوش بعض يتكلموا ويلاقوا حاجات مشتركة بينهم وبناءً عليه يتقابلوا في الحقيقة، والشركة اللي كانت طالبة مني الموقع ده، اختصروا الفكرة وخلوا الاتنين دول بدل ما يتعرفوا في الموقع، لا ينزلوا ويتقابلوا في برنامج Dating يتذاع ع السوشيال ميديا على طول.

- امممم، يعني شقط برضو.

- يابني لأ.. هو يبان كده، بس الحقيقة إنه موقع للفضفضـ..

قاطعه «ياسين»..

- والوساخة.

- ييييي، افهم بقى، أنا عايز أساعدك وإنتَ بتهزر أهو.

- ما أنا عايز أفهم، أنا استفدت إيه من موقع الشقط ده؟

اسند «رامي» ظهره إلى الوراء قبل أن يقول بكُل ثقة:

- استفدت حركة صايعة.. إحنا نخلي كُل اللي يدخل الموقع.. يكلمك أنت!.. يحكيلك أنت، واكتب بقى وعييش.

رمقه «ياسين» للحظات، قبل أن يتبادر إلى ذهنه العديد من السيناريوهات عن تلك الفكرة، والتي ربما ستفي بالغرض.

نهض «ياسين» ودلف إلى البلكونة، وبالزاوية المظلمة منها، مد يده لصندوق معدني صغير، وأمسك بذيل فأر شوارع متوسط الحجم، كان يتأرجح داخل القفص وكأنه مغشي عليه.

***

السابع

«مشرحة كوم الدكة»

بعد ساعات قليلة من وضع جثة «نريهان» بداخل ثلاجة المشرحة، كانت الأجواء بالداخل ليست على ما يرام، فمن المتعارف عليه وسط مُجتمع غمال المشارح أو الأطباء الشرعيين، فدخول جثة جديدة وسط ثلاجات حوت الكثير من الموتى قبلها، يعني بالأحرى وجود مراسم ترحيب واستقبال من العيار الثقيل، فبعض الغمال يروي أنه بمجرد استقبال جسد جديد لمتوفى، تظهر علامات غريبة على جدران المشرحة، بعضها يصيبه القِدم وتتشوه معالمه، وكأنما انتشر فيروس غريب تسبب في تلف دهان الجدران، وربما لذلك السبب تلجأ بعض المشارح إلى تبليط جدرانها، درءًا للحاجة إلى إعادة دهانها مرة أخرى.

ما أصاب مشرحة «كوم الدكة» على وجه التحديد بعد استقبالها جثة «نريهان»، كان غريبًا بحق، فلم يتوقف الأمر فقط على أصوات غريبة أخذت تنتشر في الأرجاء، بل أضِف إلى ذلك، تلف أغلب صنابير المياه في المشرحة بدون سبب وجيه، وكأن أحدًا لم يحكم غلقها، لم يستمر الترحيب كثيرًا، وذلك مع اقتراب شخص غريب عن المشرحة، كان ذلك «محمود»؛ خطيب «نريهان»، أتى منهارًا يطلب رؤيتها، ولكن هذا الأمر ليس بهين في حين وجود ملابسات جريمة قتل محتومة، ولكن وكما ندري، الأموال تصنع المعجزات. قام «محمود» برشوة «غريب» حتى يتمكن من رؤيتها قبل صدور تصريح الدفن، وعلى الرغم من خطورة زيارة جثمان لم يتم الكشف

عليه، إلا أنه رآها بالفعل، اختلس النظر إليها في حضور «غريب المشرحجي»، حتى يحرص على عدم لمس الجثة بأي شكل من الأشكال، فربما أتى ذلك الشخص لدس دليلٍ ما من شأنه تغيير مجرى التحقيقات، بكى «محمود» كثيرًا، وشعر بدوارٍ غير مسبوق، ولكن هذا متوقع، فرؤية الموتى ليست كما يتراءي للكثير، ثبات شخص في أثناء نومه يختلف كثيرًا عن ثباته حين تفارقه روحه، فالبرودة والشحوب حين يصيبا جسد المتوفى خاصة بعد ساعات؛ يمسي شخصًا آخر وذلك ما تفسره حالة التغيير التي تصيب الجثمان بسبب التيَبُّس الرِّمي(2)، حتى أن ملامح الجثة لا تسلم من ذلك التغيير، وهكذا كان جسد «نريهان».

غادر «محمود» لحسن حظه قبل أن يأتي طبيب التشريح «يوسف قابيل»، الطبيب المُهاب من جميع مرتادي مشرحة «كوم الدكة»، ذلك الذي التحق بالمشرحة منذ سنوات عديدة، نسي فيها كم من الجثث قد قام بفحصها وتشريحها وبالأخص، التحدث إليها.

فقد أدرك الدكتور «يوسف» بعد تخرجه وتكليفه في إحدى مشارح المستشفيات؛ أن التحدث مع الموتى أمرٌ لا مناص منه، وذلك إذا أراد التعرف على قاتلها أو السبب في مقتلها، ولم يكن هذا بالأمر اليسير في بدايته، فلقد عانى كثيرًا حتى عَلِم أن التحدث مع الموتى لا يعني بالضرورة نهوض الجثة من فوق سريرها، وطلب واحد شاي، وإلا فلن تتحدث. كان عليه أن يعلم أن لغة الموتى ليس لها حروف أو كلمات، بل هي علامات، تدركها حين تُهيأ نفسك لرؤيتها، ولن تراها حتى تؤمن أنك حتمًا سترى، ففن التحدث والإصغاء إلى الموتى ورغم غرابته، إلا أنه يفتح للعقل بواباتٍ من شأنها ربط أمور ببعضها

لم تكن في الأصل ستترابط. عالم الموتى كان بالنسبة إلى الدكتور «يوسف» مُبهمًا، حتى بعد تخرجه من كلية الطب، ولكنه أدرك مما لا يدعو للشك مجالًا، أنه خُلق لمثل تلك المهنة، لا لقدرته على التحليل الجيد ومهارته التشريحية، ولكن لتفرده دون غيره من زُملاء العمل، بمهارة الإصغاء، فهنا تكمُن الانفراجة التي ينتظرها كل طبيب شرعي يعمل على جثة معقدة الجوانب.

بعدما دَلف دكتور «يوسف» إلى مكتبه بعنوانٍ معدودة، فُتح الباب من بعد ثلاث خبطات سريعة، عَلِم منها «يوسف» أنه المعتوه «غريب»، اقترب من مكتبه بعد سلامات عديدة، مناولًا دكتور «يوسف» ملفًا مكتظ بعدة ورقات وبعض الصور الفوتوغرافية، تناوله قبل أن يضعه فوق مكتبه، ويخبره بإعداد وتجهيز ونقل الجثمان من الثلاجة إلى غرفة التشريح في غضون دقائق، ثم العودة للتأكيد عليه، هز «غريب» رأسه الكبير المفلطح مرارًا وغادر المكتب، أخرج «يوسف» هاتفه ومتعلقاته الشخصية من جيوبه، ثم أودعها أحد الأدراج، وفتح ملف المدعوة «نريهان» ليلقي نظرة عليه، تمعن قليلًا بالصور المرفقة قبل أن يدقق بإحدى الصور التي تبيّن بها زجاجة خمر من نوع «×××»، من الواضح ضلوعها في الجريمة. بهدوء بالغ، لم يستعجل الفرضيات، أغلق الملف ونهض لتجهيز نفسه للدخول إلى غرفة التشريح، ارتدى جاون العمليات، عَقّم يديه جيدًا قبل أن يرتدي قفازاته الطبية ويغادر مكتبه.

في الخارج، كانت الطرقة المؤدية لغرف التشريح، معبقة بروائح المنظفات التي يُبالغ عمال النظافة في رشّها، والتي ولسوء الحظ تمتزج برائحة الموت، مُسببةً مزيج مريب لا تدركه الأنوف بسهولة،

مشى الدكتور «يوسف» متأقلمًا مع تلك الرائحة التي اعتادها منذ زمن، دلف إلى غرفة التشريح ممسكًا بيده ملف «نريهان»، نحاه جانبًا قبل أن يلقي نظره على الجثمان الراقد أمامه، ولم تكن العلامات الأولية مُبشرة بالخير، فسرعان ما شرع دكتور «يوسف» في فحص الجثة بعناية، وبعد مرور عدة دقائق أدرك «يوسف» أن الحديث معها ربما سيكون خير بداية من الفحص الدقيق، فالجثث حديثيّ الوفاة؛ كثيري الثرثرة، فأخذ يسألها عما حدث لها من مكروه، هل كانت مستعدة للموت حين بادرها قاتلها بالخنق؟ هل استسلمَتْ؟ هل قاوَمتْ؟ أكانت في مسرح الجريمة بمحض إرادتها، أم لم تكن تنوي الصعود لولا تهديد ما أخافها؟ هل للقاتل صلة معرفة تربطها به؟. لم تكن «نريهان» تنوي التحدث في الوقت الحالي، ولذا كان من الواجب، الحصول على بعض العلامات الظاهرية لحين إدراكها لصدمة الموت ومن ثم التحدث.

بعد أقل من ساعة، وتزامنًا مع تشريح جثة «نريهان»، كان قد وصل خطيبها «محمود» سرايا النيابة، طالبًا مقابلة عاجلة برئيس المباحث، وحين عَلِم المقدم «خالد الكومي» بوجوده، فوافق على مقابلته في إطار التحقيقات، وأمر بالتنويه عليه أنه كان سيطلب للإفادة لا محالة، حتى لا يظن أنه تكرّم علينا بزيارته، ثم استقبله بمكتبه بعد دقائق، جلس «محمود» يعتريه القلق، مُثقلة كواهله، آثر السكوت حتى سأله المقدم «خالد» عن مكانه وقت وقوع الجريمة، وأجاب الأخر بأنه كان متأخرًا في عمله حتى منتصف الليل تقريبًا، وبعدما ذهب إلى منزله، نام من كثرة الإرهاق، حتى عَلِم في صباح اليوم باكرًا بما حدث لخطيبته. استنكر «خالد» ما قاله بشأن السهر

في عمله إلى تلك الساعة المتأخرة، نظرًا لأنه موظف بإحدى شركات القطاع الخاص، فسأله عما إذا كان هذا التأخير اعتياديًا، فأفضى إليه بأنه مُعتاد في أغلب الوقت على التأخير إذا تطلب الأمر منه إجراء تعديلات لعملاء الشركة، تلك التعديلات التي لا بد أن تُصبح فعالةً قبل صباح الغد على سبيل المثال.

لم يُعلق «خالد» على إجابته سوى بهز رأسه قليلًا، قبل أن يُباغته بسؤال عن علاقته بنريهان مؤخرًا، أكانت على ما يرام أم كانا يواجهان بعض المشكلات، فأتى الرد متأخرًا بعد تفكير عميق، تبعه هزة رأس خفيفة مفادها أن لا؛ لم يكن بينهما مشكلات مؤخرًا.

بعدما أجاب «محمود»»، أعرب عما يعتمل في نفسه من رغبة في معرفة ما إن توصلوا لذلك الحيوان الذي تسبب في مقتل خطيبته، ولكن أتاه الرد هادئًا من المقدم «خالد» بأن التحقيقات سارية تزامنًا مع تشريح جثمانها، لحين التعرف علي قاتلها، ولكن حتى الآن لا يوجد دليل ملموس على شخصٍ ما بعينه. اغرورقت عينا «محمود» بالدموع، قبل أن تسري الهمهمات بداخل رأس «خالد» وهو في حيرة من أمره، ذلك المدعو خطيبها إما إذا كان يحبها حبًا جمًا، أو يشعر بالذنب تجاهها لسبب ما، ربما لم يسعه الوقت كي يقول لها شيئًا ما، ربما نسي أن يُعلمها شيئًا قبل مقتلها، وربما كان يعتمد عليها بشكل أقوى من المعتاد، أكان يحبها حد التعلُق؟ أم أخطأ بحقها وكانت تنتظر اعتذاره ولم يأتِ؟

رغم استغراق «خالد» في التفكير والاستنتاج، إلا أن «محمود» ظل صامتًا، ومن المُرجح أنه غرِق في تفكير أعمق بكثير، وكأنه

استعاد ذكرى يوم وفاتها، أو قبلها بأيام أو ساعات. حينها طرق الباب عسكري المراسلة مُبلغًا المقدم «خالد» بأن أهل المجني عليها بالخارج، قبل أن يلاحظ الأخير أن «محمود» اهتز قليلًا لما عَلِم أنهم بالخارج. حينها وبعدما طلب منه الإمضاء على أقواله قبل الإصرار على الخروج معه، وذلك ليس مواساة لحالته الصعبة الحزينة، ولكن حتى تتسنى له الفرصة أن يشهد اللقاء الذي سيجمعه مع أهل الضحية، كيف هي علاقتهم ببعضهم البعض؟. وكما توقع، كانت المقابلة ليست على ما يرام، تلك النظرات التي يملؤها اللوم والشك، تلك العيون الثابتة، وترقب المشادات الكلامية، ولكن لم يحدث سوا تلاقي أعين، وخصام بين الألسنة ملحوظ.

خرج «محمود» ودلف الأب والأم إلى مكتب رئيس النيابة برفقته، جلس الجميع قبل أن يفتتح المقدم «خالد» الحديث:

- البقاء لله.. ربنا يجعلها آخر الأحزان إن شاء الله.

قاما بهز رأسيهما قبل أن يُكمل:

- إحنا محتاجين شوية إجابات لأسئلة هتفيد التحقيقات كتير، علشان نقدر بإذن الله نوصل للي عمل كده...

ساد الصمت قليلًا قبل أن يبادرهم بسؤاله الأول:

- سن نريهان كام سنة بالظبط؟ وبتدرس إيه؟

لاحقته الأم:

- 26 سنة وتلت شهور يا بيه.. وكانت لسّه مخلصة كلية تجارة وبتعمل دبلومة.

دوّن رئيس المباحث بعض الإجابات في مُفكرة صغيرة، بجانب كاتب الأقوال، قبل أن يسأل:

- كانت بتشتغل أو بتتردد على أماكن معينة؟

- لا يا بيه كانت بتروحلها كام يوم في الأسبوع الكلية وعلى الامتحانات وبس، غير كده مش بتروح حتة.

- ليها أي أعداء.. حد بيكرهها، عملت مشكلة مع حد؟

- خالص يا بيه.. بنتي مالهاش أي أعداء والكُل كان بيحبها.

- امممم، طيب في الأيام الأخيرة يعني الأسبوع اللي فات ده مثلًا، كانت بتتعامل معاكم إزاي؟ كان فيه شيء مزعلها، متخانقين؟ هل كنتوا عارفين أصلًا إنها رايحة المكان اللي كانت فيه ده؟

تململ الأب في مجلسه، وأراد أن يُجيب، ولكن نظراته إلى والدة الضحية كانت بألف كلمة، صمتا قليلًا قبل أن تخفض الأم رأسها وتنظر إلى الأرض، فما كان من زوجها إلا أن يتحدث.

أشاد بتربيته لابنته «نريهان» على أكمل وجه، وأضاف أنها لم تكن لتخرج من بيتها سوى بعلمه أو علم والدتها، وعلى شرط أن يعلما مكان ذهابها أينما كان، ولكن في الآونة الأخيرة لم تكن تلك هي «نريهان» التي عهدوها، ويعزي هذا التغيير إلى أصدقائها المحيطين بها، بالتأكيد هم السبب الرئيسي فيما أمست عليه، فهم من يعرفون تلك الأماكن ويرتادون عليها باستمرار، ولكن «نريهان» ليست كذلك، وكان الأمر واضحًا جليًا، أن الأب يؤكد أن صديقتها التي كانت برفقتها ليلة الحادث، هي المتسببة في مقتلها. وكانت الأم رغم

الحديث المطول عن ابنتها؛ صامتة لا تُبدي تعاطفًا، فقط تستمع لما يرويه زوجها دون مشاعر ظاهرية، وحين تعمد المقدم «خالد» سؤالها على وجه التحديد، عما بدر من «نريهان» يوم الحادث، ماذا قالت قبل مغادرتها؟ ماذا دار بينها وبين ابنتها ذلك اليوم؛ أتاه الرد ليس كما توقع:

- «نريهان» كل اللي أعرفه عنها إنها عمرها ما تخبي عليا حاجة أبدًا.. لكن ، لكن من كذا سنة، وهي اتعلمت تخبي وتداري وبقت شاطرة في ده.

حين أعاد «خالد» ترتيب ما قالته الأم في ذهنه، تبادر إليه مباشرة، طول المدة، كيف كانت كل تلك المدة تدري أن ثمة شيئًا ما بابنتها ولم تفعل شيئًا، وقبل أن يستفسر منها عن السبب، كانت نظرات الأب له تحكي أشياء لم يَزوِها:

- حضرتك لو أب لبنت هتعرف معنى إنه.. إنه نقطة الثقة اللي بينك وبين بنتك لو ضاعت، أو اتهزت.. صعب ترجع زي الأول، وأنا.. خسرت مع بنتي النقطة دي.

لم تُكمل حديثها قبل أن تنهار وتتلفظ "حسبي الله ونعم الوكيل". وإن كان من سيسمعها سيظن أنها تتلفظ بذلك على قاتل ابنتها فحسب، ولكن حقيقة الأمر غير ذلك، فهذا الدعاء يشمل ذلك الشخص الذي كان سببًا في ضياع نقطة الثقة بينها وبين ابنتها، وهو الذي يجلس أمامها الآن!

منذ أن دلف معها من ذلك الباب، ومنذ الوهلة الأولى، بدا في حالة من الحزن ليست بطبيعية أو تلقائية، بداية من خطواته غير الثابتة،

ضعف توازنه الحركي الغير متناسب بالمرة مع سنه، صعوبة تركيزه وشروده أغلب الجلسة، كما يتضح أن لديه مشكلة ما بالذاكرة، تجعله يُعيد ذات الكلام مجددًا ولكن بطريقة مختلفة، وكانت تلك العلامات تُشير إلى شيء واحد دون غيره، واضح جليّ لا يحتمل شكوك. العطر المُبالغ في رشه من قِبل الزوج، على عكس المتوقع أن يفوح من الزوجة بدلًا منه، كان علامة على إخفاء شيء آخر، فاحتقان العين الناتج عن ضيق الأوعية الدموية في العينين، ومحاولته لإنهاء الحوار بعصبية مُفرطة، بالإضافة إلى مطالبته المُلحة بحق القصاص من قاتل ابنته، يؤكدون بما لا يدع للشك مجالًا؛ أن الأب سكير عربيد، يعرف طريق الخمر منذ سنوات من دون مُبالغة، مما أثار الريبة لدى رئيس النيابة، فالخمر ضلع من أضلاع تلك القضية.

في ذات الوقت، كان انتهى دكتور «يوسف» من تشريح جثة «نريهان»، وتمشى إلى خارج الغرفة قليلًا قبل أن يعود ليدوّن ملاحظاته التي سيكتبها في تقريره، ولكنه حين عاد إلى غرفة التشريح مرة أخرى، لاحظ اختفاء الجثمان الذي للتو انتهى من تشريحه! نظر حوله ليتفقد ما إن كان أحدهم قام بتغيير مكانها، ولكنه أدرك أن أحدًا لم يدخل الغرفة من الأساس، وقبل أن يُبلغ عن حرامي يسرق جثث المشرحة، التقطت أذناه صوت مياه تتقطر برفق، حينها رمق في أحد الأركان جسدًا مُبتلًا ينزوي منكمشًا على نفسه، تنظر له نظرة ملؤها الخوف والرهبة، وكأنها تريد التحدث، ولكنها لا تقدر.. كانت تلك هي «نريهان».

***

الثامن

لم يكن «أمجد زهران» سوى طفل تعلّق بوالده ووالدته كثيرًا، يعشق اللعب في الشارع بعد الرجوع من المدرسة مُباشرة، لا يهوى المذاكرة إلا قليل، فنصيبها من يومه لا يكد يتعدى الساعة والنصف على الأكثر، وعلى الرغم من اعتقاد الكُل فيه أنه طفل أبله، إلا أن درجاته في الامتحانات؛ هي أكبر دليل دحض ادعاءاتهم. كان مستواه الدراسي عجيب، امتيازات عديدة مع عدد قليل جدًا من الجيد جدًا، كان مريبًا للدرجة التي جعلت والده يشك أن ابنه ربما يكون غشاشًا، مما اضطره لمراقبته، حينها عَلِم أن الوقت الذي يستغرقه «أمجد» في المذاكرة، قليل جدًا بما لا يتناسب مع نتائجه العظيمة، وبعد السؤال عن مستواه الدراسي بين أساتذته، أكد جميعهم ولده بلا شك، وكان ذلك خير برهان على ذكاء وسرعة بديهة «أمجد».

حظيَ أمجد بصديق عزيز يُدعى «رؤوف»، وربطتهما علاقة محبة وصداقة من العيار الثقيل، فكان يهوى الذهاب معه إلى منزله بعد المدرسة في نهاية كُل أسبوع، وقُدّر له أن يتصادف كثيرًا مع والد «رؤوف»؛ الحاج «مرسي عبد اللاه»، رجل أعمال يملك العديد من مصانع والشركات ذات الصيت الواسع آن ذاك، ولكنه حين تخطى سن الرابعة والخمسين، أصيب بحادث أفقده القدرة على المشي، وظل في صراع مع الإعاقة حتى أيقن أن البقاء في البيت ومباشرة العمل عن بُعد؛ ليس منهما بُد، ولهذا السبب انتقلت جميع اجتماعاته برؤساء العمل لديه إلى بيته، هذا ما جعل «أمجد» يشهد أغلب

تلك الاجتماعات، وأحيانًا كان يسترق السمع إليها حتى يعلم عما يتحدث هؤلاء الرجال. كان فضولًا أراد أن يشبعه، للدرجة التي جعلته يأتي بيت صديقه خصيصًا من أجل تلك الاجتماعات، وجد في نفسه قدرات على تحليل كلامهم بصورة مُبهرة لأي ولد في ذات سنه، حتى أتى يومًا وفي أثناء جلوسه على مقربة من أحد تلك الاجتماعات؛ التقط مُعضلة حسابية جعلت من في الاجتماع صامتين ربما لدقائق متتالية، ثم أدرك صوت الحاج «عبده» حين استشاط غضبًا من ثخانة عقول موظفيه، وبطء استيعابهم، وكانت تلك هي اللحظة التي تراءت لأمجد أنها مناسبة إلى حد كبير، تقدم نحو سفرة الاجتماعات، عارضًا للحاج «عبده» اقتراحًا على هيئة مُعادلة بسيطة، ما إن يضيف إليها تلك القيم التي أمامه، حتى يسهُل الحصول على النتائج سريعًا ومن دون الحاجة إلى انتظار أحدهم حتى يجلس مع نفسه قليلًا ليخرج بالنتيجة بعد أقل من نصف ساعة.

حينها رأي الحاج «عبده» أن ذلك الفتى الذي في غمر ولده، لن ينتظره سوى مستقبل واعد إذا تعلم أصول سوق العمل، رغم صغر سنه، إلا أنه يملُك جرأة ليست بهينة، ربما ستساعده على الوصول إلى مراكز هامة وكبيرة، شعر تجاهه بمقدار من الثقة عند التعرض لأي نوع من المسؤولية، ولكن لم يكن ينتظرهم سوى خبر؛ قلب موازين الأمور رأسًا على عقب.

وقبل أن يُدرك «أمجد» وصديقه المرحلة الثانوية ببضعة أشهر قليلة، أصاب «رؤوف» إعياء شديد، جعله طريح الفراش لأيام، ولما تفاقمت الأعراض المؤلمة والإغماءات المتكررة، عُرض على أكثر من طبيب، وذلك للتأكد من أن «رؤوف» أصيب بورم بالمُخ، وبعد

الأشعة، تأكدوا من نوعه، وخُبثه. ورغم محاولات الحاج «عبده» المستميتة لإنقاذ ولده الوحيد، إلا أن القدير أراد له الراحة، فمات «رؤوف» بعد صراع مع ورمه الخبيث. أصيبت حياة «أمجد» بالشلل بعد فقدانه صديقه العزيز، لم يكن يعلم أن الحياة بدونه ستضيف إلى شخصيته جانب انطوائي، يأبى التعرف على أي أصدقاء جُدد، وكان أمام اختيارين، إما أن يستمر في التردد على بيت صاحبه المتوفى بدافع التعلم والبحث عن الذات في كنف الحاج «عبده» - الذي لن يُمانع - وإما أن يمحي ذلك البيت من ذاكرته تمامًا، ويستمر في حياته البائسة التي لا يعلم إلى أين ستأخذه. وكان القرار واضحًا جليًا بالنسبة له، بعد مرور وفاة «رؤوف» بأسبوعين، ذهب "أمجد" إلى بيت صديقه الغائب إلى الأبد «رؤوف» وقابل والده، وأعرب له عما يعتمل في قرارة نفسه من قلة الحيلة التي عاناها بعد وفاة رفيق دربه، وأن اللحظات التي كانت تجمعهم هنا في بيته؛ هي الباقية التي لن يمحوها الزمان مهما مر، عرض عليه العمل معه تحت مُسمى التدريب ليس إلا، وأنه لا يريد سوى تعلم أصول الإدارة والتعرف على طُرقاتها الملتوية، ورغم صغر سنه، إلا أن تلك الرغبة البسيطة التي صرح بها للحاج «عبده»؛ قد لاقت منه استحسانًا، وجد أن ذلك الفتى رغم فطانته وسرعة بديهته إلا أنه يرغب في المزيد، فوافق دون تردد على قبول زيارات الفتى الصغير إلى منزله وقت الاجتماعات الهامة وغيرها، عله يتعلم شيئًا ينفعه.

ومنذ ذلك اليوم وأخذت حياة «أمجد» في التغيير رويدًا رويدًا، فكان لا يمر عليه أسبوع سوى بزيارة أو اثنتين، وربما ثلاث؛ يجلس فيها «أمجد» بجوار الحاج «عبده» يتعلم بعض المصطلحات الدارجة

بينه وبين موظفيه، ويُعيد حساب العمليات الحسابية التي يذكروها، وفي بعض الأحيان تكون حساباته أدق منهم بل وأحيانًا أسرع. فما كان من تلك الزيارات إلا أنها عززت ثقة الحاج «عبده» في أمجد، ولكن على النقيض تمامًا، أثارت الغيرة والغضب بداخل والد «أمجد»، فبدأ الأخير يشعر بانشغال ولده الوحيد بأب آخر، أب يراه مثالًا ينوي الاحتذاء به، يشاركه الأبوة، ويشغل بال ولده أغلب الوقت، فلم يكن والد «أمجد» سوى موظف بإحدى شركات التبغ المحلي، شخص نمطي لأبعد الحدود، لا يهوى التغير، ولا يربطه بالطموح أي صلة، فما كان منه إلى أن يلجأ إلى حيلة من شأنها أن تمنع «أمجد» من التقرب إلى الحاج «عبده»، فمارس عليه حيلة الإعياء، تمارض عليه ليكُف عن زياراته لشخص آخر يشاركه الأبوة، إلى أن ظن «أمجد» أن والده لا يستطيع المكوث بمفرده مُدة طويلة بسبب تعبه، فما كان من «أمجد» إلا التخاذل قهرًا في زياراته التعليمية، جلس يراعي والده المتمارض الذي لا يأمل من الحياة سوى أن يرى ابنه مثله؛ يتخرج من أي كلية، ثم يُصبح موظفًا بإحدى الشركات، يعمل حتى يبلغ سن معاشه ثم يجد قهوة مناسبة ليجلس عليها ما تبقى من حياته برفقة مَن يشبهونه.

تلك حياة اعتيادية، اعتمادية، يرغبها والد «أمجد» ويجدها مناسبة، ولكن سرعان ما أدرك «أمجد» أن والده لم يغد يحتاج إليه أغلب الوقت، هو فقط يتمارض عليه حين يراه مغادرًا أو ينوي المغادرة، ولكن كان لولده رأي آخر، فلم يكلفه الأمر أسبوع واحد ليعلم من أحد المُدرسين بمدرسته، أن الحاج «عبده» قد أتى في الأيام الماضية ليسأل عن غيابه، فما إن علم «أمجد»، ذهب إلى

منزله بعد يومين على الأكثر، قابله وأخبره أن والده كان متعبًا بعض الشيء وكان جليسه تلك الفترة، وللمرة الأولى منذ بداية تعارفهما، عَرَض الحاج «عبده» على «أمجد» عملًا بمقابل مادي ابتدائي، نظير الاهتمام بتدوين الملاحظات والقيام بالحسابات التي يطلبها منه أسبوعيًا، وبعد تفكير لا يُذكر، وافق «أمجد»، ولكن مع مرور الأسابيع، لم يكن الفتى ليكتفي بذلك القدر، لعله ظن أن المستقبل ليس بتلك النقود التي يتلقاها نظير عمليات حسابية وتدوينات بسيطة للحاج «عبده»، فلما لا يكون هو رب العمل ذاته؟

ولكنه أدرك سريعًا أنه إذا أراد الوصول إلى تلك المرحلة، عليه أن يستمر في تلقي ذلك الراتب البسيط، إلى أن يأتي اليوم الذي يصبح فيه.. الحاج «أمجد»؛ صاحب الأملاك والشركات.

في ذات الحين كان والد «أمجد» قد تمكن منه المرض - الحقيقي - ولا مناص منه حتى مع رعاية «أمجد» له، فما هي إلا أيام معدودات، حتى ثقُلت حركته، وفقد القدرة على النطق والتواصل، وقبل وفاته بقليل، أراد أن يعترف لابنه أن ما فعله كان بدافع الحفاظ على رابط الأبوة التي شعر أنه يفقده بزياراته للحاج «عبده»، ولكن لم يسعه الوقت للاعتراف، غادر سريعًا تاركًا خلفه ولد ينوي أن تتغير حياته إلى الأبد، وما كان منه بعد وفاة والده، سوى تحمُّل مسؤوليات أكبر، كان جديرًا بها بحق.

مرت سنوات عديدة شهدت في خلالها حياة «أمجد» تحولًا كبيرًا. بمساعدة معارف الحاج «عبده»، بدأ «أمجد» خط إنتاج بسيط تابع لمصنع حديد. لم يكن الخط قد بدأ بعد، لكن زبائنه كانوا معروفين

مسبقًا. في خلال أقل من سنة، توسع الخط ليصبح ثلاثة خطوط، وتحول المصنع الصغير إلى كيان أكبر. مع الوقت، اشترى «أمجد» قطعة أرض مجاورة، ليصبح المصنع بعد عدة شهور، مصنعين متكاملين. في لحظة من التوسع والنمو، أدرك «أمجد» أن الوقت قد حان لتحقيق حلم طالما راوده: الدخول إلى عالم السيارات. كانت تلك هي المرة الأولى التي يقرر فيها «أمجد» خوض غمار الأعمال المشبوهة، عالم لم يكن يخلو من التلاعب بحوادث السيارات. فوجدت هذه الصفقات المشبوهة طريقها إليه، لتتحول من تجارة الحديد إلى تجارة السيارات، تضاعف الربح، وتوسعت شبكة علاقاته بشكل كبير، مما مهد له الطريق لعوالم أخرى، عوالم لطالما طمح إلى الدخول إليها.

وبعد سلسلة من النجاحات الظاهرة، والمشاريع الاستثنائية التي خاضها «أمجد زهران». حين بلغ عمر الثالثة والثلاثين، قرر الزواج والاستقرار، ولكن لم يتحقق الأمر برمته، فلقد تزوج وبعد سنة واحدة أنجب من زوجته التي لم تمكث معه كثيرًا، فما هو إلا زوج أعوام حتى طلق زوجته بداعي الملل، فلم يكن يشعر «أمجد زهران» بتلك العاطفة التي تقربه من منزله وأسرته الصغيرة، وشعر أن ما يحتاج إليه فعليًا هو بناء مستقبل أكثر تطورًا، وذلك لإشباع بئر فضوله الذي لا ينضب، وما هي إلا أعوام قليلة، وأتاه خبر وفاة الحاج «عبده عبد اللاه» بعد صراع مع المرض. حزن «أمجد» حزنًا لم يحزنه حين انفصل عن زوجته، وكانت تلك لحظة فارقة في حياته، جعلته بعد ذلك من كبار المستثمرين في مصر والشرق الأوسط، فلم يكن هو الوحيد الذي يملك ذلك العدد من الشركات، ولكنه كان

الوحيد بلا منافس، القادر على إدارتها جميعًا دون السقوط في فخ الأفضلية، فكان على الرغم من تعدد مشاريعه ومصانعه؛ إلا أنه يتصدر كل منهم على حدة، نظرًا لعلاقاته الواسعة ونفوذه اللانهائية، ومن لم يكن يعرف من هو «أمجد زهران»، كان على الأقل يعرف إحدى شركاته، أو أحد مشاريعه.

لم يكن الريس «جودة» على دراية بتاريخ «أمجد زهران» الزاخر بالنجاحات والنفوذ، ولم يكن يعلم أن ذلك الرجل لا يملك في قاموسه كلمة «فشل»، وإن تواجدت، فإنها تتواجد ليتبعها سريعًا، أعتى النجاحات. ولم يدرِ الريس «جودة» أن مشكلة «أمجد» الوحيدة، هي نهوضه بعد السقوط، فالجميع يعلم أن ذلك الرجل إذا سقط، كان ذلك بمنزلة تجديد الشغف والفضول بالنسبة له، «أمجد زهران» لا يسعه التفكير في طرق جديدة لنيل ما يرغب فيه. وإن كان الريس «جودة» يعلم تلك الأشياء، ربما ما كان ليقف أمامه فيما يخص تلك الأرض، فأمجد لم يكن يريد تلك الأرض فقط أو يراها مناسبة لمشروعه، بل كان ذلك المشروع تحديدًا، ودون غيره، محط اهتمام شديد منه شخصيًا، فهو من أصر على عمل دراسته بالكامل، وهو من خطط له منذ بدايته. فلم يكن من الموفق للريس «جودة» أن يقول "لا" بالتحديد في هذا المشروع، فهو لا يدري ما سوف يترتب على ذلك من مشاكل عديدة، ستطوله لا محالة.

وكانت بدايتها، حين أتى له أحد العاملين مسرعًا، ليخبره أن «عبد المجيد» صديقه الوحيد، في ورطة في ميناء الوارد.

***

التاسع

الطائر الجارح المُستأنس، يأكل - على حسب وزنه - في المتوسط ما يعادل 50 جرامًا من اللحم النيئ إن كان من الطيور مثل الحمام أو السمّان، أو ما يعادل 30 جرامًا من لحم القوارض الحيّة أو الميتة حديثًا، فالطائر الجارح لا يأكل وجبته إلا إذا كانت دافئة، أو على الأقل..fresh.

كان «ياسين» يعاهد ولدًا من أولاد الحي وعلى اتفاق معه أن يصيد له في الأسبوع فأرًا على الأقل، وكان في المقابل يعطيه خمسة جُنيهات أو عشرة إذا كان الفأر ذا حجم بالغ، ذلك كي يحافظ على مناعة طائره الجارح؛ «نوحي»، وكان الولد بسم الله ما شاء الله، صائد فئران من الطراز الأول، وكأنه قط بلدي شرس، لا يترك لفئران الحي والأحياء المجاورة مجالًا للتسكع واللعب، فلا يمر أسبوع قبل أن يأتي «ياسين» بصيدة متينة يطعمها لبومته الأليفة.

وسط نظرات صديقه «رامي» المشمئزة تجاه «نوحي» وهو يلتهم الفأر ويبلعه بعد خنقه بمخالبه القوية، كان يدور بخاطره نفس السؤال الذي يراوده في كل مرة يراه فيها، لماذا عليه أن يربي طائر جارح؟ ولكن كان في قرارة نفس «ياسين» شيء ما من الماضي، يجعله يعلم أن تلك البومة تحديدًا دون قرائنها من الطيور الجارحة والحيوانات الأليفة؛ هي التي تصلح للتربية، فلقد كانت أمه - رحمها الله - هي الوحيدة التي تتفق معه على أن البوم ليس بنذير شؤم - كما يزعم الكثير - وذلك بعدما تأكدَت أن «نوحي» ليس سوى قطة، قطة بمخالب، أخبرته أنها ستراعي «نوحي» خير رعاية، كما لو كان

ابنها، للدرجة التي جعلتها ترغب في أن تتعلم كيف تُمسك به دون أن تخشى مخالبه، وهذا ما جعلها تود تقضية أغلب وقتها برفقة قطها اللطيف؛ «نوحي».

أخذ «رامي» في شرح تلك الفكرة التي عرضها للتو على «ياسين»، وأخبره أن مثل تلك المواقع، شهير جدًا بالخارج، بل وأيضًا مُربح بشكل مُبالغ فيه، فآلاف الزوار يوميًا يتهافتون عليه رغبة في التعرف على أشباههم من الجنس الآخر، وأن له أشكالًا عديدة، منها للتعارف ومنها للزواج، ومنهم من يستغل قوة تلك المواقع في عمل أشباهها ولكن لخدمات أخرى؛ كالدعارة مثلًا.

كان «ياسين» يستمع له في هدوء، دون تعقيب، ربما تراءى حُسن الفكرة، وربما ظن أنها مضيعة للوقت، ولكن التقطه «رامي» من شروده:

- تخيل لما كُل الناس تكلمك أنت.. وتحكيلك بقى، قصص وحكايات، وأنت خُد القصة والحكاية اللي على مزاجك وأخلق منها فكرة تناسب روايتك.. أنت ممكن أصلًا تعمل دي الفكرة، حد مثلًا بيسمع من الناس حكاويهم ويديهم نصايح.. فكرة صاااايعه بقولك.

- ما ممكن نبقى بنضيع وقت عشان الفكرة الصايعة بتاعتك دي.

- أنت خسران إيه؟ ما تجرب.. جايز تطلع بأي فكرة من أي حد.

بعد عدة ثوانٍ من التفكير، ظل «ياسين» شارد الذهن، قبل أن يستطرد:

- سيبني أقلبها في دماغي، الموضوع يبان كويس، بس ممكن

يضيع وقت أنا ما أملكهوش أصلًا.

- شوف وانا معاك.. بس يا ريت متبقاش أنت اللي بتضيع وقتك بنفسك.

ثم أخبره «رامي» أنه في حالة رفضه لتلك الفكرة، سيتعيّن عليه اللجوء إلى الحل الأكثر فعالية، الأقرب إلى الواقع؛ الحشيش.

فقص عليه إحدى مغامراته العجيبة مع قِرش حشيش (عَجَب) كان بحوزته منذ أيام:

- كنت لسّة ضارب حتة ببتاع ميّة وخمسين جني، ولوحدي، بس كنت مع ناس صحابي من اللي إيديهم فرطة، كُل واحد واخد سيجارته في جنب وهاتك يا بوس، المهم، خلصت القعدة، قومت مش شايف قدامي مترين على بعض.. قولت أروّح، طلعت على البحر وركبت من سيدي جابر، وانا راكب المشروع.. أبص يميني، ألاقي نادي سبورتنج.. بعد عشر دقايق.. أبص يميني، ألاقي نادي سبورتنج!.. ربع ساعة.. أبص، ألاقي نادي سبورتينج!.. الله، فيه إييه ، عدى قدامي بتاع عشرين مرة!... روّحت البيت، طَلّبت معايا بنوم، نمت حلمت إني باكُل سيجار، كان طعمه دوم على كَراميل.. قومت من النوم الصبح هموووت وآكل سيجار، نزلت اشتريت واحد وقطمت قطمه وبلعتها.. تلت ساعة برجّع.

ضحك الاثنان قليلًا، قبل أن يخبره «ياسين» مجددًا أن طريق الحشيش هذا، لا فائدة منه، قبل أن يستفسر:

- لو فرضنا إني وافقت على موضوع الموقع ده.. هتاخد وقت قد

إيه أصلًا عشان الناس تعرفه وتبتدي تتفاعل عليه.

ابتسم «رامي» قبل أن يلاحقه:

- الموضوع هنا بقى يلزمه لمسة مُحترف..

- اخلللص.

- الموضوع علشان يبان حقيقي ومياخُدش وقت كتير في تجهيزه.. بنشتري بكام دولار من شركات مُعينة؛ داتا بالجُملة.. الداتا دي بتبقى من مواقع موجودة بالفعل.. بيدولك بقى أسماء مستخدمين بصورهم الشخصية وكُل معلوماتهم سواء سن أو جنس أو حتى ميول جنسية.

عقد «ياسين» حاجبيه قبل أن يستفسر:

- إيه ده؟.. هو ده ممكن يحصل؟.. مين عنده إمكانية الوصول للمعلومات دي؟

- ناس كتير عندها إمكانية الوصول.. وأنا وأنت بنوافق أصلًا على الحاجات دي وإحنا مش واخدين بالنا.

- إزاي بقى؟

- إمتى آخر مرة قريت فيها الشروط والأحكام وأنت بتسجل لأي برنامج أو موقع؟

شرد «ياسين» قليلًا ثم لاحقه:

- مش فاكر.. أنت عارف أنا مليش في الحاجات دي.. دنا ممكن مكونش سجلت في أي حاجة قبل كدة أصلًا.. بس مقولتليش.. إيه

حوار ندفع كام دولار ده؟

قبل أن يجيبه «رامي»، تطرق إليهما صوت جرس باب الشقة، يرن بعنف، نهض «ياسين» مندهشًا من إلحاح الطارق، قبل أن يفتح الباب ليجد أمامه؛ «ليلى»، أخذت تُهندم وشاحها فوق شعرها البني اللامع، وعيناها الزائغتان، اللتان كانتا في لون شعرها، بل أغمق بقليل، لاحقته بلهفة:

- باباك بيتخانق تحت!

لم يشعر «ياسين» بما ألمّ به، قبل أن يسحب سلسلة المفاتيح من فوق الجزامة، ويخرج من الشقة ويتبعه «رامي» و«ليلى».

في الأسفل كان الشارع قد ازدحم وغاص بمن فيه، كان الحاج «جودة» يتراشق بالألفاظ والشباب العنيف مع شاب يعمل جديد في محمصة أسفل العمارة، قد ابتاع الحاج «جودة» منه علبة سجائر كالمعتاد، ولكن ما لم يكن يعلمه ذلك الشاب الجديد، أن علبة السجائر التي سيبيعها للحاج «جودة» كان لا بد ألا تحتوي على صورة لشخص يُعاني ضيق تنفس أو صورة ما لرئة متهتكة، أو رجل مُسن بنصف فم. كان عليه اختيار علبة مختلفة للحاج «جودة»، فهو لا يتحمل مثل تلك الصور، تُثير غضبه، وتُشعره بالمهانة، وكان ذلك من نصيب ذلك الشاب الجديد، الذي لم ينفك يحاول إقناعه بأن تغيير الصورة، لن يُغير من طعم وجودة السيجارة، ولكن هذا ما لم يكن ينتظره «جودة»، سرعان ما سحبه من ياقة قميصه، قبل أن يلعن أسلافه بأقذر السُبات المعروفة، ولم ينقذه من ذلك سوى أن اقترب «ياسين» من والده، مُحاولًا احتواء الموقف دون شوشرة، وبعدما

هدأت الأفواه قليلًا، وبدأ الواقفون في السير إلى أشغالهم، كان قد جاء «علي» برفقة ثلاثة من أصدقائه الصيّع، أتو كي يقوموا بتكسير تلك المحمصة فوق رؤوس أصحابها، فمن يجرأ على المساس بأبو «علي الدود»، بتأكيد الدالّين، فلقد كان «علي» يصغر أخاه «ياسين» ببضع أعوام، ولكن ونظرًا إلى سوء التربية وقلة العلام، سلك طريقًا مُختلفًا، طريقًا كذلك الذي سَلكه «إسماعيل سلطح» من قبل، ولكن ورغم ذلك، لم يكن يتحمل «علي» أن يمسس أحدهم أباه أو يتعرض له بسوء. وتلك الخناقة التي كانت انتهت منذ قليل، تجددت بوصول «علي» وصُحبته. حينها وقف «ياسين» يستند على حائط مدخل عمارته، يتمنى من المولى عز وجل، أن تنشق الأرض وتبتلعه، فهو لا يرغب أن يُصبح طرفًا في مثل تلك المشاجرات، لا يرى أنه مناسبًا أن يشهد على مثل تلك الخناقات السوقية، فانسحب حين أتى أخاه، حتى انزوى في جانب داخل العمارة، لكي لا يلحظه أحد الواقفين، ولكن هناك من كان يراقب انسحابه خطوة بخطوة، خلفه وعلى آخر درجة سلم في العمارة، كانت تقف «ليلى» في دهشة وذهول، وربما فضول، تتساءل بداخلها: لم لم يتدخل؟ لما ينسحب في الوقت الذي يتطلب هجومًا؟ لم يريد ألا يكون جزءًا من تلك الصورة؟. في تلك الأحيان كان الواقفين قاموا بسحب الحاج «جودة» من وسط الخناقة مجددًا وذهبوا به إلى مدخل العمارة، وكان «عبد المجيد» والد ليلى للتو قد هبط من شقته بعدما نهض مفزوعًا من نومه حين عَلِم بمشاجرة «جودة»، جرى نحوه ونادى ابنته لتساعده في أخذ الحاج «جودة» إلى أعلى ليهدأ من روعه قليلًا، وسيتكفل هو بمنع «علي» ومَن معه مِن إلحاق الضرر بأحد المتورطين في تلك الخناقة،

سحبته «ليلى» إلى أعلى، وسط نظرات الجميع وعلى رأسهم «ياسين»، الذي شعر وكأن رأسه ستنفجر بعد قليل، ذلك قبل أن يقترب منه رامي ويلتقطه من تلك الزاوية، دافعًا إياه للصعود فورًا كي يطمئن على صحة أبيه، وفي الخلفية، كان «عبد المجيد» وسط مُحاولات مُضنية مع أحد أصحاب «علي»، كي ينصحه بضرورة وقف السباب وسَحب ماسورة الأسلحة البيضاء التي فتحوها منذ قدومهم، وإلا أتت الشرطة وقاموا بأخذهم جميعًا بدلًا من ذلك.

***

العاشر

«مشرحة كوم الدكة»

أجساد هامدة تستلقي على طاولات باردة، بعد قليل ستتحول إلى لوحات صامتة تروي قصصًا بلا صوت، لكل جثة حكاية لها تفاصيل عديدة ومختلفة، ترويها الندوب والجروح والسحجات، تترك الحياة أثرها الأخير على وجوه تلك الأجساد، وتظل اللمسة الأخيرة التي تصل بين عالم الأموات وعالم الأحياء؛ هي يد الطبيب الشرعي، يد تتحول إلى جسر دقيق يعبر بين العالَمين، وهذا ما يجعله يُلامس ببراعة مهنية هذا الفاصل الرفيع. الفاصل بين عالم الأحياء والأموات بالنسبة للطبيب الشرعي ليس مجرد خطٍّ وهمي، بل هو حدود تتجلى بوضوح في كل جثة يقوم بتشريحها، نسيج هش يفصل بين نبض القلب وسكونه، بين حركة الرئتين وتوقفهما، لحظة حرجة يدرك فيها أن الجسد الذي أمامه كان ينبض يومًا، يتنفس، يشعر، ويحلم.

عالم الأموات بالنسبة إلى الدكتور «يوسف»، هو عالَم يحمل في طياته هدوءًا غامضًا، حكمة أبدية، كل جثة هي فصل من كتاب يحمل من الدروس والعِبر ما يكفي، فبتشريحه لأجساد الأموات، لا يتعامل مع بقايا بشرية فحسب، بل يحاول فك شيفرة ما، يفهم تعقيداتها، ويستخلص منها أسرارًا قد تنقذ حياة من لا يزالون على الجانب الآخر من الفاصل.

لم يكن يعلم «يوسف» آنذاك أن جثة «نريهان» ستبدأ في طرح التساؤلات بتلك السرعة، فإذا بها تتحرك وتتجول بداخل قاعة

التشريح، تاركة سريرها البارد، وأخذت رائحة الكحول التي شكبت عليها بكرم تفوح في الأرجاء، حين رآها في زاوية الغرفة تجلس مُنكمشة على الأرض، شعر بثقل في الهواء جلي، تبعه إحساس ما جعله يشعر بأن المشرحة عامرة بالجثث، ممتلئة، شعر بحركتهم وثِقل أنفاسهم. أفاق من تفكيره الذي استغرق فيه لمدة لا يعلمها، وحينها أدرك أن الجثة لم تترك طاولتها، كما كانت منذ قليل، ولكن لم يستمر ذلك السكون طويلًا، فلم تمر سوى ثوانٍ، وأدرك «يوسف» حركة مُباغتة، تبعتها رعشة ضربت أطراف الجثة، فشعر أنه ربما أمام رسالة ما تحاول الجثة إيصالها بطريقة أو بأخرى، الجثة تنتصب انتصابًا شديدًا، مُبالغًا في انتصابها، فالأصابع منفرجة، والجسد مشدود، وما هي إلا لحظات، وانتفض الجسد مرة ثانية، وكأنه يحاول أن يرسل تحذير بنذير مُخيف بوجود خطر لم يأت بعد. ازدادت الغرفة برودة، وأدرك «يوسف»، أنه أصبح مراقبًا من عيون تدركه ولا يدركها، وأنه على الرغم من أن المشرحة فارغة إلا من جثتها؛ إلا أنه شعر بأنفاس أكثر من عشر جثث تجري من حوله، وقبل أن يفرغ من ذلك الشعور، ذهب إلى نهاية الغرفة، قبل أن يخرج من دولابه الخشبي؛ دفتر متوسط الحجم، التقطه ليدون اسمها في صفحاته التي شارفت على الانتهاء، فذلك الدفتر يحوي أسماء العديد من الجثث التي شعر الطبيب «يوسف» حيالها بذات شعوره تجاه جثة «نريهان»، تلك التي تتحدث وتتجول بداخل المشرحة، أو تلك التي ترسل رسائل غامضة، تنبيهات غريبة، وبذلك يكون قد أكمل العدد «213» جثة! قبل أن يرفع الجثة من فوق سريرها ليودعها ثلاجتها، انزلق لوحها المعدني فوق عجلات الرف،

ثم تأكد من درجة حرارة الثلاجة؛ 21 درجة مئوية، حتى لا يصيبها البرد القارس بالخارج، أوليس الحق أن نُكرم ضيفتنا؟ هل يصح أن تخرج من هنا مصابة بحُمى أو ما شابه؟.

دوّن «يوسف» ملاحظاته الشخصية عن «نريهان» والتي تلخصت في الآتي...

تلك الفتاة لم تكن تتوقع وفاتها بتلك الطريقة، كانت تظن أن لا يزال في العُمر بقية، فالقتل فكرة مرعبة لضحاياه، فهم كانوا يريدون حياتهم أن تسير على نحو مختلف، ولكن لسوء الحظ، يأتي شخص ما حاملًا مسدس، سلاح أبيض، أو حتى بيديه، وفي ثوانٍ قليلة، يضع نهايات لتلك الحيوات، ويهدم كل خططهم المستقبلية، وحينها تُتاح الفرصة أمام صنف بعينه من البشر؛ الأطباء الشرعيين، تتسنى لهم الفرص لملاحظة علامات القلق وعدم الارتياح، تدوين المشاعر، ومراقبة تحركات الجثث. وإن كان غير مُقدر لطبيب التشريح بأن يلحظ تلك العلامات، فربما هي للشخص الذي سيقضي الساعات الأخيرة برفقة المجني عليه قبل دفنه، من الممكن أن يرى شيئًا، يشعر بشيء، وربما كان ذلك تحديدًا ما جعل الطبيب «يوسف»، ينوي أن يكون طبيبًا في الأساس، فقبل سنوات عديدة، كان والده في زيارة عائلية، وأصابه إرهاق غير معلوم، تبعه دوار وهذيان مؤلمين، قبل أن يفترش الأرض وسط عائلته ويسكن تمامًا، بعد أقل من ساعة حضر طبيب إلى المنزل وسط صرخات مكتومة من الجميع بما فيهم الأطفال، وأخبرهم أن الوالد قد وافته المنية إثر إجهاد بعضلة القلب، صرخ الحاضرون أجمعين، ولم ينفك الأمور في التطور سريعًا، فلقد نصحهم الطبيب بسرعة إتمام إجراءات الغُسل

وتصاريح الدفن، إكرامًا لجثمان المتوفى إثر شدة حرارة الجو آنذاك، ونصحهم بضرورة تشغيل مروحة أو اثنتين في الغرفة التي سيبقى فيها حتى ظهر اليوم التالي، ولكن وسط كل تلك الظروف الصعبة، لم يجد «يوسف» من الصمت بُد، انهار ولم يستطع كتمان مشاعره، فوالده كان للتو يسير في أرجاء الشقة دون عناء، بل وكان منذ قليل يلعب ويتجول معه هو واخته الصغيرة، كيف للتو غادر الحياة بشكل نهائي؟

ورغم تلك المشاعر المدفونة، لم تكن مُغادرته للحياة خالية من العلامات التي لاحظها «يوسف» دون غيره، وذلك لأنه مكث مع والده بالغرفة، يدعو له ويقرأ له وِرد السكينة والرحمة من آيات الله.

حين جلس «يوسف» بجوار جثمان أبيه، امسك بيده وهو يبكي، قبل أن يشعر لِكسر من الثانية، بيد والده تضغط على يده قليلًا، فزع المسكين قبل أن يترك يد والده ويبتعد، نظر إليه نظرة مطولة، ثم غادر الغرفة لمّا تكالبت عليه الخيالات والتصورات المخيفة، ولكنه ورغم ذلك أصر على حضور الغُسل، ولم يكن يعلم أنه حينها سيشهد وجود علامة أخرى، فساعة الغُسل كان جسد الوالد يأبي أن يتقلّب، وكان ذلك للحاضرين عجيبًا، ولكن لم يمنعهم من إنهاء الغُسل بصعوبة بالغة، ولم يمنع ذلك «يوسف» من استنتاج وجود قصة ما وراء جثمان والده، قصة يجب أن تُكتب وتدون كي لا ينسيه إياها الزمن، وعلى الرغم من محاولات «يوسف» المضنية في إخبار من حوله بحقيقة جثمان والده الذي ربما، لم تغادره الروح بعد!

ولكن لم يستمع له أحد إكرامًا للحزن، وكأنهم يأبوا أن يعلموا أن

فقيدهم لم يمت بعد! ولكن كيف وقد تم تغسيله وتكفينه وتحضير جنازته وما هي إلا سويعات قليلة وسيتم إيداعه مدافن العائلة الكريمة. ظل «يوسف» مترقبًا الجنازة، داعيًا الله أن يفيق والده إذا كان حيًا ويخرج من صندوق أمانات المسجد الذي ينقلون فيه الجثامين، ولكن اقترب والده من تربته محمولًا على الأيدي، انزلوه إلى مثواه الأخير، ثم قام غفير المقابر بتسوية التراب من حولها، وأخذ ما فيه النصيب من الواقفين، قبل أن يغادر الحاضرين واحدًا تلو الآخر، وكان آخرهم؛ «يوسف».

بعد الدفن بثلاث ساعات، وردت مكالمة لعم «يوسف» من غفير المقابر، ولكنه لم يجبه، ظنًا منه أن ذلك الغفير يريد حسنة نظير مجهوداته غير مسبوقة النظير التي فعلها حيال تربة المرحوم، من زراعة شجرة ريحان، لوضع بضع فخاريات صغيرة ومَلؤوها بحبوب الغلة، كي تجتمع عصافير الجنة والحمام المبروك حول تربته.

ولكنه للعجب، عاود الاتصال مجددًا في الحادية عشرة مساء اليوم ذاته، وبإلحاح واضح، كرر اتصالاته حتى أجابه عم «يوسف»، وحينها أخبره أنه استغرق في التفكير كثيرًا قبل أن يتصل به في ذلك الوقت المتأخر، ولكن الوضع حرج للغاية، فتربة المرحوم وبعد دفنه بساعتين أو أكثر، بدأت تصدر أصواتًا غريبة، صرخات متفاوتة، أنين مكتوم، وربما في الموضوع إن.

أكد عليه الغفير أن يأتي في الحال، وأن يُحضر معه أحدًا يمتلك من الشجاعة ما يكفي، وعلى الفور ذهب أخو المرحوم برفقة أحد الأقارب، وحين علم «يوسف» بالأمر، أصر على مرافقتهما، وحينما

دلفوا إلة غياهب المقابر في برد تلك الليلة، كان الغفير في انتظارهم، ومعه ولده الصغير، الذي طلب منه أن يروي ما حدث معه قبل ساعات، ليروي الصبي أنه منذ ساعات قليلة وفي أثناء مروره بين مدافن العائلات لسقاية بعض الأشجار والشجيرات، لاحظ صوت خبط غير منتظم يأتي من تلك التربة تحديدًا، وحين استرق السمع واقترب، اكتملت الصورة بأصوات الصرخات والأنين المخيفين، فهرع إلى والده ليتأكد الأخير مما رآه بعد الدفن بقليل. ذهب الجميع إلى مدافن العائلة، ليتفقدوا ما يقال، ولكن بالداخل، كان الصمت يُهيمن على الأجواء، وكان البرد يقرص الواقفين، وحينها أصر الغفير أنه ربما من الضروري إعادة فتح التربة، فمن الممكن أن يكون الوالد بحاجة إلى مساعدة! ولم تمر دقائق أخذ فيها الغفير وولده بتكسير الحائط الأسمنتي اللدن الصغير الذي أغلقاه في الظهيرة، وحين انتهى، كان بانتظارهم مشهد مروع، فالمرحوم، كان بالداخل، ولكن ليس كما تركوه، بدلًا من أن يكون مستلقيًا، كان يجلس مستندًا بنصف جسده على أحد حوائط التربة، الكفن ممزق، الوجه مفزوع، وكأنه شَهِد أصعب التجارب التي من الممكن أن تمر على إنسان. والد «يوسف» كان من مرضى السكر، ويوم وفاته لم يكن يرغب في تناول الطعام مع العائلة لشعوره ببعض الغثيان، مما جعله وبعد عدة ساعات يُعاني أعراض نقص حاد في مستوى السكر في الدم، أسفر في النهاية لإصابته بغيبوبة سكر، لم يتمكن الطبيب الذي أتى إلى منزله من ملاحظة مستوى النبض المنخفض للغاية، فبكل بساطة، أخبرهم بأنه قد توفي! ظن الجميع آنذاك أنها الميتة الإلهية المتوقعة لشخص في سنه، وطبقًا للمثل القائل: «إكرام الميت دفنه»، فسرعان

ما انتهت إجراءات الغُسل - مرورًا بما حدث فيها - وتصريح الدفن.. إلى آخره. وفي الأصل لم يكن الرجل قد وافته المنية بعد. حين عَلِم «يوسف» بذلك، دخل في كآبةٍ شديدة، ضمره الحزن وألّم به الغضب، واستمرت تلك الحالة حتى أدرك السبب الحقيقي وراء معاناة والده داخل قبره قبل وفاته بوفاة، لو كان الطبيب الذي أتى لوالده يدري ما يفعل، لو كان جديرًا بلقب طبيب من الأساس، لَما كان عانى والده تلك التجربة المخيفة، فربما كان تم إيداعه إحدى المستشفيات، حتى وإن كان سيتوفى في ذات اليوم، ولكنه ما كان ليرى ما رآه، لم يكن ليتحمل ما تكبده في ساعاته الأخيرة، هل تتخيل أن يقضي المرء ليلته الأولى في القبر حيًا؟

وقرر حينها «يوسف» الالتحاق بكلية الطب، وحين فاجأ الجميع وفعلها بعد انتهاء الثانوية العامة، كان أمامه العديد من الخيارات، الكثير من الأقسام، ولكنه كان يعلم قبل التحاقه بأي قسم يوّد أن يلتحق، أراد قسمًا من خلاله يستطيع أن يتوقف قليلًا قبل الحكم على الجثث من النظرة الأولى أو الكشف المبدئي، لابد من انتظار العلامات.

للموتى علامات، إنذارات ورسائل، من شأنها أن تُخبر الشخص الذي أمامها؛ أنني لم أمت بعد، أو ربما مُت ولكن عليك أن تعلم أن السبب الحقيقي وراء تلك الميتة، ليس كما يظن الجميع..

«نريهان» كانت الجثة رقم «213» التي أرسلت علاماتها مبكرًا إلى دكتور «يوسف»، والتي بالتأكيد وراءها أسرار، لا بد أن تنجلي في وقتٍ ما.

***

الحادي عشر

الإسكندرية 2009

150 جنية تساوي غرامة دخول الميناء من دون تصريح، لا يقدر على سدادها الريس «جودة»، ولم يكن ليعبأ بذلك، فلقد هرع إلى داخل الميناء حين عَلِم أن صديق عُمره «عبد المجيد الشاذلي» يتشاجر مع أحدهم، دلف إلى ميناء الوارد دون أن يستطيع أحد إيقافه، وحين وصل كانت المشاجرة في بدايتها، وما إن رآه «عبد المجيد» وكأنما أصابه مس شيطاني، أخذ يُهلل ويصرخ بوجهه، لأنه أدرك بالفعل أن دخول الريس «جودة» إلى هنا؛ سيكلفه الكثير، خشي أن يمسك به أحدهم داخل الميناء ومن ثم يتعرض للمساءلة، ولكن لم يعبأ الريس «جودة» سوى بالتلفظ ضد كل من يحاول العبث مع صديق العُمر، فهو يكن له الكثير من الود والأخوة، فلقد كانا من مواليد نفس الشهر من نفس العام، يومان فقط تفصل بين ولادتهما، تعرفا على بعضهما بعضًا في اليوم الأول للريس «جودة» في السكة الحديد، كان «جودة» أمين مخزن آن ذاك، وكان «عبد المجيد» مفتش كذلك ولكن أقدم بعام، ولم يكن يعلم الكثير عن ألاعيب المهندسين في الهيئة لولا إرشادات ونصائح «عبد المجيد»، ومع مرور السنوات، علم كل من في الهيئة بصداقتهما، ولهذا تم حل مأزقه مع «عبد المجيد» داخل ميناء الوارد، إكرامًا لتاريخه مع رجال الميناء.

وحين عادا إلى المخزن، عَلِم الريس «جودة» أن ما تسبب في تلك المشاجرة بداخل الميناء كان ورائها اتفاقية شركة «تومانزا»؛

حيث قامت تلك الشركة بطلب أخذ عربات القطار من ذوات الفئة الثالثة، وتحويلها إلى فئة أولى وثانية وعربة كافتيريا*، وبالفعل تم شحن ثلاث عربات من ميناء الإسكندرية، داخل مركب متجه إلى أسبانيا، وبعد ثلاثة شهور، عادت تلك العربات في صورة مختلفة ومُبهرة، عربات وصفها الجميع بـ«لوكس»، ولكن كانت التكلفة غير مناسبة على الإطلاق، وحين أتت فواتير الاستخلاص الجُمركي، أبى «عبد المجيد» الاستمرار في سير الإجراءات، حتى يتبيّن التكلفة الكاملة منذ خروج تلك العربات من الميناء وحتى رجوعها، لعمل تقرير مُفصل بذلك قبل إيداعها المخازن للعرض على المهندسين، ومن هنا أعترض بعض المُقاولين المختصين بالنقل داخل الميناء على كتابة تقرير مفصل بالحديث مع الخبراء الأسبان الذين أتوا برفقة العربات، وطلبوا زيادة في الأجر نظير الانتظار، فصرخ «عبد المجيد» في وجوههم رافضًا الزيادة المطلوبة، حتى أتى الريس «جودة» ليوقف تلك المشاجرة، ويسعى للتحدث مع أحد المهندسين المختصين بتلك الاتفاقية، ولسبب ما في نفسه، عَلم «جودة» أن ربما لتلك الاتفاقية بديل أفضل، أقل تكلفةً، لا يعلمه المهندسون، وقبل أن يتحدث معه بشأن ذلك البديل، قام بعمل دراسة سريعة عن تكلفة خروج العربات ورجوعها مجددًا، وبعد أيام قليلة، أخبر أحد المهندسين أن تلك الاتفاقية ما هي سوى أموال تقوم الهيئة بدفعها مقابل تعديلات تبدو مُكلفة، ولكنها في الحقيقة تُكلف الهيئة أكثر بكثير، ولذا قام بإخبار أحد المهندسين، أن ورشة السكة الحديد رغم قِدمها، إلا أنها قادرة على تنفيذ تعديلات العربات بدلًا من شركة «تومانزا»، وأن عُمال الورشة قادرين على عمل تلك التعديلات، إذا

توفر لهم كورس تعليمي مدته لن تتجاوز الشهرين، وبعدها سيكون العُمال على أتم الاستعداد لتنفيذ خطة التعديل، وأخبره أن التكلفة الحقيقية ستتجلى في انتداب الخُبراء من الخارج، ولكن بعد ذلك، ستحظى الهيئة بتوفير أكثر من ثلثي المبلغ المُتفق عليه مع الشركة الأجنبية. وما هي إلا أسابيع معدودة، واستحسنت الهيئة اقتراح الريس «جودة»، مع الاحتفاظ ببعض التعديلات التي ألزمت الهيئة فيها الورشة بعمل كافة التعديلات على العربات، عدا الجزء الخارجي، ستقوم بتصميمه وصنعه شركة أجنبية متخصصة، وما دون ذلك سواء كانت الماكينة والاكسسوارات، ستتكفل بهم الوِرش، وتم تعيين الريس «جودة» مُشرفًا على وِرش السكة الحديد في أثناء حضور العُمال لكورسات التدريب، وبالفعل استغرقت التدريبات أشهر قليلة، وبدأت الورش في تنفيذ العربات على أكمل وجه، وازدهرت على يد الريس «جودة»، وفي تلك الأحيان، وفي أثناء انشغاله بالمراقبة والملاحظة على وِرش الهيئة، كان «أمجد زهران» لا يكُف عن المحاولة في نيل تلك الأرض الذي عارضه في شأنها الريس «جودة» في حضور وزير النقل، وكان بالفعل قد قام بتوفير قطعة أرض بديلة تتوفر بها الشروط التي طلبوها، تستطيع هيئة السكة الحديد نقل مُعداتها إليها، في أي وقت وعلى نفقته الشخصية.

حين عَلِم بذلك الريس «جودة» أدرك مما لا يدعو للشك مجال، أن بتوفير تلك الأرض البديلة، ستتكرر الزيارة في وقت قريب، وأدرك أنه لا مناص من ذلك الأمجد، ذلك الرجل يُصر على تلك الأرض، وكأن من خلقها لم يخلق سواها، وبعد القليل من الاستفسارات والأسئلة،

علم الريس «جودة» أن تلك الأرض الخاصة بالهيئة، ربما بلغ فيها سعر المتر؛ ثلاث عشرة آلاف جنيه، ولكن بالطبع لن ينالها «أمجد زهران» بذلك السعر، وبالتالي، شيئًا ما أثار الريبة في نفس الريس «جودة»، مما جعله ينوي - والنية لله - زيارة تلك الأرض البديلة التي عرضها «أمجد زهران»، فربما يجد حُجة لرفضها، ولحسن حظه وكما اشترطت الهيئة في تلك الأرض أن تكون على مقربة من الهيئة، فقام بالذهاب إليها، واستخدم ذكاءه وكارنيه السكة الحديد في العبور من بوابة الأمن، بحجة أخذ بعض المقاسات والملاحظات التي طلبتها الهيئة للأهمية، وحين دلف إلى تلك الأرض، لاحظ أن بحيرات الملاحات المحيطة بها، تتسبب في ضعف تكوينها، فبعض البقاع بها أصابها هبوط ملحوظ، تلك الأرض وبكل تأكيد لن تتحمل وجود معدات السكة الحديد، وحدات المعالجة وحدها ستجعل تلك الأرض تهبط حتى تغرق، ستنهار لا محالة، وإن تحملَت الوحدات، لن تتحمل بالتأكيد الكم الهائل من الأوناش التي ستقف بداخلها. تلك الصفقة لابد ألا تكتمل، لأنه إذا حدث واكتملَت، حينها سيدفع الجميع ثمن تبعات ذلك القرار، ستغرق الهيئة في البحث عن بديل، وحتى وجدنا البديل، ستكون تكلفته باهظة للغاية، وكما قيل في المثل الشائع "ما يبقاش ابني على كتفي وأدوّر عليه".

حين شارك الريس «جودة» تلك الأفكار مع صديقه «عبد المجيد»، حذره من الانخراط في مثل تلك الأمور، وأخبره أن عليه التنحي من التقصي حول تلك الصفقة، مؤكدًا أن " كَيف الخ** يجيبله مَغرفة"، عليه ألا يعبأ بمن أشترى ومن ابتاع، تلك ليست قصته، فإنه لم يتبقَّ الكثير على بلوغهم سن المعاش، وحينها سيبتعد

عن تلك الأمور بالإجبار، وسيندم بلا شك، إن اقترب أكثر من ذلك وعبث بما لا يخصه. وكان الرد من الريس «جودة»، بما لا تشتهي نفس «عبد المجيد»، أخبره أنه إذا تبقى يوم واحد على خروجه من الهيئة بالمعاش، فلن يصمت عن قول الحق، حتى وإن كلفه ذلك حياته، مشيرًا إلى أنه الحياة تُساير هؤلاء الهمج أكثر من اعتراض مصالحهم، ولذا فلا بد من استغلال أقل الفرص لتنغيص حيواتهم بما يكفي من العقبات، حتى يتوقفوا عن أخذ واستحلال كل شيء غصبًا واقتدارًا، فهؤلاء المستعمرين، اعتادوا على تخدير عقول الساذجين بكلمات محفوظة، مثل الإنقاذ الجماعي، الحلول الاستراتيجية، والمصالح العامة للعامة، وهم في الأساس أبعد من تلك الادعاءات بكثير، هم أساتذة في تنويم العامة بالعبارات الممنهجة، والخطط المريبة المغلفة بمسمى المشاريع القومية؛ مُنوم شديد المفعول لعقول باتت تُدمن ما تجهل، في سبيل الاستيقاظ في اليوم التالي دون الشعور بذرة تأنيب ضمير.

لو كان هنالك طرف ثالث لهما يشهد تلك المحادثة، لَما توقع ذلك الطلب الذي طلبه الريس «جودة» من «عبد المجيد»:

- أنا فاضي.. معاك سجاير؟

ولم يكن الريس «جودة» يعني سجائر بقوله سجائر، بل كان يطلب سلفة مالية بطريقة أقل إحراجًا، استعارة مكنية إن جاز التعبير، فذلك الذي لا يعبأ سوى المثول للحق، لا يملُك في جيبه ثمن الدخان.

- خلي بالك من بتوع المينا يا عبمجيد، الناس دي مش هاممها غير مصلحتها.

قالها الريس «جودة» في أثناء عزومة فطار مع «عبد المجيد»، فلاحقه الأخير بالرد:

- صحيح ياخي أنا قبلك في الشغل هنا ييجي بسنة وشوية، ومحدش فِهم الناس دي قدك.

- عشان مش عايز أفهمهم يا عبمجيد.. دول ناس الأولويات عندهم ملغبطة، مش ناس يبقوا صحابك في يوم من الأيام وتبقى بينكم مصالح مشتركة، عشان دايمًا هيبقوا عايزين كفة مصلحتهم تطُب، ف خُدها قاعدة كده.. في المينا، الأولوية دايمًا للموظفين القطاع الخاص، يعني بعقلك كده.. موظف قطاع حكومي هايصرّف على موظف قطاع حكومي غيره إزاي؟ ومنين؟.. لكن موظف قطاع خاص يهمه مركبه يفرّغ في أسرع وقت، يهمه المكنة تفضل دايرة ماتقفش.

- بحاول أفهمَك.

- يعني من الآخر، خليك متأكد إن الأولوية مش ليك يا سكة يا حديد، لأي حد تاني مسنود عنك، فكل ما تقع في خيّة أصبر تنول وواحدة واحدة الدنيا هتمشي، لازم تهلل عشان تهزهم، وإلا هيفضلوا حاطينك في خانة رقم اتنين، فهمتني؟

- ما أنا لسّة قايلك.. بحاول أفهمك.

- لا إنتَ فاهم ياخويا متستعبطش.. فاهم وبتطرمخ عشان مش على هواك.

- يا سيدي ولا على هوايا.. يعني هتفرق؟

- هتفرق عشان لو محرّصتش منهم؛ هيلُطوك ويجيبوا اللي فيهم فيك.. الناس دي شرقانة تلبيس. يموتوا ويلبسوا أي حد مصايبهم، مش هعرفك عليهم أني.

- سيبك بس من الكلام ده وقولي.. «منعم» إيه اللي جراله؟

صمت الريس «جودة» قليلًا قبل أن يلاحقه:

- «منعم» كان بيتظرّف يا عبمجيد.

- بيتظرّف إيه جدع إنتَ ما تمسك لسانك مهما كان ده زميلنا.

- زميلك بقى لو حابب، لكن أنا وإنتَ عارفين إنه بيتظرّف، كل ظرف وظرف قد كده.

- يا راجل منعرفش ظروفه، يووووه مش هنخلص من الكلمة المهببة دي.

- آديك قولت أهو، ظروفه، أديهم هيمشوه لجل ظروفه، وهيساووله معاشه وابقى قابلني لو خد جنية، وكل ده ليه.. عشان طفّاع.

- برضك مُصِر إنتَ على موضوع طفّاع ده.

- مهو اللي أنا عايزك تعرفه ياعبمجيد، وحصل قدامك كذا مره متنكرش، إنه لو فيه مقاول عدى على تلاتة موظفين في السكة الحديد، وسَلّم على واحد فيهم، يبقى بيديله... مهما كانت نزاهته قدامك ومهما كنت تعرف عنه، لو سَلّم يبقى بياخُد.

مصمص الآخر شفتاه، ثم هز رأسه إيجابًا، فهو يعلم أن للشك

والريبة دومًا وجود بين الموظفين، وأن الريس «جودة» على حق فيما قاله، فالحرص واجب في المطلق.

في ذات اليوم وبعد ساعات العمل، عاد الريس «جودة» إلى بيته وزوجته وأولاده الاثنين. كان أكبرهما قريب لوالدته بشكل يُثير استفزاز الآخر، ويجعل الريس «جودة» لا يتناقش معه أو يتحدث إليه بشكل مباشر أغلب الأحيان، فيلجأ لإيصال ما يريده إلى ولده عن طريق زوجته، أما عن الأخ الأصغر، فلم يكن قريبًا لكليهما، أو حتى لأخيه الأكبر. بسلفة «عبد المجيد»، اشترى الريس «جودة» غداءً لأسرته المتواضعة، فمهما كانت الأحوال، لم يكن الريس «جودة» بخيلًا على أسرته، لا يهمه سوى راحتهم، ورغم تعنته وتمسكه برأيه دون غيره، إلا أنه يعلم أن الحياة من دونهم لا تساوي.

زوجة الريس «جودة»؛ الستّ «عزيزة»، كانت موظفة في مصلحة الضرائب المصرية، وكانت خير أم لولديها، ولكن وعلى الرغم من أنها لم تكن لتقوى تربيتهما بمفردها، فقلما ما كانت تشارك الريس «جودة» همها، كانت تخشى أن تُثقله بهموم هو في غنى عنها، وكانت لتعلم أنه لن يتأخر عنها لو أفصحت عما بداخلها، ولكن بعض الأمور لم تكن لتقوى على كتمانها:

- سيد.. يا سيد، إنتَ نايم ياخويا؟

- من بدري، طفي النور يا عزيزة عندي شغل الصبح.

- ولما هو من بدري، منمتش ليه لحد دلوقتِ، إيه شاغل بالك قولي؟

- شاغل بالي اللي إنتِ جاية تطربيني بيه.. ها.. اطربيني بقى وقولي قوام قبل ما أنعس.

- طيب ياللي قاريني، مصاريف كلية ياسين، قربت ومحتاجين ندبرها بدل ما يزن عليها.. مانت عارفه.

امتعض وجه الريس «جودة» قبل أن يقول:

- الواد ده حاله مش عاجبني، لحد دلوقتي وهو في الكلية وشايف الحال اللي إحنا فيه ومفكرش يشتغل.

- وهو ياخويا هيعرف منين؟ الواد غلبان.

- لازم يحس يا عزيزة، يفهم إنه راجل لازم يشتغل ويجيب مصروفه وهو في سنه ده، أنا عايزه يطلع زيي، عنده شخصية وصاحب قرار.. وعمره ما هيبقى صاحب قرار ولا يتحمل مسؤولية وهو بياخد مصروف وبيندفعله مصاريف جامعته.

- يا سيد ما حال الشباب اليومين دول كلهم كده، وانا بشوفهم وبشوف أهاليهم كل يوم، الدنيا مبقتش زي زمان ياخويا، وبعدين ربنا يباركلهم فيك ويديك طولة العُمر والصحة.

- منين العُمر والصحة هييجوا دلوقتي يا سيتي؟ منيين؟ الواحد مبقاش فيه نفخة يتعب ويشقى زي زمان، بس بيعافر الأيام لجل ما تعدي.. وأنا خايف عليه، «علي» لسة صغير وأنا مش طالب منه حاجة، إنما ده كسر العشرين، ولسة لا عمل حاجة ولا ثبت في شغلانة حتى جنب الكلية.

ساد الصمت للحظات قبل أن يُكمل الريس «جودة» حديثة:

- خليه يا أم ياسين يشوف حاله، عرفيه إن أبوه متحسر عليه، قوليله كده، قوليله أبوك قلبه واجعه عليك.. أنا مش عايشله الغمر كله.. والكتابة دي مش هتأكله عيش، الكتابة دي هتسمعه كلام حلو، والكلام الحلو والوحش ببلاش ، مش هيستنفع من وراه.

نهض من نومته وجلس على السرير وأكمل:

- الكتاب عندنا في الشغل على قفا مِن يشيل.. ومش عايزين إحنا شكررزًا.. وبعدين أنا عايز أفهم، مال كلية التجارة بالكتابة، هو أي اختلاف وخلاص!.. يا تفهميه يا أنا هفهمه.

مالت عليه الست «عزيزة» أم ياسين قبل أن تربت على كتفه ليعود إلى النوم مرة أخرى، واعدةً إياه أنها ستتحدث مع «ياسين» لتنقل إليه ما يعتمل في نفس أبيه.

في صباح اليوم التالي وقبل أن يغادر الريس «جودة» مبكرًا إلى عمله، وجد «ياسين» مستيقظًا على غير عادته، فشعر الأب ببعض الأمل، لعلّ والدته أقنعته بالعدول عن الكتابة والتفكير في وظيفةٍ ما.. ولكن سرعان ما أفصح الشاب عن غرض استيقاظه مُبكرًا هكذا، فكان ينتظر أبيه قبل أن يغادر لعمله، كي يعرض عليه أمرًا مُلّحًا للغاية لا يتحمل تأخير، وهو طلب الإذن في تربية بومة.

لم يكن من الأب حينها سوى تعنيفه وتوبيخه لسذاجته وتفاهة طلبه السخيف، مما أثر بالسلب في نفس ولده الأكبر، فالريس «جودة» كان عمليًا لدرجة كبيرة، يخشى المستقبل على أولاده، يعلم أن الحياة لن تُخبئ لهم السعادة والفرص المجانية دون سعي واضح

وجُهد مُضنٍ. فمن وجهة نظر الريس «جودة»؛ الموظف الحكومي حين يتقدم لخطبة إحداهن، فرصته في القبول تضاهي فرصة ألف رجل من ذوي الأعمال الحرة، بالإضافة إلى مكانته المجتمعية المرموقة، وهو لا يريد لأولاده سوى أن يسلكوا نهج أبيهم، ولولا أن هيئة السكة الحديد لم تعد تقبل تعيين أبناء العاملين، كان ألحق ولديه أو أحداهما.

حين دلف الريس «جودة» إلى مكتبه، وفي أثناء شربه لفنجان القهوة الصباحي، عَلِم من النمامين، أن وزير النقل وضع حدًا بشأن الأرض التابعة لهيئة السكة الحديد، وقام بغلق الموضوع تمامًا إلى حين البت في الأمر، ذلك إن كان للأمر بقية، ولكن ما عَلِمه الريس «جودة» كان مُغايرًا لما يعلمه «أمجد زهران»، فذلك الأخير ورغم ما صرح به وزير النقل؛ يعلم أن نيل تلك الأرض لن يتعطل كثيرًا، وسيُعاود المحاولة فيه من جديد، ليس عندًا في الوزير، بل في أمين مخازن صغير للغاية، يظن أن اعتراضاته السخيفة، ستجعل «أمجد زهران» يتخلى عن أحد مشاريعه، فهو لم يعهد ذلك طيلة حياته، وربما لن يتنازل عن تلك الأرض، مهما كلفه الأمر.

***

الثاني عشر

بعد ساعات من إقناع الحاج «جودة» بضرورة الهدوء خاصة بعد انتهاء الموقف، ومنعه من رمي السباب واللعنات على أصحاب المحمصة، وصفهم بالبهائم لتعيين ذلك المعتوه ابن الستين هرمة - كما دعاه - هل كان من اعتراضه بُد؟ ليته قام بتغيير علبة السجائر للحاج «جودة» دون الخوض في مُهاترات كان في غنى عنها.

رافق الحاج «جودة» صديقه «عبد المجيد» إلى بيته، وحين دلفا من باب الشقة، حاول الحاج «جودة» أن يمنع لسانه من التلفظ بما قد يُسيء إلى بيت صديقه، فأخذ يضرب بكفيه على رجليه حين جلس، وما كان من «عبد المجيد» إلا أن هدأ من روعه قليلًا حين قال:

- خلاص بقى يا سيد، الواد جديد وميعرفش، والعيب مش عنده.. إنتَ بتضايق من الصورة، متشربهااش أصلًا.

بغضب لاحقه «جودة»:

- تاني يا عبمجيدا.. الكلمة دي تاني!.. أسيبلك البيت وأمشي يعني؟

جلس بجانبه «عبد المجيد» وربت على كتفيه قبل أن يهمس في أذنه:

- ما خلاص بقى يا سيد، متعرضهاش.. تعالى.. قوم نطلع البلكونة أشيّلك عشرة طاولة.

بحنق قام العم «جودة» من جلسته وتمشّيا إلى الشرفة، جلسا أمام

بعضهما بعضًا، بينهما صندوق الطاولة، وتعمّد «عبد المجيد» ألا يكون حَذِق في لَعبه، حتى لا يقلب العم «جودة» صندوق الطاولة في وجهه قبل أن يُغادر، فتعمّد الغباء والتسرُّع في حركات لَعبه حتى يفوز العم «جودة» فيهدأ هذا من روعه قليلًا، وعلى الرغم من ذلك، فكان الأخير يعلم أن صديقه يخسر من أجله.

بعد قرابة الساعة، طلب «عبد المجيد» من «ليلى» خِفيَة، أن تنزل وتدعو «ياسين» للمجيء والوقوف بجانب أبيه في تلك الحالة، فما بال رجل تخطى الستين عامًا، يُولده الأكبر لا يؤازره في تلك الأحيان، وحين نزلت «ليلى» لثناديه، امتعض لبضع ثوانٍ قبل أن يستأذنها في تغيير ملابسه والصعود معها، فدخل «ياسين» إلى غرفته، وبعد تغير ملابسه، رمق «نوحي» فوق وكره يومئ برأسه مؤيدًا الذهاب، فمهما كان، أبوك، ووجبت له الطاعة.

حين خرج إلى الصالة وجد «ليلى» قد تقدّمت خطوة إلى داخل الشقة، تتأمل حالة الفوضى العارمة بالأرجاء، أصابه الحرج، واصطنع كحة كي يُنبهها، خرجت في كسوف، قبل أن يصعدا معًا. حين رأى «ياسين» والده جالسًا مع الحاج «عبد المجيد» في الشرفة، وقد بدا عليه بعض الروقان، فتقدم دون أن ينبس ببنت شفة، سحب كرسيًا وشارك في الجلسة بحضوره فقط، وكانت «ليلى» لا تكُف عن تقديم واجب الضيافة بين الحين والآخر، وكان «ياسين» ينتظر ظهور والدتها في إحدى المرات، كي يتعرّف على ذلك الوجه وراء وجبات الغداء التي تصنعها من أجله هو وأبيه وأخيه معظم أيام الشهر، ولكنها لم تظهر ذلك اليوم، مما جعله يلاحظ مدى اهتمام «ليلى» بأبيها وصحته، مواعيد أدويته بتلقائية، وممارسة الحنان والأحضان

بين الحين والآخر، فليلى لم تكن سوى فتاة في أواخر عقدها الثاني، تشغل منصب صغير في قسم الدعم الفني. وإدارة الشبكات بإحدى شركات الاتصالات، وهذا يُفسر الدعم العاطفي الجياش التي تُضفيه على والدها أمام الجميع، بلا تَحفُّظ أو حرج.

حين اقتربت الساعة من الثانية عشرة منتصف الليل، شعر «ياسين» بحرج بالغ حين وجد والده لا يعبأ بالمكوث في بيت الجيران رغم تأخر الوقت، حاول بحركات الإشارة أن يلفت انتباهه لضرورة المغادرة، وترك الناس تحظى بقليل من الراحة، وحين قرأ العم «جودة» ملامح ولده، عبس مُجددًا قبل أن ينهض ليستجيب بامتعاض جلي. وما أن هبطا إلى الشقة في الأسفل، حتى دخل «ياسين» إلى غرفته دون حديث، وبعد قليل دخل الحاج «جودة» إلى غرفته، وأغلق عليه بابه، وظل واقفًا أمام ضلفتي دولابه قرابة النصف ساعة، ولم يكف عن استرجاع ذكريات مؤلمة مُدمعة، ظن أنه سيأتي يومًا وتنصرف عن مطاردته، ولكنه غفل عن ألاعيب الذاكرة المريرة، فمع تقدمه في السن، لا تنفك أن تراوغه وتخادعه كقط يلهث وراء نقطة ليزر كاذبة، لن تجعل منه سوى أضحوكة. وعلى الرغم من حروبه الداخلية أن يتذكر الماضي، فهو لا يريد أن يتذكر، ويأبى النسيان، فحين يرغب في استدعاء ذكرى بعينها، ولا يجدها، يشعر وكأنه شخص آفاق من غيبوبة، وسط أناس وأحداث لا يعلمهم، فبات يتمنى الغيبوبة أن تعود، ولا يفيق منها حتى يأتيه اليقين في يوم من الأيام.

بدأ يشعر بوخز في كعوب رجليه، ينخر كالسوس من طول مدة الوقوف، فجلس فوق السرير وأراح رأسه إلى الوراء، حتى أدمعت

عيناه رغمًا عنه، مد يده أسفل كيس المخدة، ليُخرج صورة قديمة، ينظر لها طويلًا قبل أن يحتضنها ويضعها فوق صدره.

في الغرفة المجاورة، كان «ياسين» جالسًا أمام أجزاء متبعثرة من آلته الكاتبة، أجزاء يعلم بداخله أنه غير قادر على تجميعها مرة أخرة، وفي زاوية الغرفة؛ «نوحي» هائج، يرفرف بجناحيه بعنف، يقف على الوكر لثوانٍ ويرتفع لثوانٍ أخرى، وأخذ «ياسين» يزيد الطين بلة ببعثرة قطع إضافية من آلته الكاتبة، حتى ما أن بقي فيها بضع أزرار وتروس، حتى ألقى بها بعيدًا، وسحب هاتفه بعد أن آتته رسالة نصية من صديقه «رامي»، تحوي جملتين بالعدد، "الموقع جاهز.. تحب نبدأ إمتى؟" لاحقه بالرد "من بكرة.. أنا خلاص زهقت".

ألقى بهاتفه بعيدًا قبل أن ينهض ويدلف إلى البلكونة، البرد كان لاذعًا، وقف قليلًا يستند إلى السور، قبل أن يلحظ في إحدى بلكونات الدور العلوي؛ رأسًا تمتد إلى الخارج، تراقبه وتُتابع حركته، وحين دقق بالهيئة، وجد أنها «ليلى»، تنظر له بابتسامة، وتلوح بيديها برفق، قليلًا، قبل أن تختفي الابتسامة بغتةً، وتعود برأسها إلى الداخل! وما هي إلى أجزاء من الثانية، حتى أدرك سببًا لصوت ضلفة السلك من ورائه، وهي تنفتح بغُشم منذ ثوانٍ، وكان والده؛ الحاج «جودة» واقفًا كالصنم، خلف رأسه عرضهما قرابة المتر، يرتفعا حتى يظهر من بينهما «نوحي»، يعلو ويعلو، حتى يطير من فوق أبيه ومن فوقه في سرعة بالغة، لحظات حتى ابتعد عن أنظارهما رويدًا رويدًا، لحظات كانت تمر في عينَي «ياسين» ببطء شديد، وكأن الزمن يأبى المرور. حسرة وتَلَهُّف كادا أن يُفجرا رأسه بلا صوت انفجار، وبلا مؤثرات صوتية مُبالغ في أمرها، فمع خروجه حرًا طليقًا في ذلك

الوقت من الليل، ففرصة رجوعه تكاد تنعدم، والطائر الذي لطالما أحببه، صار غير موجودًا.

***

الثالث عشر

قبل ساعات من الجريمة

كانت «نريهان» جالسة أمام أوراق مادة تتجهز لأداء اختبارها بعد أيام، فلم يتبقَّ على انتهاء الدبلومة سوى فصل دراسي واحد، وفي أثناء انهماكها في المذاكرة، ورد إليها عبر تطبيق «الواتساب» رسالتين متتاليتين من رقم مجهول، تنبّهت قبل أن تُمسك بهاتفها وتفتح فحوى الرسالة، حتى تبيّن لها أن المُرسل مجهول، والرسالة تحوي مقطع فيديو، قامت بتحميله سريعًا، قبل أن تفتحه، كان المقطع يظهر فيه تصوير ليلي غير عالي الجودة لشارع مألوف بالنسبة لها، شارع توجد على ناصيته عمارة مكونة من خمسة أدوار، بها شقة ستصبح شقة زواجها بعد انقضاء فترة الامتحانات بعدة شهور، ومن الواضح أمامها أن تلك السيارة المتوقفة أمام مدخل العمارة، تخص خطيبها «محمود»، وهو بالداخل، ولم ينزل منها بمفرده كما توقّعت، ولكن من الناحية الأخرى للسيارة، تراءت سيدة غير معلومة الملامح، تغلق باب السيارة بحرص، والآخر يلتفت حوله في قلق ملحوظ. لم يكن للعمارة حارس أو فرد أمن نظرًا إلى قلة عدد السكان بها، ولم يكن المصعد جاهز بعد، عمارة حديثة لم يكتمل طلاء وجهاتها بالكامل. انتهى المقطع وكان يتبعه رسالة أخرى مكتوب فيها: "سهرتهم صباحي، ولو حابه تتأكدي.. العنوان معروف"، متبوعة برمز لوجه مبتسم بشدة.

لم تتمالك «نريهان» ما تبقى من أعصابها، نهضت مسرعة لترتدي أي ملابس تجدها في الدولاب، ونزلت مسرعة من البيت

بعدما طلبت سيارة تقلها في الحال إلى هناك، وما هي إلا دقائق معدودة وبعد توصيات منها للسائق بضرورة التعجل؛ وصلت إلى جهتها المنشودة، وكانت تتمنى لو لم تكن سيارة «محمود» واقفة كما بالمقطع تمامًا، ولكنها كانت موجودة، صعدت السلالم في سرعة أنهكتها، ولكن تحاملت على نفسها حين اقتربت من باب الشقة، طرقت على الباب المصفح بهدوء مُصطنع، وانتظرت الرد، دقيقة، اثنتان، ثم عاودت الطرق بذات الهدوء، ولم يُجيبها من بالداخل، ولكن شعرَتْ «نريهان» بحركةِ شخصٍ ما يعبث بالأكياس البلاستيكية من الجهة الأخرى، وأدركت بُحكم معرفتها بخطيبها المحروس، أنه من المستحيل أن يفتح الباب، حتمًا سيتصنع عدم وجوده، فما كان منها سوى أنها غادرت بلُطف وهدوء، وكان وراء العين السحرية، يقف «محمود» نصف عاري، خائفًا يرتعد، تجثم على رئتيه أطنان من الوَجَل، ولكن حين غادرت، تمالك أنفاسه المكتومة، وعَلِم أن ما للتو بدأه - مع الأسف - لن يستطيع أن يُكمله، أخبر الضيفة الملقاة بالداخل أن ليلتهما قد انتهت قبل أن تبدأ، وطالبها بالرحيل، فأعربت عن غضبها بالرغبة في نيل بقية أتعابها توصيلة، وافق الآخر دون اعتراض، ولبسا ملابسهما ونزلا في غضون دقائق، ليتفاجأ «محمود» حين اقترب من سيارته برفقة القطة البلدي، أن خطيبته «نريهان» تقف في زاوية مظلمة خلف السيارة، تنظر له بعينين ملؤهما الحسرة والندم، عروس على وشك الانهيار، رمته بنظره استحقار بالغة ومن معه، قبل أن تخلع دبلتها وتضعها فوق مؤخرة السيارة، أوقفت تاكسي، ثم غادرت وسط نظرات الذهول التي تعتلي وجه «محمود».

حاول الاتصال بها مرارًا ولكنها لم تجبه، وأغلقت هاتفها حتى لا تتلقى منه أي مكالمات أو رسائل. مكثت بغرفتها حين ذهبت إلى بيتها، ولم تتحدث إلى أحد، وحين أتت والدتها لتعرف ما ألمّ بابنتها، فشلت مُحاولتها، ثم أتي والدها ليجعلها تتحدث رغمًا عنها، فبدلًا من مواساتها، أخذ ينغزها في كتفها، لعلّها تحكي ما أصابها، كان كمن يُداوي صداع الرأس بضربة على الرأس، فما كان من المسكينة إلا أن انهارت فوق انهيارها، وصرخت فيهما أن أخرجا، وبعد محاولات من الأم مُجددًا، خرجا وتركوها بمفردها. بعد قليل أعادت تشغيل هاتفها فوجدت كم هائل من الاتصالات الفائتة والرسائل التي لا حصر لها، قامت بحظر رقم «محمود» نهائيًا وهي غارقة في دموعها، وعَلِمت أن اللحظات القليلة القادمة ستكون حتمًا الأخيرة في حياتها إذا لم تجد من تُنفس معه غضبها العارم وحزنها الدفين، ولم تجد سوى صديقتها «غرام» التي حادثتها كثيرًا في الساعات القليلة الماضية، حادثتها ولم تقوَ على الحديث إلا قليلًا، فانتقلت إلى المحادثات الكتابيّة، وحينها أخبرتها صديقتها أن خير مُداواة لقلب مكسور، هو ذهاب العقل في رحلة بعيدة، يستطيع بعد العودة منها أن يهدأ ليتخطى الأزمة، واقترحّت عليها مرافقتها إلى حفل بسيط في إحدى الملاهي الليلية، حتى يتسنى لعقلها أن يمنعها من الانهيار المفُاجئ، لكنها لم تكن تعلم، أن ذلك الانهيار سيكون إظلامًا أخيرًا لحياتها.

لم يكن المقدم «خالد الكومي» ليعلم تلك الملابسات عن القضية، سوى بعد إجراء تفتيش مُفصل ودقيق لهاتف المجني عليها، ذلك بعدما استعان خبير الهواتف لدى النيابة بإصبع الضحية لفك

قفل هاتفها وتعطيل حماية الرقم السري بعد فترة قليلة جدًا من الوفاة(3)، وكان برفقته المقدم «خالد» آنذاك بالمشرحة، ولم يقدر على نسيان ملامح وجهها حتى تلك اللحظة.

تم استدعاء «غرام» صديقة المجني عليها مرة أخرى، للتحقيق معها. وخضعت لاستجواب دقيق، وتم تفريغ سجل مكالماتها والبحث في خلفيتها بعناية. لم يظهر أي شيء مريب أو مشبوه، وكل الدلائل أشارت إلى براءتها من أي صلة بالجريمة. حين اطلع المقدم «خالد» على المكالمات الفائتة والمحادثات، ووجد الفيديو المرسل للضحية قبل ساعات من حدوث الجريمة، وعلم أنها أرادت أن تُخبره بطريقة غير مُباشرة - عن طريق صديقتها - أنها وبعدما ضبطته في وضع مُخل لعلاقتهما، ذهبت برفقة صديقتها إلى ملهى ليلى كي تثأر منه ولو بشكل بسيط؛ وأيقن حينها «خالد»، أن ذلك اللعين المدعو «محمود» كان يكذب بشأن تواجده في مكان آخر في أثناء حدوث الجريمة، فلربما غادر وراءها بالفعل حين تركته وذهبت لبيتها، ولم يمتلك الشجاعة الكافية للصعود إليها ومواجهة أبيها وأمها إن عَلِما! هل ظل يراقبها إلى أن دخلت حانة «دياڤلو»؟ هل دخل وراءها وحاول التحدث معها بشأن ما رأته ولما امتنعَت، شعر بتقليل من ذاته لتواجدها في هذا المكان ورفضها للمغادرة معه، فتفاقمت الأمور إلى شجارٍ ما أراد أن يُنهيه، فقتلها؟ خنقها حتى فارقت روحها الجسد، ومن ثم عقله الباطن صوّر إليه أنه وبعد شهور قليلة كانت لتُصبح زوجته، حلاله، فلما ماتت أبي العقل أن يستسيغ الفكرة، فقام باغتصابها بعدما ماتت، ظنًا منه إنها ملكه حتى بعد وفاتها!.. مسكين، ولكنه قاتل، متهم، مشتبه به أول، ولا بد أن يندرج اسمه في خانة

الشك بكل تأكيد.

هل حينما أفاق من غشاوته، أدرك حجم المصيبة التي للتو فعلها، فوجد نفسه بصدد جريمة قتل مُكتملة الأركان، ابتاع زجاجة كحول ليست برخيصة من البار وقام بسكبها بكرم على خطيبته المقتولة، ليواري بصماته؟ ليواري جريمة ارتكبها وهو غير واعٍ.

سيناريو مُرجح بشده، حدوتة منطقية، يلزمها - لزيادة التأكد - زيارة إلى الشركة التي يعمل بها «محمود» للتأكد من صحة المقطع المُرسل لخطيبته، فربما كان هذا المقطع يرجع ليوم آخر غير ليلة حدوث الجريمة. وبالبحث وراء الخط الذي أرسل إليها ذلك الفيديو في تلك الليلة، لم يكن ليدل على المُرسِل، وذلك لأن الخط الذي تم منه الإرسال كان مضروبًا، يُباع في بعض الأكشاك في الخفاء، والغرض من بيعه هو ابتزاز أحد الأشخاص عن طريق مكالمة منه. لم يجد المقدم «خالد» من تلك الزيارة بُدًا، فقام حين وجد أنه لو مكث قليلًا ستتفتق الأحداث في ذهنه إلى مالا نهاية، فذهب إلى شركته وقام بالسؤال عنه، فعَلِم أنه بالداخل، وأن ساعة خروجه قد اقتربت، فقرر أن ينتظره بالخارج، أحضر من الكافتيريا كوب من القهوة، وما هي إلا نصف ساعة انتظرها بجوار سيارة «محمود»، حتى أتى الأخير في خطوات بطيئة، تعتريه الريبة والقلق، فتح قفل سيارته وجلس الاثنان بالداخل يلتقطان أطراف الحديث:

- في العادي.. المُقابلة الوديّة دي قليل أما بتحصل، بس في بعض الأحيان بتبقى ضرورية قبل المقابلة اللي هناك عندنا في النيابة، يعني.. بتبقى فرصة تقول فيها اللي ماقولتهوش في المقابلة اللي

قبلها وماكونتش ناوي تقوله في اللي بعدها.. فاهمني؟

كلمات ألقاها المقدم «خالد» في حِجر المشتبه به ليلتقط العدم، ثم أكمل:

- تبقى فاهمني.. خلينا نسأل تاني، كنت فين وقت ما حصلت الجريمة؟

- ...

لم يكن ليجيب «محمود» على سؤاله، نظرًا لما رآه بين يديه؛ هاتف المجني عليها، قام بفتح الفيديو الذي أتاها يوم الحادث، ثم وجهه إليه.

- كنت بتعمل إيه في شقتك يومها؟.. والهَشَكة اللي معاك في الفيديو، تعرفها منين؟

اغرورقت عينا «محمود» بالدموع، قبل أن يَقُص ما أخفاه سلفًا:

- مكنتش أعرفها.. هي جاتلي في اليوم ده الشركة، وقالتلي إنها عايزة سيستم للمكان عندها، والشركة كلها كانت هتموت ويعملوا الديل معاها، بس هي جاتلي، واتفقنا على حاجات كتير، وفي لحظة ما كنا بنملا بيانات للعقد، سابت العنوان فاضي، ودي خانة مطلوبة يعني، فلما سألتها، بصتلي بصة جريئة كده وقالتلي اكتب العنوان اللي إنتَ عايزه المهم يكون على ضمانتك.. ففهمت، أصلًا بصاتها من أول القعدة كانت واضحة.. وفضلت مستنية لحد ما مواعيد خروج الشركة جت والكُل مشي.. خرجت ولما خرجت لقيتها مستنياني برة، روحت ناحية عربيتي لقيتها جاية وبتركب جنبي.. بعدها.. لاعبتني،

محستش بنفسي غير وأنا طالع شقتي أنا ونريهان، وملحقتش أعمل أي حاجة إلا ولقيت الباب خبط.. كانت نريهان، نزلت ولقيتها عند العربية، حاولت أكلمها كتير وأبعتلها، مكنتش بترد، وعشان العلاقة بيني وبين أهلها ماكنتش أحسن حاجة، خوفت أكلمهم.

- وبعدين...

- بعدين حاولت أكلمها هي بقى لكن ماكنش فيه فايدة.. شوية ومشيت من تحت بيتها وقولت الصباح رباح بكرة تتحل، وقولت هي أكيد هتنام أو على الأقل هتفضل في بيتها لحد الصبح، ولكن ده برضو محصلش..

استشاط «محمود» غضبًا قبل أن يُكمل:

- ماكنتش أعرف إنها هتنزل مع الزفتة اللي اسمها غرام، وتروح الزفت ده..

- وعرفت إنها راحت منين؟

- من الزفتة لما كلمتها وردّت عليا بكل برود وقالتلي إنهم رايحين.

في القضية غدر وخيانة، خوف، مشاكل عائلية، ومع ذلك لم تكتمل الصورة بعد، ينقصها عُنصر ما، عنصر مستتر إن تراءى، فربما ينفرج لُغز القضية.. وربما يزداد تعقيدًا.

في النهاية ترك المقدم «خالد» خطيب المجني عليها قبل أن ينبه بضرورة الحضور غدًا لإعادة قول تلك القصة داخل ملف القضية، لأنه وبعد التحريات إذا ثَبَت عكس صحة حرف مما قال، فسيزداد موقفه سوءًا.

عاد إلى مكتبه وبحوزته هاتف المجني عليها، جلس ليستريح، قبل أن يعاود تفتيش الهاتف بشكل ربما سيرضيه، تفقد صوّرها منذ أعوام، ثم غاص في تفاصيلها داخل المقاطع التي كانت تلتقطها لنفسها بين الحين والآخر، أدرك جمالًا لم يكن ظاهرًا بذلك الجسد الأزرق داخل المشرحة، وحين وجد نفسه غارقًا في حياتها دون أن يدري، ذكّر نفسه أنه رجل متزوج، وأن تلك الفتاة في الأصل ميتة. ذلك قبل أن يُفتح الباب من أمامه ويخبره العسكري أن أحدًا ما في انتظاره بالخارج ويطلب مقابلته، وبعد قليل.. تدخل «نريهان»!

***

الرابع عشر

في هيئة السكة الحديد إذا أغمضت عيناك لثوانٍ، بت داخل السجن دون شك.

كم من المواقف العديدة التي مر بها الريس «جودة» التي تؤكد أن مكانه ليس سوى في السكة الحديد، لم يكن ليتكيف مع مكان آخر، فلكل إنسان بصمة مهنيّة مختلفة، لن يتم تفعيلها إلا بوضعها في المكان المناسب.

حين اقتربت ساعة خروج الموظفين بالسكة الحديد، رافق الريس «جودة» صديقه «عبد المجيد» إلى خارج المكتب، ومنها إلى سطح المبنى، اعتادا الوقوف معًا في ذلك المكان كلما ضاقت الحياة بأحدهما، كان السطح يمتلئ بماكينات قديمة وآلات كاتبة عتيقة، تم إيقافها عن العمل منذ سنوات، جلس كلاهما على كرسي معدني بجوار السور، وتحدّث الريس «جودة» مع صديقه بشأن مخاوفه حول ولده الأكبر «ياسين»، أخبره أن الحياة لن تحنو عليه كثيرًا، سرعان ما ستسحب بساط الراحة من تحت قدميه، فعليه ألا يتهاون في تحمل المسؤولية، من الواجب عليه أن يشارك والده هموم الدنيا ومصاريفها، فلم يَعُد قادرًا على تحمل تلك المصاريف بمفرده. حين أتت تلك السيرة، دسّ «عبد المجيد» يده في جيبه وأخرج ظرفًا صغيرًا، ناوله للريس «جودة» دون تعقيب، فلاحقه الأخير سريعًا:

- إيه ده يا عبمجيد؟.. بقى أنا أقولك العيال والمصاريف تقوم تظروفني؟

ضحك «عبد المجيد» حتى بانت نواجذه، قبل أن يرد:

- أظروفك ايه يا راجل، أعوذ بالله.. ده القبض.

ابتسم الريس «جودة» وهو يلاحقه:

- طب مانا عارف.. عبد العزيز بتاع الخزنة قالي إنك قبضتلي.

أخذ الريس «جودة» الظرف وفتحه، ثم أخرج منه ورقتين فئة الخمسين جنيه، قبل أن يعطيها لعبد المجيد، ولاحقه:

- أشرب سجاير.

عبس وجه «عبد المجيد» قبل أن يرد يده بالفلوس قائلًا:

- اخص عليك.. هو إنتَ فاكرني قبضتلك عشان تديني الميت جنيه دي؟.. عيب عليك يا سيد والله.

- يا أبو ليلى عيب إنتَ عليك..أنا برضك أفكر فيك كده؟ ده إحنا إخوات يا أخي، بس أنا برضك عارف الظروف، والحمد لله أهو ربنا كرم وقبضنا.

ابتسم «عبد المجيد» مُعلقًا:

- ربنا يخلينا لبعض ويباركلك في ولادك يابو ياسين.

حين عاد الريس «جودة» إلى بيته، لم يجده هادئًا كالمعتاد، وذلك لأنه وجد «ياسين» بالفعل قد اشترى تلك البومة التي حدثه عنها بالأمس، يجلس بجوارها في الصالة يُعلمها الطيران من يديه إلى قطعة خشب ثقيلة يضعها على الأرضية والعكس، مكعب خشبي يكسوه قطعة نجيلة صناعية خضراء صغيرة. وعلى غير المتوقع لم

تكن زوجته متضررة من تلك الفوضى، بل بدت سعيدة بوجودها وكأنها قطة أليفة، ربما كانت أكثر سعادة من «ياسين»، ولكن ما كان يقلقها بحق، أمر الفئران التي سيحضرها إلى البيت، بل وظلت تقنعه أنه من العادي أن يطعمها من بقايا الأكل البيتي، وكان الريس «جودة» غير راضٍ بما يحدث، واستشاط غضبًا حين عَلِم أن سعرها مُبالغ في أمره، فقام بتوبيخ «ياسين» عن فعلته، ودافعت عنه والدته، قبل أن يتركهما ويدخل إلى غرفته لينام حتى الغداء، مؤكدًا على أم «ياسين» أن تجهز نفسها للنزول معه بعد الغداء، حتى يبحثوا معًا عن بدلة ليرتديها في حفلة خروجه على المعاش المقرر إقامتها بعد أربع وخمسون يومًا تقريبًا، ورغم عدم اقتناعه بفكرة إحضار بدلة جديدة لمثل تلك المناسبة، إلا أن زوجته أصرّت على يرتدي بدلة مميزة في ذلك اليوم المميز، وأحكمت رأيها حين أصرّت أن يأتي بها قبل قرابة الشهرين من الحفلة حتى لا ينساها، وحتى لا تضيق بهم المصاريف فلا يقدر على شرائها فيما بعد.

وبالفعل حين نزلا بعد الغداء ليبحثا عن بدلة مناسبة، يكون سعرها في متناول أيديهم، وجداها بعد عناء وفِصال، ولكنها كانت تحتاج إلى لمسة ترزي شاطر كي يجعلها مناسبة لهيئة الريس «جودة»، وبالفعل قاما بدفع ثمنها بالكامل، ويمكنهما استلامها بعد يومين على الأكثر.

في طريقهما إلى البيت، تشارك «جودة» مع أم «ياسين» همومه وقلقه حول الحياة بعد المعاش، أخبرها أنها لن تكون بتلك السهولة، فربما تضيق بنا السُبل أكثر مما تضيق بنا الآن، فأتى رد أم «ياسين» مع ابتسامة هادئة:

- أنا عارفة إنها مش هتبقى سهلة، بس المهم إنك معانا، وربك كريم مش هيسيبنا.

تنهد الريس «جودة» بعد شرود للحظات قبل أن يرد:

- مكافئة انتهاء الخدمة هتغطي معانا كتير.. وهتسدد من علينا كتير أنا عارف.. لكن إنتِ متخيلة القبض هيبقى كام لما أخرج معاش؟ الموضوع ده مش بينيمني.

- ارمي حمولك على الله، اللي سترنا بدل المرة ميت مرة، قادر يسترنا ويريح بالك يا سيد.

ابتسم لها قبل أن يغرق في التفكير مرة أخرى.

***

للطموح صور عديدة، ولكن عليك أن تختار صورة لا تمزقها الأزمات والضوائِق بسهولة.

تلك كانت الصورة التي اختارها «أمجد زهران» مذ كان فتى صغير، بدا من المعروف عنه أنه لا يستسلم بسهولة، لا يتراجع مهما كلفه الأمر، حتى وإن كان ما يفعله مُحاطًا بالشبهات، فهو قوة لا يُستهان بها، عقله الحاد وعيناه الحريصتين على ملاحظة أدق التفاصيل في أصغر المشاريع، كانا سببًا كافي لمنافسيه أن يعلموا أن خوض صراع ما ولو بسيط مع «أمجد زهران»، أمر ليس بهين، فمن المرعب أن تتعامل مع شخص رغم ما يمتلكه من نفوذ وعلاقات وإصرار مخيف؛ أن تجده وبعد ذلك لم يكتفِ بعد، لم يتكئ ولو ليوم واحد على أمجاده التي حققها في السنوات السابقة، شخص يعلم

أن عليه دائمًا دفع نفسه وبقوة إلى الصعوبات والتحديات، فذلك هو السبيل الأدعى لفتح كافة الأبواب أمامه، مهما كان أغلبها غير شَرعي.

وكان من أهم الأبواب التي أراد «أمجد» فتحها، هي نَيل تلك الأرض التابعة للسكة الحديد، كان وحده يعلم كيف سيستغلها لصالحه خير استغلال، كان متيقنًا أن الحصول عليها لن يكون بصعوبة الوقوف بصدد أمين مخازن صغير، لا يعلم من هو «أمجد زهران»، وعلى الرغم من عدم معرفته الكثير عن ذلك الأمين، إلا أنه أراد معرفة تاريخه بالكامل، منذ اليوم الأول له في السكة الحديد، وحتى اليوم الذي ظن فيه أن بإمكانه العبث في أمر يخص «أمجد زهران». ولم يكن من الصعب التعرُّف على تاريخ أمين مخازن في السكة الحديد، فإذا أردت أن تتعرف على تاريخ شخص ترغب في التخلص منه، فعليك بمرافقة ألد أعدائه، على اعتبار أن عدو العدو صديق، ولم يكن إيجاد عدو للريس «جودة» أمر صعب، فعلى الرغم من شجاعته وتفننه في نصرة الحق وتحقيق العدل أينما حطت قدماه؛ إلا أن أعداءه وأعداء نزاهته كثيرون، يتمنون إزاحته ولو لقليل من الوقت حتى يتسنى لهم تهريب شيء أو إخفاء شيء أو التلاعب بأمر شيء، وكان يقف في بداية طابور الأعداء، شخص لم يكن ليتردد ثوانٍ في الموافقة على إلحاق الضرر بالريس «جودة»، ليس فقط لتعارض المصالح، ولكن رغبةً في التخلص من بعض الملل والنصائح الشريفة غير المُجدية التي يلقيها الريس «جودة» في مسامعه حين يلقاه، فهؤلاء الشرفاء في نظره، مملون للغاية، كيف يثورون للحق في كل مرة دون أن يصيبهم الضجر أحيانًا؟ كيف يجدون في تحقيق العدل بين الناس أمر مُجزي يستحق كل

هذا العناء؟ وكيف يرفضون حسنةٍ غير هينة في مُقابل تسهيلات بسيطة؟ أتكون الحوجة والشلفة أهون عليهم من ذلك؟ حين يتعلق الأمر بعبد اللطيف «الزنخ»، فربما هؤلاء الشرفاء بُلهاء بحق، وإن كان عليه أن يفعل ما يجعله يُرضي سماجته وحقده لغبائهم بالإضافة إلى ظرف مكتظ به مرتب ثلاثة أشهر على الأقل، مع وعد بإجزال العطاء إن تحقق المُراد؛ فلن يتردد في زج الريس «جودة» في غياهب السكة الحديد، وذلك ما جعله خير أداة لأمجد، مع الأخذ في الاعتبار، ضرورة التعجل في إلحاق الضرر به حتى تنقضي المصالح دون تعطيل ومماطلة، فمن المُرجح أن يزداد سعر المتر في الأرض في أي وقت، وحتى إن ظفر بها «أمجد زهران» بعد ذلك، فحينها سيكون قد وصل إليها بعدما لويت ذراعه بما لا يحب. وكان من وقوع الريس «جودة» بُد، حتى وإن كان سيتأذى في عمله، حتى وإن كان حفل خروجه من الهيئة بالمعاش قد اقترب.

***

الخامس عشر

لم تكن العلاقة بين الحاج «جودة» وولده «ياسين» تتحمل أي مواقف مشحونة أخرى، كالتسبب في فرار الصديق الوفي الوحيد لياسين، هما بالفعل لم يكونا على وفاق من الأساس، منذ أن كان «ياسين» في الكلية، حتى من قبل انضمام «نوحي» إلى الأسرة، تلك الأسرة التي كانت سعيدة في يوم من الأيام، رغم تدني المستوى المعيشي، ولكن حالت الظروف بين أن تستمر الحياة وبين أن تزداد العلاقات توترًا بينهما مذ كان شابًا يمتلك من الشغف ما يكفي، ولكن فرار وهروب «نوحي» كان بمنزلة رصاصة قاتلة في علاقتهما. بعدما شاهد «ياسين» طائره المُقرب وهو يطير بعيدًا وكأنه لم يُحلق من قبل، نظر إلى أبيه بنظرات ملؤها الغضب والحسرة، وذلك لأنه يعلم بداخله أنه لا يملك لغة للحوار تجمعهما، فما كان منه إلا أنه ضرب سور البلكونة بكفه حتى كان الرخام في السور أن ينشق من شدة الضربة، ثم غادر مُتأففًا، دخل غرفته يبحث عن الدّس(4)، وعزم على الخروج للبحث عن «نوحي»، فلربما يجده فوق أسطح إحدى العمارات، وفي ذلك الحين، دخل عليه والده، وقف أمامه مستنكرًا لتلك العصبية المُفرطة، التي يراها من وجهة نظره مُبالغ في أمرها، ولكنه أراد إصلاح الموقف، ولكن على طريقته: "إنتَ مضايق ليه؟.. على فكرة كده أحسن له، ده مكانه الطبيعي في الطبيعة.. أصلًا حرام عليك حبسته بين أربع حيطان كده".

استشاط الآخر غضبًا قبل أن يلاحقه باستنكار:

- هو إنتَ دايمًا عندك تبرير لكل حاجة؟.. ليه متقولش إنك غلطت؟

ليه ماتقولش أنا آسف مثلًا؟ حتى لو لابنك عادي؟

كز الحاج «جودة» على أسنانه قبل أن يردف:

- آسف لك إنتَ!.. وعشان إيه؟ حتّة حمامة طيّرتهالك!.. أقوم أتأسفلك؟

مط «ياسين» شفتيه:

- حتى لو إنتَ شايفها حمامة.. ده مايمنعش إنك اتسببت في هربه.. بص.. أنا نازل.. ومتشكرين على الحمامة اللي طيّرتها.

حين هبط «ياسين» إلى الشارع، لم يكن يدري من أين سيبدأ، فرحلة البحث عن نجاح تبدأ بخطوة، فما بالك برحلة البحث عن بومة في حي محمد نجيب بالإسكندرية؟

كان الصقيع يضرب أطرافه حين تمشّى إلى شارع مفتوح، يفصله عن خط البحر أمتار قليلة، ظلت عيناه متعلقة بأسطح المباني والأماكن العالية من حوله، علّه يراه واقفًا هنا أو هناك، ولكن بلا أي فائدة، حتى اهتدى في نهاية الأمر إلى الميدان، ثم منه إلى كورنيش البحر، ظل واقفًا يشهد انقشاع الزحام رويدًا رويدًا، حتى هدأت الأجواء من حوله، وجلس وحيدًا فوق صخرة مصمتة، رفض الذهاب، رفض العودة إلى البيت بدونه، رغم أنه يعلم أن عودته ليست بشيء مرجح، خاصةً وسط تلك المباني الشاهقة. وبعد ساعة أو ربما أكثر، وقبل أن يصيبه اليأس وخيبة الأمل، لاح في سماء عالية ومن بعيد، طائرًا يشبه في تكوينه «نوحي»، فارجًا جناحيه على امتدادهما، تضربه تيارات الهواء فتخل من توازنه، يعلو ويهوي،

وعلى ارتفاع ليس بكبير، لاحظ «ياسين» أنه من المؤكد «نوحي»، نهض بلهفة ثم قفز فوق الصخرة، وأخذ يلوّح بالدّس عاليًا، وأطلق صافرة يميزها «نوحي» بميعاد وجبته من الطعام، فإذا به يحلق مسرعًا نحو الدّس، ظنًا منه أن فوقه قطعة سمّان أو فأر صغير، وإلا ما كان لينقض عليه مطلقًا. لحظات قليلة خشي فيها «ياسين» أن يُدرك «نوحي» أنه لا طعام فوق الدّس، ولكنه في نهاية الأمر، هبط فوقه من شدة الجوع، أمسك ياسين بالسبوق(5) المربوط بأرجله سريعًا، حتى لا يهرب مرة أخرى، قبل أن يدور بينهما حوار من طرف واحد: "طبعًا إنتَ لو كُنت واكِل كان زماني جايبك من على الحدود.. ده لو جبتك يعني".

تأكد من مسكه جيدًا، قبل أن يتمشى به إلى البيت، واعدًا إياه بوجبة دَسمة من لحم شَرِق تُنسيه ذُعر الساعتين الماضيتين، فنوحي وعلى الرغم من كونه طير جارح يهوى الصيد والوجود في البرية؛ إلا أنه خرج من عشه في أسوان بعد أربعة أيام فقط من الفقس، وما هي إلا سويعات قليلة وكان في أحضان «ياسين»، والذي كان له بمنزلة الأم في العش، لا يمكن التأكيد على استئناسه بالكامل، ولكنه لم يَغد جارحًا بالمعنى الحرفي أيضًا، فهو لا يعلم عن الصيد شيئًا، تأتيه الفريسة حتى وكره، فلا يعبأ بالتخطيط لإسقاطها، ولا الطيران لساعات في سبيل البحث عن وجبة، ولذا فخروج «نوحي» إلى البرية كان أقرب لخروجه ليلقى حتفه بين مخالب جارح آخر أشد فتكًا، جارح تربى وترعرع على الصيد والمشقة لكسب لقمة العيش وقوت اليوم.

وإن صح القول فلم تكن مخاوف «ياسين» بشأن «نوحي» هي

عدم رؤيته مرة أخرى، بل خوفه على ما سوف يواجهه وحيدًا في الخارج، لم يكن ليستطيع النجاة في تلك الساعات.

عاد إلى البيت برفقه طائره العزيز، وقبل أن يصعد، رمقها؛ ليلى، واقفة في شرفتها رغم البرودة القارسة والهواء الجارِف، اتبسمَت حين تلاقَت أعينهما، ورددت بين شفتيها "حمدلله ع السلامة"، ابتسم «ياسين» وبادلها "الله يسلمك"، قبل أن يصعد، حين دَلف إلى الشقة، وجد والده مستلقي على سريره، مُتصنعًا النوم، تأفف ثم دَلَف إلى غرفته، وضع «نوحي» فوق وكره، قبل أن يأتي له بفأر صغير من البلكونة، أعطاه إياه مع التنبيه عليه أنها ليست مكافأة له نظير هروبه واستغلاله لباب البلكونة المفتوح، ولكنها من أجل عدم ابتعاده عن البيت وقت الهروب، لم يكن «نوحي» في أشد حالاته انتباهًا ولكنه كان في أشد حالاته جوعًا، فانشغل عن صديقه في نفس الوقت الذي ترقرق إلى مسامع «ياسين» صوت باب الشقة ينغلق، كانت الساعة متأخرة، وكان يعلم أنه «علي»، ألقى نظرة على أبيه فوجده نائمًا، ناداه مرتين، فلم يجبه، وعلى الرغم من ذلك أخبره في صوت مسموع أنه قد قام بتلقين صبي المحمصة درسًا لن ينساه، هو وصاحب المحمصة، أخبره أن الحاج «سيد جودة»، خط أحمر، لا يجرأ أحد على مضايقته. غادر الغرفة بعدما رَد بابها، ثم مرّ على غرفة أخيه الأكبر، والذي لم يكن في حالة تسمح له أن يستمع إلى كلام يُمليه عليه أخاه الأصغر بشأن ما حدث في خناقة اليوم، فمنذ أن وطأت قدمه الغرفة، حتى رمى أخاه الأكبر بنظره ملؤها الاستحقار والاستصغار، يتبين منها تعجبه من موقف الابن الأكبر الذي ظل واقفًا مكتوف الأيدي في حضرة مشاجرة أحدهم مع أبيه،

نظرة تبعها كلمات بدت قاسية من الأخ الأصغر: "لحد إمتى هتفضل كده؟.. أبوك لما يتخانق مش هيحتاج لحد يوقف له ده أساسي وده طبعه.. بس إنتَ ابنه الكبير اللي المفروض ما يستحملش على أبوه كلمه ما تعجبهوش.. مش يقف يتفرج زيه زي الغريب!".

لم ينبس «ياسين» بكلمة، فأكمل «علي»: "إنتَ كده بتخلي اللي يسوى واللي ما يسواش في المنطقة يقول إن أبوك ملهوش ضهر.. ولو إنتَ ترضاها على نفسك أنا ما أرضهاش.. ولو فضلت بطريقتك العِلقة دي.. هتخلي الواحد ما يحترمكش ولا يقدّرك.. ويقولهالك بالصريحة كده.. شوفلك مكان تاني اقعد فيه بعيد عني أنا وأبوك".

كان وقع تلك على «ياسين» ظاهريًا لا شيء، ولكنه ومن شدة الغضب، ظن أن بداخله بزّادًا يغلي وليس به ماء، سخونة لافِحة تُأجج نارًا تخمش في صدره، ولكنه لم يُعلق، وكان الآخر لا يبحث عن ردة فعل من الأساس، لم يكن منه سوى قام بسحب تِفافة إلى حلقه في صوت ملحوظ، ولم يتففها، ثم غادر. نظرات «ياسين» تؤكد وبقوة، أن تلك المحادثة لم تكُن الأولى، وكأن ما حدث كان مُكررًا.

في صباح اليوم التالي، كان «ياسين» في انتظار صديقه «رامي» ليُكمل حديثه بشأن الموقع، بعدما اضطر إلى المغادرة ليلة أمس بعد الخناقة، وبعد دقائق كان «رامي» في غرفة «ياسين»، حاملًا بحقيبته متوسطة الحجم؛ عدد 2 لاب توب أحدهما له، والآخر لياسين، وذلك لمعرفته المسبقة بُبعد «ياسين» عن التكنولوجيا، فجهاز الكومبيوتر الذي يمتلكه «ياسين» يرجع لزمن سحيق، ولهذا نصحه «رامي» بضرورة تحويله إلى حوض سمك أو قطعة

ديكور في أنسب فرصة، إذا أردت أن تكون كاتبًا بدلًا من أن تعتزل الكتابة نهائيًا، وأخبره أن اللاب توب الذي أحضره له سيُسهل عليه أمور عديدة، مثل إرسال روايته بعد الانتهاء منها مباشرة إلى دار النشر، دون الحاجة إلى كتابة كُل تلك الأوراق، مُعلقًا: "مش من جمال خطك"، فوافق «ياسين» على مضض، قبل أن يُكمل «رامي» شرح الموقع باستفاضة: "الموقع يتنشر على الفيسبوك ويوتيوب.. وإعلاناته تِكثّر عشان الناس تهتم بيه.. ويبقى تصميمه مألوف مش حاجة واو يعني.. عشان الناس تتعوّد عليه بسرعة.. وهيبقى مقسوم لشِقّين.. شِق ليك وشِق للناس.. الجزء بتاعهم عبارة عن أسئلة أنت هتحطها بنفسك وكأن الموقع هو اللي حاططها.. الناس تجاوب على الأسئلة ويكأن الموقع مبني على الذكاء الصناعي وهيحاول يلاقيلهم شخص مُناسب تتوافر فيه الصفات دي.. وهوب.. لما تتوافق الصفات.. الموقع يفتح مابينهم شات.. حكاوي بقى إنتَ تختار وجودها في الأسئلة.. تمام لحد كده؟".

تململ «ياسين» مكانه في الأريكة قبل أن يهز رأسه بالإيجاب، فأكمل «رامي»: "الشِق التاني بقى هو اللعبة كُلها.. إنتَ اللي هتوصلّك كل الطلبات دي.. إنتَ الشخص اللي هيناسِب كُل دول.. وإنتَ برضو اللي هتسمع من اللي تختاره من كل دول".

باغته «ياسين» بسؤال حويط بشأن تجربة صديقين لنفس الموقع، ماذا لو ظهر لهما نفس الشخص الذي يتحدثان إليه؟ فكر الآخر قليلًا، قبل أن يُجيبه: "سهلة.. هنخطك تحت كذا اسم وكذا صورة شخصية.. يعني إنتَ نفس الشخص بس اسمك مرّة أحمد.. مرّة منعم.. وهكذا يعني.. وكده استحالة تطلع لكل الناس نفس الشخص

أبدًا".

حين بدا القلق يعتري ملامح «ياسين»، لاحقه «رامي»: "باشا اطمن أنا هظبطك.. بس أهم حاجة الوقت.. عشان الدار بتاعتك دي متصدعناش.. الموقع مش هياخُد وقت في عمايله.. أنا كُنت شغال على حاجة شبهه لشغل بس ما كمّلش.. فعندي داتا ليه أقدّر أعدلها وتبقى جاهزة على طول.. يعني بنتكلم في ساعات.. إحنا معانا قول داتا لميت ألف عميل.. يعني عشان نصدّرلهم الموقع ونوصله لحد عندهم.. محتاجين بس ندفع حوالي 400 أو 500 دولار".

همّ «ياسين» بالعدول كي يناوله كفًا: "500 دولار إيه يا جربوع.. هجيبهم منين أنا دول.. ما كُنت اشتريت رواية من أي كاتب كحيان مش معروف".

- يا عم حِلمك بس عليّا.. لا إنت هتدفعهم ولا أنا هدفعهم.. فيه اللي بيدفع بالنيابة عننا.

- و ده مين الجنّي؟

- التنين.

- نعم؟.. تنين؟

- التنين ده حوار نحكيه بعدين.. المهم دلوقتي.. نبدأ؟

مط «ياسين» شفتاه بامتعاض، قبل أن يلاحقه بالرد: "ابدأ.. معنديش حل تاني".

ساعات قليلة قضاها «رامي» مُنكبًا على اللاب توب، قبل أن يُصب

«ياسين» الملل سريعًا، فيخرُج إلى البلكونة كي يحظى ببعض البرودة المُحفزة، ولكنه يجد فور دخوله؛ ورقة ملقاه على الأرض، يتعجب قبل أن يقترب منها، يلتقطها ليكتشف أن بها كلمات بخط اليد.. مهلًا، أهذا جواب؟

***

السادس عشر

كان «يوسف» طبيب التشريح على حق حين قال إن الجثث تتحدث، تظهر لمن يقتربون منها، وأنه وبعد الموت ربما تتشكّل الروح في أي هيئة، فقط للظهور وإثبات ما لم يكن من السهل إثباته. هذا ما كان عليه المقدم «خالد الكومي» رئيس المباحث، حينما اقتحمت عليه مكتبه جثة «نريهان»، واقفة في فُستان مُبلل، تنساب منه القطرات فوق السجادة بِكرم. تبدو حول رقبتها علامات خنق يزداد أثرها مع مرور الثواني، كلما أشاح بنظره عنها، عاد ليجدها أبشع مما تركها، تفترش عيناها نظرات امرأة مغدورة، تملؤها الدموع والحسرة. تُغلِق رجليها في انتفاضات واضحة، وكأن شيئًا ما ينغُزها من الأسفل. هَم بالوقوف لأجل أن يقترب منها، ولكنها أشارت له أن اثبت مكانك، هنا عنوانك، "ده الخوف بيخاف منك وضميرك غمره ما خانك"، فجلس يتأملها قليلًا قبل أن يسعى إلى سؤالها عن الجريمة وعن قاتلها، فأبت أن تتحدث من شدة الصدمة، وكأنها استعادت الذِكري مرة أخرى، قبل أن تُشير بسبابتها إلى هاتفها، فتتحول شاشته من الظلام إلى شاشة القفل، وكأن شخص ما قام للتو بلمسها!

حين أدرَك الفعل، أُصيب بصدمة طال أثرها أذنيه، فألّم بهما طنين مُزعج يلتهم الثنايا، قبل أن ينتبه إلى الشخص الماثل أمامه في سكون وتعجب. أصابته الدهشة حين وجد أن الفتاة قد غادرّت مكتبه في لمح البصر دون أن يشعر، وأن الذي يقف أمامه هو «محمود»؛ خطيب المجني عليها. هل أتى كي يجعله مُتيقنًا أنه ليس

قاتلها؟ أم أتى لأسباب أخرى؟

أذِن له بالجلوس، ولكن تفقَّد السجادة من تحته أولًا كي يتأكد من عدم وصول البلل إليها، وانتظر معرفة سبب الزيارة، وما كان من «محمود» إلا أنه استفسر عن ما إذا كان التحقيق مع والد «نريهان» قد أسفر عن شيءٍ ما، وكانت ملامحه تميل إلى الشك والغضب في آن واحد، وحينها جاوبه المقدم «خالد» بأن مَجرى التحقيقات ليس ملعبًا للجميع كي يستفسر بخصوصه، وأنه ليس هنا كي يجد إجابات لأسئلته، بل يتم استدعاءه كي يتم سؤاله، ولكن من باب فتح مجال للطمأنينة بينهم لتسهيل الاعترافات - إذا كان مُذنبًا - أخبره أن التحقيقات مازالت مستمرة، والقاتل لم يَعُد بعيدًا، المسألة أصبحت تميل حد التأكد من بعض الدلائل ورفع بعض البصمات.

- وهل الدلائل دي.. تخُص أبو نريهان؟ (قالها «محمود» مستفسرًا).

تعجب من سؤاله المقدم «خالد» قبل أن يلاحقه: "اشمعنة.. اشمعنة أبو نريهان يعني؟".

- أب زي ده.. ممكن يعمل أي حاجة في سبيل إثباته لنفسه.. إنه مسيطر وعارف كل حاجة عن بنته.. وإنه قُدام الناس عِرِف يربي.

- ...

- راجل زي ده ما ستبعدش يعمل أوسخ من كده.

اقترب منه المُقدم «خالد» وهَمس قائلًا: "هو إنتَ عارف باللي حصل في الجثة ولا.. ما عندكش معلومة؟".

طرح السؤال وفي داخله أمرين.. إما أن ذلك الشاب بالفعل لا يعلم

أي شيء عن الجريمة، وإما أنه يعلم ولكنه يسعى إلى تغيير مَجرى التحقيقات لصالحه.

- إيه اللي يخلي أب يعمل اللي حصل في البنت ده؟ (سأل المُقدم «خالد» باستنكار).

فأجابه «محمود»: "أب قضى أكتر من نُص حياته بين الشُرب والمُخدرات المضروبة.. كان بيشربها في بيته قُصاد عياله.. وبزّه البيت.. يبان الأب المثالي اللي محافظ على عياله.. راجل زي ده.. ممكن جدًا عشان الصورة دي ما تتهزّش وشكله وسط زمايله ما يتغيّرش إنه موظف مُحترم في شركة مُحترمة.. يخاف على نفسه ويخاف على اللي هيطول سُمعته بعد ما يتعرف إنه كان السبب في موت بنته".

- قول اللي تعرفه يا محمود.. من غير لَف.

تنهد «محمود» قليلًا قبل أن يستطرد: "نريهان طول فترة الخطوبة فضلت مخبيّة عليّا حقيقته.. لحد ما زِهقت.. وحكتلي كُل حاجة.. لما عرفت.. وعدتها إني هكون لها الشخص اللي يخلصها من البيت ده.. بس أنا ما طلعتِش قد الوعد".

هَمّ «محمود» بالبكاء ولم يقوَ على إكمال حديثه، حينها تبادر لذهن المُقدم «خالد» سيناريو جديد.. بعدما حدث ما حدث بين القتيلة وخطيبها، وعادت إلى منزلها، وبغض النظر عما دار بينها وبين أبيها آنذاك، غادرَت، ثم تبعها والدها إلى المكان التي قصدته مع صديقتها، وحين عَلِم أنها تتردد على مِثل تلك الأماكن، استشاط غضبًا، وصوّر له عقله، أنه ربما لم تكن تلك هي المرة الأولى لها في

المجيء إلى مكان كهذا، ألّمت به مرارة الحسرة وخَب السيطرة، صَعد للإتيان بها، فتشاجرا، قام بضربها حتى تتأدب، فصرخت به، فلم يجد سبيلًا سوى خنقها، حتى ماتت بين يديه، وهنا.. يأتي الجزء الأصعب في ذلك السيناريو.. الوعي الذي يسترده القاتل تحت تأثير غشاوة الغضب أو الانتقام، حينها يتراءى إليه حجم الكارثة التي للتو قد فعلها، فيرى وبوضوح، حبل المشنقة ينسدل من فوقه، ذراع طبلية عشماوي يتحرك ببطء من جانبه، تلخيصًا.. يرى مصير أسود بانتظاره، وإذا كان أب بتلك المواصفات التي ذكرها خطيب ابنته، فليس من الصعب عليه أن يأتي بزجاجة خمر ويسكبها فوق جسد ابنته ليواري بصماته، وإذا تطلّب الأمر اعتداءً جسديًا ليُبعد كل الشُبهات عنه؛ لفعلها. على الرغم من صعوبة تصديق فكرة اعتداء أب على ابنته بعد خنقها وقتلها دون أدنى رحمة، لمُجرد تصوُّره أنها ستجلب له الخُرسة والعار وتُسيء من شمعته المزيفة أمام الجميع، وتجعله عُرضة لخسارة وظيفته وتدمير حياته.

سيناريو مُرجح تشوبه بعد الثغرات، ولكنه مُحبوك إلى حدٍ كبير، ربما للأب ضلوع في مقتل ابنته.

بعدما غادر «محمود» سرايا النيابة، وأدلى بكامل اعترافاته لرئيس المباحث، توجه الأخير إلى مُقدمة مكتبه ليقف تمامًا في موضع الجثة التي زارته منذ قليل، لعلّه يرى شيئًا من منظورها يساعده في حل تلك القضية، ولم تمُر سوى دقائق حتى لاحظ هاتفها، يُنير مجددًا دون أن تلمسه يد أو تأتيه أيةُ إشعارات، تيبّس في مكانه قليلًا قبل أن يتوجه ببطء شديد نحو الهاتف، التقطه وأخذ يُقلب فيه كثيرًا، ليتوقف في النهاية على خانة سجل المكالمات الفائتة،

فيجد مكالمة مؤرخة بتاريخ يوم الجريمة، وفي ساعة مُتأخرة من اليوم، مُظللة بالأحمر كناية عن عدم رد القتيلة عليها، وكان تلك المكالمة - طبقًا لما ورد في تقرير الطب الشرعي - تسبق ساعة الوفاة بحوالي ساعة إلا بضع دقائق، ولم ينوه عنها خبير الهواتف نظرًا لاحتمالية حدوثها في أي وقت قبل الجريمة، ولكن بعد السيناريو الأخير، اختلف الأمر.. فتلك المكالمة كانت من والد «نريهان».

من المُحتمل أن مجرى القضية على وشك التغيير، من جريمة دافعها الغدر، الحب والغيرة، لأخرى دافعها الأساسي الخوف، الحفاظ على الشرف، والهروب من الفضيحة. التنكيل بجسد فتاة في غمر «نريهان» من شاب سكران، أو مُختل؛ أمرٌ مألوف، ولكن التنكيل بها من قِبل أب خشيّ أن ينفضح أمر قتله لابنته بدافع الحفاظ على الشرف، هذا ما لم يكن يتخيله «خالد الكومي»، ولهذا السبب، قام باستدعاء الأب بمفرده دون زوجته. ذلك قبل أن يأتيه تكملة لتقرير الطب الشرعي، أفاد بأن رَحِم المَجني عليها ومهبلها لم يحتويا على أي بقايا لحيوانات منوية تخص القاتل، رغم استحالة ذلك في الحالات المُشابهة، وهذا إن دلّ على شيء فيدُل بالقطع، أن القاتل لم يستغرق وقتًا طويلًا في اعتداءه عليها، وإنما فقط أراد إثبات الاعتداء عليها ثم تركها تنزف إثر غنفه في أثناء الولوج. وذلك جعل لفظ الاعتداء أو الاغتصاب بعد الوفاة غير مناسبًا، بل سيتم تصنيفه طبقًا للقانون على أنها واقعة هتك عرض بعد الوفاة، والغرض منها قد يحمل الكثير من المعاني، ربما انتقام، وربما إبعاد أصابع الاتهام. إذا فهو لم يكُن مهووسًا بها فاعتدى عليها إشباعًا لرغبته فيها، وإنما أضاف تلك التفصيلة عن قصد، من أجل التحقيقات، من أجل

الإفلات وإبعاد الشبهات. ومن ذا الذي ينوي إبعاد شبهة القتل سوى شخص يعلم تمام العلم أن فرصة الشك به ستكون عالية للغاية، فأراد أن يُبعدها قدر الإمكان! ومع الأخذ في الاعتبار صدمة ما بعد القتل، وعدم الوعي في استيعاب الموقف الراهن أمام جسد القتيلة؛ لم يجد سوى إفقادها عُذريتها بعد خنقها حتى تأخذ التحقيقات زاوية أخرى.. زاوية تنفي ضلوع أب في مقتل ابنته.

***

السابع عشر

داخل محل لبيع البِدل الرجالي، وقف الريس «جودة» ينتظر إحضار بدلته حتى يقوم بارتدائها بعد القص والتعديل، وبعد دقائق أتى له أحد العاملين، حاملًا البدلة، قاسها الريس «جودة» وتأكد سريعًا من ملاءمتها لجسده النحيل، قبل أن يضعها داخل كيس بدلة متواضع ويُغادر. بعد قليل دلف إلى بيته حاملًا البدلة فوق ساعده، ليجد فور دخوله من الباب، أن «ياسين» يقوم بتدريب بومته في الصالة على شيء يُسمى الدّعو، يقف بعيدًا عنها بأمتار مُمسكًا بقفازه قطعة لحم سمّان صغيرة، يُلوّح بها حتى تنتبه إليه، وحينما دلف الريس «جودة» من الباب كانت البومة تُحلّق بالقرب منه، اغتاظ كثيرًا وعنّف «ياسين»، مُحذرًا إياه أن البوم يخطف العيون، عليه أن يكون حذرًا، فحاول ياسين أن يُقنعه أن تلك شائعات ليس لها أساس من الصحة، واقنعه أن يحملها ولو لمرّة، علّه يطمئن، وبالفعل حين حملها الريس «جودة» على ذراعه، وكاد أن يبتسم لها، قامت البومة بالتغوط فوق كيس البدلة، نّطرها بعيدًا فطارت حتى وَكرها، ثم أخذ يمسح ما فعلته من فوق الكيس في غضب عارِم، مُزامنة مع توبيخه لياسين إثر فعلته، «ياسين» الذي لم يستطع كتم ضحكاته جرّاد ما فعلته بومته. دخل الريس «جودة» إلى غرفته، وضع البدلة بكيسها المُتسخ إلى داخل الدولاب، ووقف أمامها قرابة الدقيقتين؛ يتخيّل نفسه داخلها، يمُد يده بين الحين والآخر وكأنه يُسلّم على الحاضرين ويشكُرهم على مجيئهم، وقبل أن يُنزل يده، يتبادر إلى ذهنه مرور عامين من الآن، ووضع الأسرة بعد خروج زوجته على المعاش أيضًا، ستضيق الحياة بلا شك، ومع غلاء الأسعار المُستمر، إن لم يكن لأحد

أبنائه نصيب في إيجاد وظيفة ذات عائد مُناسب، فلن يقدر وزوجته على سد خانات المصروفات لا محالة.

أخفض ذراعه ببطء، قبل أن يغلق ضلفة الدولاب ويُغيّر ملابسه ويخرج من الغرفة، جلس مع أم ياسين بضع ساعات، قبل أن يتركها ليقوم بمراجعة بعض الأوراق الخاصة بالعمل، وبعدها طلب منها أن تُجهز له طقم مُهندم ليحضر به حفلة معاش زميله «عبد العزيز»، مع الأخذ في الاعتبار تحضير ظرف صغير به حلاوة المعاش، وتقييد المبلغ في دفتر العِدِيّات كي يعلم كم أعطاه ويقوم برده في حفل معاشه بعد أسابيع، تلك كانت عادات وتقاليد لا حرج فيها.

في اليوم التالي وفي أثناء انهماك الريس «جودة» في عَمله، استعجله «عبد المجيد» بحنق، مُنبهًا إياه على ضرورة الحضور إلى مكتب الريس «عبد العزيز» للاحتفال بخروجه على المعاش وتوديعه، مُعلقًا أن أولاده ينتظرون قدومه بفارغ الصبر. نهض الريس «جودة» وذهب إليهم ليجد استقبال حافل من «عبد العزيز» وأولاده، وقف أمامهم حين هم «عبد العزيز» بالحديث: "لولا الراجل ده يا مُحسن يا بني.. كان زمان أبوك في السجن دلوقتي".

ابتسم الريس «جودة» وربت على كتفه، قبل أن يُكمل: "لَحقني قبل ما أمضي على محضّر يخليني أعامل 149 عربية مترو؛ مُعاملة عربية واحدة.. في الحيز بتاعها في المركب.. ولولاه بعد ربنا.. كان زماني ماضي".

- إنتَ لسّة فاكر يا عبعزيز. (قالها الريس «جودة»).

- ومين ينسى يا جودة يا خويا.. أنا لقيت عمك جودة يا مُحسن

داخل على الراجل.. وقام ساحب المحضر من إيده وقاله.. خلي اللي راسملك يكمل رسم.. الراجل ده مش هيمضي... أنا وقتها زي اللي نزلي طوق نجاة من السما.. ما كونتش عارف ساعتها أردله المعروف ده إزاي.. ولحد دلوقتي ما عرفتش أرده.

- معروف إيه يا راجل يا طيب.. ده إنتَ عشان قلبك أبيض بس.

- اسمع يا مُحسن يابني.. لو ما ليش غُمر.. الراجل ده هو اللي تقدوا تآمنوه على كل حاجة في حياتكم.

بعد ساعة ونصف من بدأ الحفل.. وفي أثناء الحديث المُتبادل بين الحاضرين وبعضهم، شعر الريس «جودة» بإرهاق غريب، تبعه ثِقل واضح في لسانه، اتسع بؤبؤ عيناه بشكل ملحوظ، وحاول التحدث بشكل طبيعي، ولكنه لم يقوَ على ذلك، وقَع على الأرض بعدما اختل توازنه. التّم حوله الجميع وقاموا بإسعافه لرغبته في عدم الذهاب إلى المستشفى، استراح على كنبة وقام بمد قدميه مع رفعهما قليلًا إلى الأعلى، وبعد ربع ساعة، نهض وتمشّى بضع خطواتٍ ليطمئن نفسه والحاضرين، الذين أصروا عليه بضرورة الذهاب إلى البيت كي يستريح، ولكنه أبى أن يُغادر المحطة دون أن يُكمل عمله، مؤكدًا على ألا يقوم به أحد نيابة عنه.

كان الريس «جودة» مُكابرًا بشدة حتى في عز مَرضه، وكان لا بد أن يُغادر، ولكنه عَلِم أن عليه البقاء لبعض الوقت، حتى ينتهي من استلام تلك الشحنة ولا يُضطر إلى المجيء باكرًا في الغد، ولهذا مكث قليلًا قبل أن يتركهم يختتمون الحفل، وغادر إلى أحد مخازن ميناء الوارد، كان في انتظاره شُحنة مكونة من تسعة عشر صندوقًا

كبيرًا، تحوي قطع غيار خاصة بالورشة ومُعدات ثقيلة تخص المحطة، فما كان منه سوى التأكد من عددهم وحرص على رصّهم جيدًا دون إحداث خسائر، وقّع بالاستلام، وبقيّ حتى غادر الجميع ليقوم بعمل جرد لمحتويات الصناديق تباعًا، ولكنه شعر بدوَار شديد ألّم به بغتة، فخشي أن يقع ولا يجد من يُسانده، فقرر الذهاب في الحال على أي يأتي في غدًا ليجرّد الشحنة.

حين غادر الريس «جودة» حفل المعاش، لم يكن يغادر بمفرده، فبعدما خرج بدقائق قليلة، قام «عبد اللطيف الزنخ» وتبعه، شَهِد على وصول الصناديق بالكامل، ودخولها إلى المخزن، وحين فرغ الريس «جودة» من استلام الشحنة، كان «الزنّخ» يقف في زاوية مُظلمة يراقب ما سيحدث في ترقب مُقلّق، حتى غادر الريس «جودة» المخزن. ابتسم «الزنّخ» ابتسامة انتصار، فرحًا بنجاح خطته في وضع كوب مياه فاسدة تحت أيدي الريس «جودة»، على الرغم من النيّة كانت لجعله يُغادر المحطة قبل وصول الصناديق، ولكن مُكابرة الريس «جودة» في إتمام استلام الشحنة قبل المُغادرة، ونظرًا لتعبه، جعلوه غير قادرًا على جرد محتوى الصناديق، وجاء هذا الأمر في مصلحة تلك الصفقة التي أبرمها ليلة أمس، دون أدنى إضافة أو تجويد، تمامًا كما اتفق معه أحد رجال «أمجد زهران»..

***

الثامن عشر

"حمدلله على سلامته أو سلامتها.. أنا غصب عني شوفت اللي حصل من شوية.. وغصب عني سمعت شوية من الزعيق بينك وبين عمو.. على فكرة عمو في سن بابا تقريبًا.. بيحتاج مُعاملة مُختلفة شوية.. ربنا يخليكم لبعض".

(ليلى)

ابتسم «ياسين»، طبّق الورقة ثم وضعها في جيبه، وعاد إلى الداخل ليلقي نظرة على صديقه المُنهمك في عمل أشياء - وصفها بالتعاويذ - على اللابتوب بشأن الموقع، فجلس بجواره بعدما أحضر كوبين من الشاي المُنعنع، ثم بادره بسؤال عن ذلك التّنين الذي ذكره سابقًا، فأخبره «رامي» أن ذلك التّنين هو عبارة عن موقع مفتوح، يتم عليه وبشكل دوري، رفع عدد مهول من أرقام البطاقات الائتمانية المسروقة، بمُعدل يكاد يقترب من بطاقة كل 4 ثوانٍ، وليس فقط أرقام البطاقات، بل جميع بيانات حاملها؛ اسمه، عنوانه، وثلاثة أرقام سحرية في خلف كُل بطاقة، قادرة على إتمام أي عملية شراء أونلاين في الحال، مع الأخذ في الاعتبار سرعة نسخ ولصق بيانات البطاقة المنشودة فور رفعها على التّنين، حتى لا تتسنى الفرصة لأحد أن يستخدمها قبلك، وبالتالي تفريغها من الأموال سريعًا، فعليك قبل الدخول إلى التّنين أن تكون جاهزًا بالموقع الذي ستُدخل إليه بيانات البطاقة، حتى تتم العملية بسلاسة، وحينها يأتي دور الحظ، إما أن تتم عملية السحب، وإما أن يسبقك أحدهم ويفرغ البطاقة، وإما أن تكون البطاقة في الأساس لا تحتوي على المبلغ

المطلوب، وهنا عليك اختيار بطاقة أخرى.

تعجّب «ياسين» من أمر الثّنين قليلًا، قبل أن يستفسر منه عن مدى خطورة ذلك الأمر، فطمأنه بأن الموقع يستقبل يوميًا فوق الأربعين ألف بطاقة، ويزوره ما يزيد عن ربع مليون مستخدم، مما يعني بيانات يصعب حصرها، بحور لن يبحث فيها أحد عن مُستخدم لبطاقة مسروقة وسط آلاف البطاقات والمستخدمين، من سيراقب فلان وهو يسحب دولارات بسيطة من بطاقة أحدهم في دولة من دول الاتحاد الأوروبي؟؛ بالطبع لا أحد.

- يابن الأرانب.. بتعرف الحاجات دي منين؟

- بحُكم الشغل يا ياسين يا خويا.. لازم تبقى عارف سكك كتير عشان ما تعطلش.. وبعدين سيبك.. ممكن تربطلنا البومة دي عشان أنا شِبه خلصت وعايز بقى أشرحلك هتعمل إيه.. ف أربطها عشان أنا مش مطمنلها.

- ياض دكر.. دكر.

- يا عم اربطه يعني أنت حد هيراجع وراك دكر ولا نتاية.. اربطه.

قام «ياسين» بربط السبوق في حلقة معدنية متصلة بالوَكر، قبل أن يعود إلى «رامي» الذي أحضر اللابتوب الآخر، ثم واصل الحديث عن الموقع:

- ركّز.. اللابتوب ده اللي هسيبهولك تتابع من عليه.. كده كده مش شغال بيه..هفتحلك صفحة الداش بورد.. من خلالها هتتعّامل في كل حاجة.. هتلاقيني مقسّملك الصفحة عدة أقسام.. القسم الأول

استلام الطلبات وعددها.. القسم التاني فيه تصنيف كل طلب.. وليكن مثلًا متقسمين على حسب الجنس ذكر ولا اثنى.. كمان شوية تفاصيل عنه.. يعني سنه، وظيفته لو بيشتغل.. مهاراته، كل حاجة.. القسم التالت.. هيظهرلك فيه أوتوماتيك الاسم اللي إنتَ ظاهر بيه للشخص ده.. يعني جالك طلب من واحدة اسمها حنان مثلًا.. هتلاقي في القسم ده اسمك اللي ظاهر لحنان.. وكمان بعض التفاصيل اللي في شخصية الاسم ده.. تقمصها إنتَ بقى يا عم الكاتب في المُقابلة.. وبراحتك هنخلي وسيلة الاتصال متنوعة.. مكالمات.. شات.. مُقابلة.. كل واحد وراحته.. فيه ناس معندهاش الجرأة بتاعت المُقابلة أو المُكالمة.. فتعيش في الشات.

- طب أنا مش عايز صوتي يبان!

- مممم سهلة دي.. نخلي صوتك يوصل متغير.. مش أزمة يعني.. وبعدين بيبان حقيقي جدًا كمان بالـAi.

- الله عليك.. فنان.

- أومال إنتَ فاكرني إيه.

جلس «رامي» مع «ياسين» قليلًا وقام بعمل بعض الأشياء التي يجهلها الأخير بكل تأكيد، ثم يُخبره أن الموقع أصبح جاهزًا، ينقصه بعض التصميمات والشعارات التي سيقوم بإضافتها حين يعود إلي بيته، فلاحقه «ياسين» مؤكدًا عليه أن: "انجزز ما عنديش وقت أضيعه.. إلا نفُكنا من الحوار ده كله".

فأجابه «رامي» بأن: "لا تقلق.. النهاردة بليل بالكتير هيكون

اشتغل.. خليك انت بس ذكي ولمّاح عشان تعرف تاخد اللي إنتَ عايزه من الناس".

خرج «رامي» من الغرفة وقام «ياسين» بتوصيله إلى خارج الشقة، ثم عاد فتأمل البيت من حوله.. خرابة، مزبَلة، مَرتَع لبقايا الأكل والشرب. حاول أن يتذكر متى كانت المرة الأخيرة التي رأى فيها بيتهم نظيف، متى كانت راحته طيبة ومُفعمة بالدفء غير خانقة كما هي الآن، متى كانت المواعين مكانها المطبخ ليس الصالة وأرضية الشرفة والحوائط، متى كان للبيت روح، ومتى اختفت وذهبت بلا رجعة، فهي لم تدخل تلك الشقة مطلقًا، لم تطأها من الأساس، أتو ثلاثتهم من دونها، وذلك مذ حادثة الشقة القديمة.

***

التاسع عشر

التحقيق في جرائم القتل التي لا يتضح فيها الجاني منذ الليلة الأولى؛ تكون هي الأصعب، تَتفتّح أوراقها كالوردة السوداء في ظلام الليل، تُخبئ أسرارًا مُظلمة، تُشكل لُغزًا مُحيرًا يحاول المحقق حله بين الشك والأمل، ومع كل خطوة يخطوها، تتجلى فيها أركان الجريمة بكل تفاصيلها الغامضة، وإما أن تتركه في دوّامة الشك والتساؤلات المستمرة، أو يتراءى له أن الحل كان أمامه منذ اللحظة الأولى، منذ بداية الطريق، ولكنه لم يُكن مُتوقعًا. «خالد الكومي» لم يكن سوى رئيس مباحث يحتاج وبقوة إلى إثبات مهاراته في حل القضايا المُستعصية قبل القضايا السّهلة، وهذا ما جعله على أتم الاستعداد أن يتحدى المنطق والظروف لفك لغز مقتل تلك الشابة؛ «نريهان». فتلك قضية يتخللها أصداء الشك والريبة، ملف جريمي مُحاط بألغاز لا تنتهي، شكوك تعصف بالعقول، حقيقة مدفونة بعناية أسفل شجرة جمّيز عطنة يصعب الحفر في مُحيطها.

كان شعوره في ذلك الوقت حين اطلع على تقارير الطب الشرعي وصور الجثة للمرة الثالثة تقريبًا، مسرح الجريمة، زجاجة الخمر المستخدمة في إخفاء بصمات القاتل، كل تلك الأدلة وكل تلك العلامات، لم تكن كافية لتحديد هوية الجاني، ولذا لزم إعادة التحقيق مع والدها.

بعد ساعات كان بالفعل جالسًا أمامه، كانت حالته يُرثى لها، ملابس غير مُهندمة، نصف قميصه داخل البنطلون، والنصف الآخر خارجه. استهل المقدم «خالد» حديثه بالسؤال عن علاقته بابنته، وعن

موقفه من خطبتها بالمدعو «محمود»، فأجابه أن علاقته بابنته كانت علاقة عادية؛ كويّسة، مثل أي أب وابنته، محمود تقدّم لخطبتها منذ سنتين، كان لايزال طالبًا في كلية التجارة، والتحق بوظيفته في تلك الشركة بعد الخطوبة ببضعة أشهر، لم ير منه سوى كل خير، ولكن في الفترة الأخيرة كان يأتي كثيرًا ليصالح ابنته، كان يضايقها كثيرًا.

- وإنتَ.. ما كونتش بتضايقها؟.. ما كونتش بتزعلها؟

باغته المقدم «خالد» بهذا السؤال، ثم طالت من بعده لحظات الصمت، حتى انتفض الأب بشكواه: "رقدة بنتي في المشرحة مش عجباني.. أنا بنتي ما تتحطش في تلاجة".

- التحقيقات بتقول.. إن كان فيه مشاكل دايمة بينك وبين بنتك.. وسببها.. الشُرب؟

نشع العرق على جبين الأب قبل أن يضع كفًا مُرتعشًا فوق المكتب، حاول من خلاله حفظ توازنه فوق الكرسي، قبل أن يُتمتم بعبارات مفادها أنه أقلع عن شرب الخمر منذ زمن.. وأنها كانت فترة وولّت.

- يعني لو اتحللك دلوقتي.. هتطلع مبطل؟

ساد الصمت، وتخاصمت الأعين، حتى أردف «خالد»: "في العادي أنا ما ليش أحكم عليك بتشرّب ولا لا.. لكن في قضية بنتك دي.. الصوابع كلها بتشاور على الخمرة.. لها دور كبير في الجريمة.. وصدقني أنا كمان عايز بنتك تخرج من المشرحة وتدفن.. بس يؤسفني أقولك إنه ده مش هيحصل قبل ما القضية والتحقيقات يخلصوا ويتقفلوا.. فساعدني.. عشان نعرف نساعدها".

أومأ الآخر برأسه إيجابًا.. قبل أن يستقبل السؤال الأول:

- إنتَ اتصلت بنريهان يوم الحادثة؟ قبلها بحوالي ساعة.. ليه؟

- اتصلت بيها عادي.. كنت بطمن عليها.

- بتطمن عليها من إيه؟.. كان ما لها يوم الحادثة؟ زعلتها.. حد زعلها؟

- أ أ أ أكيد المحروس خطيبها.

اسند المقدم «خالد» ظهره إلى الوراء قبل أن يلاحقه: "مش هرجعلك كلمة.. هي كانت فعلًا زعلانة مع محمود يومها.. بس محمود حاول يتصل بيها كتيير وما أعرفش.. لكن إنتَ.. اتصلت مرة واحدة.. وشكرًا!".

- ...

- لمّا نريهان روحت.. اتكلمت معاها إزاي؟ عرفت اللي حصل بينها وبين محمود؟

- ...

- طيب.. إنتَ ما سألتهاش.. أو سألت غلط.. فكمّلت عليها.. هل هي رَدّت عليك؟

- ...

- الكلام هيفضل رايح بس؟.. مش عايز ترد؟.. طيب.. هي ما ردتش عليك.. وممكن تكون كانت ساكته زيك كده دلوقتي.. بس الأكيد إنها فضلت زعلانة.. وعشان كده ما صدّقت تنزل مع صاحبتها.. السؤال

الأهم هنا.. إنتَ نزلت وراها.. ليه؟

تعمّد تأخير كلمة «ليه» قليلًا ، كي يدفعه إلى الدفاع عن نفسه ضد اتهامه بالخروج وراءها.

- أنا نزلت وراها.. لكن.. ما مشيتش وراها هي وصاحبتها.. أنا نزلت وراها لما دَبيت خناقة مع أمها.. كانت بتقول كلام بتقوله للمرة المليون وأنا ما كونتش مستحمل.

- كلام من نوعية إيه؟

- من نوعية كلامها اللي ما بيخلصش عني وعن كُل حاجة.. غيّر كلامك.. غيّر طريقتك.. غيّر طريقة لِبسك.. بقيت.. بقيت لازم أغيّر كل حاجة فيّا فجأة!.. ولو ما غيرتش أتكِرِه!.. تفتح بوقك تتغلّط.. تقفله تتغلّط.. تقول رأيك.. ولا كأنك قولت حاجة.. ما بقتش عارف إيه اللي المفروض أعمله عشان أتعامل بس كأب وبيخاف على بنته.. وأنا عارف إنه دي غلطتي.. أبويا الله يرحمه كان له نظره.. ما صدقتهوش زمان لما قالهالي.. كابِرت.. قولتله مش عشان أهل مراتي مبسوطين شوية عننا ده هيعمل مشاكل بناتنا.. بس بس زي ما تقول كده سعادتك.. اللي أهالينا بيشوفوه حتى لو هو مستحيل يحصل.. تحس ربنا بيطلّع كلامهم صح برضك.. عشان تتعلم إنه اللي أكبر منك هايشوف اللي انت مش شايفه.

صمت قليلًا، واغرورقت عيناه بالدموع.. قبل أن يسأله «خالد»: "بقالك قد إيه بتشرّب؟".

- سنين.. بشرب بقالي سنين.

- أهل بيتك يعرفوا طبعًا مش كده؟

أومأ برأسه دون أن يُجيب، قبل أن يسحب المُقدم «خالد» صورة من بين الملفات، صورة لزجاجة الخمر المعثور عليها داخل مسرح الجريمة، وتعمّد أن يُباغته بها مع التركيز على ملامح وجهه ليتأكد ما إن كان سيتعرف عليها سريعًا أم لا: "شربت النوع ده قبل كده؟".

ابتسم الآخر في سخرية..

- مش للدرجة دي يا بيه.. أنا على قدي.. الحاجات دي مش بتاعتنا.. دي بيجيبها شباب اليومين دول بمصروفهم.. أنا يوم ما أتمعظَم أجيب 365 روزيه.. أبيض.. آي دي جن.. لكن المُعتاد.. سقارة كينج.. ستيلا أبقى مش عايز يبان عليا.. لكن الحاجات العليوي دي.. ما جربتش ومش هعرف أجرّب.. إزازة زي دي تمنها ما يقدرش عليه اللي زي حالاتي.

تنهّد المقدم «خالد» قبل أن يسأله: "بنتك إيه موقفها من الشُرب؟".

ترقرقت عيناه، وهمّ بالنحيب..

- كانت بتخاف تتكلم معايا.. كنت عارف إنها عارفه.. من كلام أمها طبعًا.. بس كانت بتخاف تكلمني.

- بتخاف منك لا تطلع فيها زي أمها.. ولا بتخاف ليه؟

فكر قليلًا قبل أن يُجيب:

- بتخاف من عصبيتي الزايدة يمكن.. أنا عارف إنها زايدة.. بس مش بإيدي.. أوقات عقلي ما بيفهمش غير بالطريقة دي.. ما

بيرتاحش غير لمّا ازعق وأعلي صوتي على اللي قدامي.. وبهدى بعد كده مع نفسي.

- بتهدى مع نفسك.. طيب.. أنا المفروض ما قولكش ده.. بس تقرير الصفة التشريحية بتاع بنتك مش سهل.. وبيدّل إنه فيه جريمة وكبيرة.. فلو تعرّف أي حاجة أو مخبي أي حاجة.. أحسن لك وأحسن لها.. تقول.. ده لو عايز حقها يرجع.

- أنا يا بيه كل اللي أنا عايزه إن بنتي تندفن الأول.. وبعدها نرجّع حقها.. لكن أنا.. أنا ما بنامش وبنتي لا هي في بيتها.. ولا في تُربتها.

واجهشَ بالبكاء..

- التحقيقات شغالة.. بس أُحيطك علم إنه ممكن بنتك تدفن من النهاردة.. لكن لو القضية طولت وتطلّب الأمر بعد كده.. ممكن جدًا يتأمر من النيابة العامة استخراج الجثة.. وطب شرعي وقصة.. وفي الأيام البرد اللي إحنا فيها دي.. حتى لو فات عشرة خمستاشر يوم وتطلب الأمر.. برضو هيخرّجوا الجثة.. يبقى ليه بقى؟.. ليه مرمطة بنتك دي؟

صمت الآخر مُجددًا وهو يحاول استيعاب ما قيل له للتو، قبل أن يأذن له رئيس المباحث بالمُغادرة، حين أدرك أن ليس لديه شيء جديد ليُضيفه.

بعدما غادر والد «نريهان»، استشفّ المُقدم «خالد» أن ذلك الرجل، وعلى الرغم من كُل تلك المشاكل التي رواها، إلا أنه مُعترف وبكل صدق بتلك المشاكل، ولكنه لا يزال يرمي الأسباب على غيره، وهذا

كفيل أن يجعله حبيس دائرة المُتهمين لفترة إضافية. بعد دقائق، رَن هاتف المُقدم «خالد»، كان ذلك طبيب التشريح؛ «يوسف قابيل»، يتصل ليُخبره بتفصيلة قد يتغيّر إثرها مجرى التحقيقات بالكامل.

***

العشرون

قيل: هرب عنترة من ثور فشئل: أين شجاعتك، أتخاف من ثور وأنت عنترة؟

قال: وما يُدري الثور أني عنترة؟!

- عنترة بن شداد

كان يتعين على الريس «جودة» أن يُغادر تلك الليلة بعدما أصابه التعب والإرهاق، لم يكن من الصواب ما فعله، المُكابرة والعِناد ليسا سوى نقاط ضعف لألد الأعداء، كان لابد أن يعلم متى يجب عليه تجنُب العِناد في اللحظات التي لا يمتلك فيها السيطرة على نفسه، نوبات التعب والضعف التي كانت تصيبه من وقت لآخر، كان دومًا ما يتجنبها، يُقنع نفسه ومن حوله أنه على ما يُرام، يذهب إلى العمل يوميًا حتى في أشد لحظات ضعفه وسوء أحوال صحته، ومع الوقت، اعتاد الجميع على ذلك، ولكن تلك النوبة، جرّت في نهايتها ذيول هزيمة كُبرى.

في صباح اليوم التالي، وجد الريس «جودة» نفسه مطلوبًا في مبنى الإدارة، وحين دلف إلى الإدارة، عَلِم أنه مطلوب بالاسم في الشئون القانونية بالقاهرة صباح الأحد القادم، وذلك للتحقيق معه بخصوص ملابسات شحنة وارد الجُمرك الأخير الذي قام باستلامها بنفسه ليلة أمس. أثار الأمر دهشته، وظن أنه بالأمر سوء تفاهم وهذا مُتوقّع، تلك لم تكن الزيارة الأولى للشئون القانونية. وفي صباح الأحد، وحين وصل الريس «جودة»، وجد ثمة شيئًا مريبًا في الأمر،

بداية من مدة انتظاره بالخارج التي تخطّت الثلاث ساعات، والتي على آثرها قام بالتشاجر مع سكرتير رئيس الشئون القانونية، ظنًا منه أنه أتي ليُصلح سوء التفاهُم الذي حدث، ولولا روتين الإجراءات لَما أتى. لكنه حين دلف أخيرًا إلى المكتب، وجد نفسه أمام ثلاثة أشخاص؛ مفتش مباحث، مُفتش حسابات، مُفتش الجرد، وكان ذلك الأخير يعمل في ذات المحطة مع الريس «جودة»، ولكن لا يوجد بينهما أي نوع من التواصل، درءًا للشُبهات. كان ثلاثتهم مُتحدين أمامه، والتُهمة.. تغيير مَشمول، فتلك الصناديق التي مضي باستلامها كونها تحوي قطع غيّار ومُعدات ثقيلة بلغت تكلفتها على الهيئة مبلغ ثلاثمائة وأربع وعشرين ألف دولار (الدولار يُساوي جُنيهين مَصريين)؛ كانت في الأساس تحوي أطقم عشاء صيني وبعض الحلل الاستانليس، وبالطبع مَشمول تلك الصناديق أقل من تلك التكلفة المدفوعة بكثير، وذلك التوقيع المُذيل لبوليصة الاستلام والفحص؛ هو توقيع الريس «جودة».

أُصيب الريس «جودة» ولأول مرة بضربة قوية في شمعته، لم يكن ليتوقع مثل ذلك المَغرَز، ولم يكن يتوقع أن يقع فيه بعد تاريخه المشرف بالسكة الحديد. غادر بعدما أخبروه بميعاد آخر للمثول أمام اللجنة، للبت في أمره، خرج وهو يترنّح من أثر الصدمة، تتخبط قدماه في بعضهما البعض، صامت كمن أكل الغراب لسانه، عاد إلى الإسكندرية في ثلاث سنوات، وكأنه عاد ماشيًا لا راكبًا، نزل في محطة سيدي جابر، وتمشّى إلى البيت، دلف إلى غرفته دون أن يتحدث إلى أحد، ولم ينهض، حتى في ميعاد ذهابه إلى العمل، لم ينهض أيضًا، فلقد تم منعه من ممارسه عمله طوال فترة التحقيق.

وبعد ساعات أتت أم «ياسين» لتوقظه من أجل تناول الإفطار معها ومع أولاده للمرة الأولى منذ سنوات، فلم يُجبها، بعد عدة ثوانٍ، نهض مُتحاملًا على نفسه بِثقل، ومع رغبته في التحدث وجد نفسه غير قادرًا على النطق أو مُسايرة الحديث، بصعوبة بالغة قاوم شعوره بالتعب، ولكنه وللمرة الثانية تخذله قدماه، ليقع من فوق السرير مغشيًا عليه.

بعدما رآه طبيب الوحدة الصحية التي أصر على الذهاب إليها الريس «جودة» حتى تتسنى له الفرصة أن يستغل خصم التأمين الصحي الخاص به، ورغم ذلك تم تحويله إلى مستشفى حكومية للضرورة، وذلك نظرًا لإصابته بجلطة، كان إذا أراد قول «يا ياسين» كلفه الأمر عدة دقائق حتى يستطيع التلفظ بها، ولهذا تم عمل قسطرة قلب، للتخلص من تلك الجلطة، وبعد أربعٍ وعشرين ساعة خرج الريس «جودة» من المشفى، ورقد في البيت لعدة أيام، دون إخبار حتى زوجته بما حدث معه في العمل، وحتى حين زاره «عبد المجيد» ليطمئن على حالته، لم يستطع أن يُخبره بما حدث في التحقيق، واكتفى بإخباره أن بالأمر سوء فهم وسيتم تسويته إن شاء المولى عز وجل، ورغم ذلك لم يُصدقه «عبد المجيد». بعد أسبوع، جاءه اتصال من «عبد اللطيف الزنخ» ولأول مرة يتلّهف الريس «جودة» للرد على مكالماته، وهذا فقط ليعلم آخر المُستجدات، الذي بالطبع سيسعى لمعرفتها «الزنخ»، ولكنه لم يكن يعلم أن تلك المكالمة ستكون بمثابة فش غُل وشماته فيما تم تداوله بشأن الريس «جودة»، فلقد أخبره أن ثمة أخبار أتت من القاهرة، تتناولها كُل الألسنة، وأن الشئون القانونية قامت بأخذ إجراء شديد

الصرامة تجاه مشكلته، وكان مفاد ما قاله «الزنخ»: "ولاد الكلب قرروا يطلعوا الموضوع ع الشاشة.. جايين على حتة أمين مخازن لا له في الطور ولا في الطحين!.. قلبي عندك يابو ياسين.. ما حدش مصدق الكلام اللي بيقولوه عليك.. والكل عارف إنك ما تعملهاش.. بس دول ولاد ستين هِرمة.. ما بيصدقوا يشيلوا مصايبهم لحد علشان ما يوّقعوش بعضهم ولا اللي منهم.. ومعلش ياعم جودة.. والله الكّل كان مضايق وإحنا بنحضرلك حفلة خروجك على المعاش عشان هتفارقنا.. بس دلوقتي مُضطرين نفارقك بدري حتى عن ميعادك.. لا حول ولا قوة إلا بالله.. يِرضي مين ده ياعاااالم".

حينها تمنى الريس «جودة» ألا تُصيبه جلطة أخرى، ولكن إذا تطلّب الأمر، فالراحة الأبدية ستفي بالغرض، عوضًا عن مشاهدة حياته المهنية تنتهي بذلك السيناريو المُخزي.

استمرت التحقيقات قرابة الشهرين، لم تطأ فيهما قدم الريس «جودة» مكتبه بالمحطة، وذلك نظرًا لتفاقُم الأمر وخروجه سريعًا من بين يديه، فأغلب الظن لدى لجنة التحقيق أن ذلك الرجل أراد أن يظفر بصفقة غير شرعية قبل خروجه على المعاش، ولهذا فعل ما فعله، وعلى الرغم من كل ذلك أراد الريس «جودة» أن يتحلّى بالصبر قليلًا، فلربما تنقشع تلك الغمامة وتظهر براءته، ولكنه لم يكن يتخيل في أشد كوابيسه ظلامًا، أن يتحول الأمر من مُجرد تحقيق في العمل، إلى محضر وُجنحة، وذلك بعدما قاموا بتفتيش مكتبه داخل المحطة، ووجدوا مبلغ مالي ضخم مُخبأ بعناية وسط ملفاته وعُهدته. مما تسبب الأمر في إيقافه وعزله عن العمل بصورة نهائية، وكانت تلك هي الضربة الكُبرى التي تلقّاها (الريس) «جودة» سابقًا.

التشهير بأفراد أسرة بسيطة كأسرة «جودة»، لم يكن هينًا، فما كان من الأقربون سوى الشماتة والابتعاد عنهم بالتدريج، حتى لا تطولهم شمعة اجتماعية تشوبها رائحة الرّشوة والاختلاس، حاول ورغم تلك الفظائع التي تتعرض لها الأسرة، كان «جودة» يحاول مرارًا وتكرارًا النقض في القضية ولكن كُل محاولاته باءت بالفشل، وذلك نظرًا لوجود احتمالية في حبسه، وكان من الممكن نفاذها، إلا أن اللجنة افترضَت الرأفة بحال رجل متزوج لديه أسرة ليرعاها، وعلى الرغم من مرور شهور على ذلك الأمر، إلا أن «جودة» كان يأبى أن يُصدق أنه لم يعُد موظفًا لدى الهيئة العامة للسكة الحديد، وظل - عن طريق عبد المجيد - يسعى لمُتابعة ما يدور بداخل المحطة أولًا بأول، وعلى وجه الخصوص، أمر تلك الأرض التي يسعى إليها «أمجد زهران»، والذي بكل تأكيد وراء ما حدث للريس «جودة».

كانت تلك الأسرة في أمس الحاجة إلى خروج الحاج «جودة» على المعاش، وذلك لتسديد ديونهم المُتعسرة عن طريق مكافئة نهاية الخدمة، التي كان سيتلقاها بعد خروجه على المعاش، وهذا ما لم يكن في حُسبانهم، فما آلت إليه الأمور بعد ذلك، كان مؤسفًا بحق.

فشرعان ما تراكمت فوق رؤوسهم الديون التي تعسر سدادها في مواعيدها، بالإضافة إلى ثِقل المصروفات التي تحملتها أم «ياسين» بدلًا من زوجها، ولم تكن لتشكو هم ما تكبدته لتُحافظ على أسرتها، أو تقف إلى جوار زوجها في عز أزمته، ولكن فاض بها الكيل حين عَلِمت السبب وراء فصله من عَمله في أثناء حديثه مع «عبد المجيد»، وعلى الرغم من تلك المصيبة التي لم تكن تَعلمها، إلا

أنها لاحظت محاولاته المضنية في السعي وراء رجل الأعمال الذي تسبب في إلحاق العار به وبأسرته، ولم يكتفِ بما حدث، ولم تكن أم «ياسين» لتتحمّل إصرار زوجها على العبث مجددًا مع ذلك الرجل المدعو «أمجد زهران»، وعَملًا بموجب العِشرة والعيش والملح، تحدثَت معه كثيرًا بشأن التراجع عن معرفة كل كبيرة وصغيرة تَخُص السكة الحديد، فذلك الباب قد تم إغلاقه وللأبد، ويتعيّن على الجميع ألا يحاول فتحه مرة أخرى، كي يتكبد عناء ذكرى مؤلمة تسببت في هلاك مُستقبل البعض.

اضطر «علي» الابن الأصغر إلى ترك تعليمه بالتدريج، فبدأ الأمر بعدم قدرته على دفع مصاريف دروسه، ثم تراكم مصاريف الفصول الدراسية فصلًا تلو الآخر، ثم اضطراره إلى تغيير المدرسة إلى أخرى ذات مصروفات أقل، ولكن شرعان ما تعسّرت الأم في سدادها أيضًا، مما أدى في النهاية إلى حجب نتيجته لحين سداد المصروفات، ولم يُكن من «علي» سوى التأقلم على ذلك الوضع تدريجيًا، إلى أن فقد رغبته في العودة إلى الدراسة والتعليم شيئًا فشيئًا، ولأنه لم يجد لحياته رقيبًا يمنعه من التواجد في الشارع طيلة اليوم، كثُرت مشاكله ومشاجراته اليومية، وعائَث والدته بشاعة مناظر أصدقاءه الجُدد الذين يقومون بالسؤال عنه كل يوم، ولم تكن لتُساعد في إبعاده عنهم، فلقد سبق السيف العذل.

أخذت الأمور في التدهور سريعًا، حتى أصاب الست «عزيزة» أمراضًا لم تكن لتشكو منها رغم تقدمها في العُمر، ولكن ثقلت كواهلها، أنهكت سواعدها، وقلّت حركتها يومًا بعد يوم، وانشغل عنها الأبناء بالبحث عن مُستقبل مجهول، أراد فيه «ياسين» أن يُصبح

كاتبًا مشهورًا، رغم امتعاضه من مشاكل أخيه التي لا تنتهي، ورفضه للتحدث مع أبيه في إيجاد حلول لإنقاذ ما تبقى من الأسرة؛ وذلك درءًا لسماع أشياء لن يستسيغها عقله. أما بالنسبة إلى علي، الابن الأصغر، فأراد أن يعلو شأنه بين شباب المنطقة، ذوي الباع منقطع النظير في الصياعة والانحراف، رغبةً منه في نيل شرف هيبة المارة حين يروه، بالإضافة إلى خوض سكة تعاطي الحشيش أو البرشام بين الحين والآخر.

ولم تكن من تلك التطورات المؤسفة سوى أنها أضفَت الحزن والكآبة على حياة السِت «عزيزة»، إلى أن أصابتها تُخمة الجلوس وقلة الحركة، فازداد وزنها بشكل ملحوظ، وتقاعست عن أداء وظيفتها في مصلحة الضرائب، فطال مُرتبها الخصومات والجزاءات، حتى أتت الليلة المشؤومة، تلك الليلة التي شهدت فيها المنطقة حدثًا لم يكن من المتوقع حدوثه، في غسق الليل، فزع قاطني المنطقة على صوت نحيب وعويل يزُج الأنحاء، وحين توافدت النساء والرجال إلى البلكونات، كان المنظر مُخيفًا، جسدًا لامرأة سمينة، تتأجج فيه النيران بلا رادع، تفترش الأرض ومن تحتها بركة دماء تزداد بمرور الوقت، هُرِع المارة إليها رغبة في إخماد حريقها قبل أن تتفحّم، ألقى الواقفون بالبلكونات بطاطينهم للمساعدة، ومن استطاع دلق جرادل المياه من أعلى قام بدلقها، فالسِت «عزيزة» رحمها الله وأراح جسدها المُحترق؛ قامت بعد تفكير عميق غاص بها وبأفكارها، بسكب زجاجة كاملة من الفينيك فوق ملابسها، خرجت إلى البلكونة ثم استندَت إلى السور بمساعدة كرسي بلاستيك صغير، قبل أن تُشعل طرف جلابيتها بعود ثقاب أشعلته بأيدٍ مُرتعشة، قبل

أن تُفزعها النار ليختل توازنها وتسقط من الطابق الرابع، مُشتعلة تصرُخ، ولكن دون جدوى، فلقد غادرت روحها الجسد فور ارتطامها بالأرض، ساح من الدماء ما تمكّن من الهروب من حرارة النيران، حتى فرغ أبناء المنطقة من إخماد نارها المتأججة، وخرج «ياسين» إلى بلكونته ليُشاهد سبب صوت الصريخ والنحيب بالشارع، ظنًا منه أنها ربما أحد خناقات أخيه، ولكنه لم يكن يعلم، أنها جثة والدته، يُغطيها أحد الشباب وهو يبكي من شدة صعوبة المنظر.

***

الواحد والعشرون

بعد منتصف الليل، وبعدما خفّ السير، دخلت إلى الحي سيارة نقل فارغة، توقّفت أمام مدخل العمارة التي غادرت من طابقها الرابع؛ روح السّت «عزيزة» انتحارًا، كان في انتظارها «ياسين» وأخوه «عليّ»، وبعد قليل بدءا في انزال أثاث بيتهم على دُفعات، دون إحداث جلبة أو ضوضاء، وذلك بعدما قرر جميعهم بيع تلك الشقة، والانتقال إلى شقة أخرى، أقل في المستوى. لم يَكُن أمامهم سوى مُغادرة المنطقة بعد تلك الفضيحة التي لَحقت بهم بعد انتحار السِت الوالدة، مما جعل من الصعب حتى إقامة عزاء يليق بها، ولم تفُت أيام وبدأت عواقب تلك الحادثة في الحدوث واحدة تلو الأخرى، استحالت العيشة، وكان للأب والأبناء أسباب كافية للمغادرة، بداية من الأخبار والشائعات التي تناقلت بسرعة البرق بين شكان الحي، وعَلِم الكبير والصغير أن السبب وراء انتحار السّت «عزيزة»؛ وبكل تأكيد هو زوجها «جودة»، لم تتحمل طلباته وتصرفاته العشوائية بعدما تم فصله من عمله. نبذه الجميع وتحولت نظراتهم إليه من نظرة لموظف مُحترم له مكانة مرموقة، إلى الرجل الذي تم عزله من عمله بفضيحة، وتركته زوجته بأبشع أنواع الانتحار، مما جعل الجميع يرفض التعامل معه إلا للضرورة فقط. أما «ياسين» فامتنع عن الظهور في الشارع إلا قليلًا، انزوى في غرفته طوال ساعات النهار، وبين الحين والآخر كان يأخذ «نوحي» ليخرج معه بعدما تهدأ المنطقة، ولكن ما جعل العزال ضروريًا؛ هو «عليّ»، فبعد موت والدته، كان هو أكثرهم إحداثًا للجلبة، فلم يكن ليتحمّل أن ينظر إليه أحد المارة بالحي، حتى يقترب منه ليفتعل معه مشكلة وخناقة،

ظنًا منه أن تلك النظرات ورائها ما حدث لأمه، فلا يمر يوم سوى بمشاجرة مع أحد شباب الحي، ولم يسلم أبيه وأخيه من التورط في تلك المشاجرات غصبًا، وهنا لزم الرحيل.

لم تكن الذكريات التي تضرب رأس «ياسين» بين الحين والآخر، إلا سببًا في استرجاع ماضٍ أليم، يرغب في نسيانه بأي شكل من الأشكال، وإن كان لديه بعض الأمل أن تكون الكتابة سببًا في جعل حياته أفضل من تلك التي عاشها. لهذا حاول سريعًا طرد تلك الذكرات من رأسه، ولو مؤقتًا، حتى تتسنى له الفرصة أن يفتح ذلك الموقع الذي أكمل «رامي» تعديلاته، وما هي إلا دقائق حتى بدا أمامه في خانة الطلبات، عدة طلبات من أشخاص مختلفة، ذهش من سرعة استجابة الفكرة، وقرر اختيار طلب بشكل عشوائي، حتى وقع الاختيار على طلب لفتاة تُدعى «ندى»، تكبره في السن بعشر سنوات، ترغب في التحدث إلى شخص بمواصفات يمتلكها أي رجل. بعد التفكير قام «ياسين» - كما أخبره «رامي» - بقبول طلبها، ليستقبل بعد أقل من 10 دقائق أول رسالة منها، أرسلتها لتتأكد من صحة فعالية الموقع، ومن حقيقة وجود الشخص الذي تراسله، فقام بالرد عليها أنه حقيقي بالفعل، ومُهتم أيضًا لسماع ما تريد أن ترويه، ولكنها لا تعلم السبب وراء رغبته في سماعه لحكايتها، وبعد تعارُف دام لساعات، استعجل «ياسين» بحنق الدخول في تفاصيل الموضوع، فإذا بها تروي له تفاصيل خيانة زوجها العزيز لها، وكيف اكتشفت الأمر، تبادر إلى ذهنه سريعًا أنه لربما هي تنوي التربص لزوجها والإيقاع به في شر أعماله، أو ربما تنوي قتله، وذلك ما جعله يشعر أن تلك الحكاية قد يكون لها فائدة، ولكن إذا بها تُخبره أنها

وكأي امرأة مصرية أصيلة؛ ستتحمل تَبعات تلك الخيانة وتصبر معه حتى اليوم الذي يأتيها راكعًا نادمًا على ما فعل، فظن «ياسين» - والظن خيبة - أنها وربما تنوي الذهاب إلى أحد الدجالين أو العرّافين ليصنع لها سحرًا أو عَمَل مرشوش، يجلب لها زوجها في سِت ساعات. ولكنها أيضًا أحبطته حين أخبرته بأنها فقط ستذهب إلى صالة الجيم لإنقاص بعض الدهون، حتى يراها كما لم يرها من قبل، مؤكدةً على «ياسين» أن إنقاص الوزن سحر مضمون المفعول على زوجها.

عَلِم «ياسين» في باطنه أن تلك المُحادثة لن تُجدي نفعًا، وبالفعل، تأكدت شكوكه في ذلك الموقع، وأدرك أنه أن هذا الموقع لن يكون سوى مَضيعة للوقت، سريعًا قام بالتهرب منها بعدما وعدها بضرورة التحدث إليها مرة أخرى حين تُتاح له الفُرصة.

أغلق اللابتوب حين سمع من الخارج صوت كسر لزجاج، نهض مفزوعًا وركض إلى الخارج لعلمه مسبقًا أن والده هو فقط من بالخارج. هُرع إلى الخارج فوجد والده واقفًا في الطُرقة، يده اليسرى ترتعش وهي ممدودة أمامه، وبيده الأخرى تفزك في عينه استدعاءً للوعي مرة أخرى، اقترب منه «ياسين» ليُمسك بيده ويربت عليها ليأخذه بحذر بعيدًا عن زجاج فنجان القهوة المكسور، ويغسل له طرف جلابيته التي وسخها البن، ولم يكن من العم «جودة» أن ينطق بكلمة واحدة، كان صامتًا تمامًا وكأنه لم يكن فنجانًا من البن وإنما جردل من الماء المُثلج. أجلسه على الأريكة وجلس بجواره، ظل صامتًا لبضع دقائق، حتى مزّق ستائر الصمت وقال لوالده: خُد بالك من نفسك.. صحتك أهم من.. أي حاجة.

- من إمتى صحتي أهم من أي حاجة يا ياسين؟

تنهد «ياسين» قبل أن يلاحقه:

- من زمان يابو ياسين.. بس إنتَ مش واخد بالك.. أو مش عايز تاخد بالك.. بتختار الصعب ليك وللي حواليك من غير ما تفكر.. عشان كده بقولك حاول تخلي بالك من نفسك.. كفاية اللي عدى.

- وهو.. عدى؟

- أيًا كان.. عدى بالنسبالك ما عدّاش بالنسبة لحد تاني.. مش فارقة.

- ومين قالك إنه عدى بالنسبالي؟

مط «ياسين» شفتيه قبل أن يردف: "ده الواضح.. وغصب عنك أنا آسف.. مُضطر تعدي".

عدل عم «جودة» من جِلسته ثم نظر إليه في تحدي: "أنا غمري ما أضطر أعمل أي حاجة".

- ما هي دي المشكلة.. هي دي أم المُشكلة.. بتكابر يا ريس جودة.. بتكابر وكأن اللي حصل مش فارقلك أو ما أثرش فيك.. رغم إنه لو جينا للي قُدامي دلوقتي.. ف لا.. إنتَ أكتر واحد متأثر فيك.. لأنك سبب في اللي حصل.. ومهما حاولت تداري.. دي حقيقة مش هتتغير.

نظر والده إلى الأرض كمن أيقن أن لا مناص من إخفاء ما يُثقل الكواهل، تردد كثيرًا قبل أن يردف: "أنا.. أنا آسف.. فهمت متأخر.. خدت وقت على ما أصدق الحقيقة دي أصلًا".

- إنتَ أناني.

- أنا أناني يا ياسين؟

- ما كانش فارقلك غير نفسك واللي إنتَ شايف إنه صح.. علشان كده ما حاولتش تعرف ده من زمان وعرفته دلوقتي متأخر.

- أنا مش هعارضك.. ومش هقولك أناني ليه.. بس أنا ما كنتش أناني لوحدي.. إنتَ كمان كنت أناني أكبر مني.. أناني وقت ما فكرت إنه كل حاجة وحشة حواليك بتحصلك وبتأثر عليك لوحدك.. عُمرك فكرت تحسبها من ناحية تانية؟.. تحسبها إن عندك بيت وأسرة و.. زوجة.

لم ينتبه «ياسين» إلى ظهر والده الذي انحنى بمرور الوقت منذ جلسا هنا، وكأن ثقل السنين التي مضت لم تترك له خيارًا سوى الانحناء. تجعدت جبهته، ليس فقط بفعل الزمن، ولكن من الألم الذي كان يحاول جاهدًا أن يخفيه. ارتعشت شفتاه الجافتان، لكنه أبى أن يسمح للدموع بأن تخونه. كانت عيناه، المليئتان بالألم والتجارب، تلمعان في ضوء الصالة الخافت، كأنها تحاول أن تغمره بالدفء والراحة، ولكنها لم تستطع سوى أن تعكس صراعًا داخليًا عميقًا. قبض على يديه بقوة، حتى برزت عروقه البارزة، في محاولة يائسة للتمسك بما تبقى من كبريائه. في تلك اللحظة، كان كل ما يريده هو أن يحافظ على صمته بعدما قال ما قال، ولكن في النهاية، رغم كل محاولاته للصمود، شعر بأن الصمت قد بات عبئًا لا يُحتمل. انفلتت الكلمات من شفتيه كأنها حبال مشدودة تمزقت أخيرًا. أصبح صوته مبحوحًا، مُنكسرًا، وكأنه ينبع من أعماق جرح قديم لم يلتئم قط.

حاول أن يُبقي نبرته ثابتة، إلا أن الخذلان تسلل إليها، واضحًا في كل حرف ينطقه. كأن صوته كان يئن من ثِقل السنين والمشاعر التي كبتها طويلًا. كان يشهد انهيار الجدار الذي بناه حول نفسه، ليترك روحه عارية أمام ابنه، متخليةً عن كل دفاعاتها. كانت تلك اللحظة تحمل في طياتها استسلامًا لا مناص منه، وكأن ذلك الرجل العجوز قد أدرك أخيرًا أن التعبير عن الألم قد يكون، في بعض الأحيان، أقوى من محاولات كتمانه..

- أنا مش عارف.. أتجاوز.. الفكرة نفسها.. كل البشر بتخسّر ناس عزيزة عادي.. والدنيا بتمشي.. أنا دنيتي مش عايزه تمشي ليه؟

رد «ياسين» بكلمات جافة، كأنها سكاكين حادة غُرست في قلب والده، تاركةً وراءها جرحًا عميقًا يضاف إلى جراح السنين، وذلك حين قال: "عشان إنتَ مش عايزها تمشي.. لو مش هتمشي زي ما إنتَ عايز يبقى بلاش.. لو ما حصلش اللي إنتَ مستنيه يحصل.. تبقى الدنيا بت ستين وسخة واللي حواليك كلهم أنانيين ولاد كلب".

صمت قليلًا قبل أن يُكمل: "بابا.. أنا".

قاطعه «جودة» مُستنكرًا بابتسامة ملؤها اليأس والحسرة:

- بابا؟.. ولزمتها إيه بابا؟.. يا.. سيادة الأديب.. لو كان يهمك بابا.. كنت.. ولا على إيه.. ما بقاش له لازمة الكلام.

لم يجد «ياسين» ما يقوله، فتسللت ابتسامة باردة إلى شفتيه، ابتسامة خالية من الدفء كأنها قناع يخفي وراءه استياءه. أومأ برأسه ببطء، كمن يتنازل عن جدال ربما لا قيمة له، ثم نهض بهدوء،

وكأن كل حركة كانت محسوبة بعناية، تاركًا وراءه صمتًا ثقيلًا يملأ المكان، ولكنه لم يدم طويلًا. تبع الصمت صوتٌ مكتوم كسر سكون المكان، صوت ارتطام جسد أثقلته السنين والهموم بالأرض، للحظة، ساد ارتباك مَهيب، وكأن الزمن توقف ليرصد تلك اللحظة الفاصلة، كان عم «جودة» يحاول يائسًا التقاط أنفاسه، صدره يعلو ويهبط ببطء شديد، وكأن الهواء قد أصبح عبئًا ثقيلًا يتعذّر عليه حمله، ارتجف جسده المنهك على الأرض، بينما امتدت يده المرتعشة نحو العدم، كمَن يبحث عن سند لم يعد موجودًا.

في ردهة إحدى المستشفيات الصغيرة الباردة، وقف «ياسين» مستندًا إلى الجدار، عينيه تحدقان في الأرض وكأنهما تتجنبان مواجهة الواقع القاسي، وكان الصمت يَلف المكان، لا يكسره سوى صوت قطرات المحلول المعلق بيد والده وهي تتساقط ببطء في الأنبوب الرفيع، كل قطرة تمر وكأنها تزيد من ثقل الانتظار، حتى لاحظ من بعيد الحاج «عبد المجيد» برفقة ابنته «ليلى»، اقتربا ثم أردف «عبد المجيد» في لهفة: "الحاج فين يا ياسين يابني؟".

- جوّة يا حاج معلقينله محلول.. هو كويس ما تقلقش.

- ما أقلقش إزاي بس يابني.. أبوك ده لو جراله حاجة أنا أموت.. ده صاحب عُمري.

قالها ثم دلف إلى الغرفة ليطمئن عليه، وبقيث «ليلى»، ثوانٍ قبل أن تقول: "ألف سلامة على عمو.. إن شاء الله يقوم بالسلامة".

باغتها «ياسين» بسؤال: "عرفتوا منين يا ليلى؟".

- بابا لقيته طالع من تحت بيجري وبيقول إن واحد من الشارع ما أعرفش مين قاله إنه شافك وإنتَ مسنِّد عمو على المستشفى".

حرّك رأسه إلى أعلى وأسفل دون أن يُعقب، فسألَته: "إيه اللي حصل.. هو عمو بيشتكي من حاجة؟".

- حاجات كتير.. سُكر.. ضغط.. قلب.. الدكتور قال جفاف حاد وضغط واطي.. السكر ملغبط شوية.. حبة إهمال كده.

- وليه محدش مُهتم بيه وبصحته؟

كانت «ليلى» تُقاوم رغبتها في توبيخه بشكل مباشر، كانت كلماتها تحمل اهتمامًا صادقًا وعتابًا مبطنًا، كأنها تسأله لماذا لم يكن أكثر حنانًا وحذرًا في رعاية والده.

ولكنه، بدلًا من الاعتراف بتقصيره أو حتى التظاهر بالتفهم، قطع كلماتها برد حاد كالسكين. رفع صوته قليلًا، مليئًا بالبرود والإصرار: "مش كل الناس زي بابا يا ليلى.. حتى لو حاولتي مع والدك ونجحتي.. ده بس عشان ما حصلكيش زي اللي حصلنا".

قال ما يجبرها على التراجع خطوة إلى الوراء، كأنه سد بينهما جدارًا من الجليد، كلماته الجافة كانت بمثابة صفعة غير متوقعة، جعلت عينيها تتسعان للحظة قبل أن تتحول نظرتها إلى خليط من الخيبة والإحراج. ورغم قسوة ردوده وبروده الواضح، لم تيأس «ليلى». نظرت إليه بعينيها الهادئتين، وابتسامة خفيفة ترتسم على شفتيها كأنها ترفض الاستسلام لهذا الجدار الجليدي الذي أقامه بينهما. اقتربت خطوة أخرى، نبرتها مليئة بالحنان والصبر، وقالت

بصوت خافت، وكأنها تحاول أن تلامس قلبه المغلق: "ممكن أسأل إيه اللي حصل؟ إيه اللي خلّى الأمور توصل لكده؟.. ولا مش من حقي؟".

كان سؤالها يحمل في طياته رغبة حقيقية في الفِهم، في محاولة لمد جسر من الحوار وسط بحر من الصمت الجاف.

قبل أن يتمكن «ياسين» من الرد عليها، خرج والده من الغرفة مستندًا على صديقه «عبد المجيد»، الذي كان يرافقه بحنان وحرص. وقد أصر بإلحاح على دعوتهما لتناول الغداء في منزله، غير آبه بتحفظات عم «جودة» أو اعتراضات «ياسين». وبنبرة ملؤها الوُد، اتصل بزوجته ليخبرها بتحضير شوربة وفراخ مسلوقة خصيصًا لأجل رفيق عمره. وحاول عم «جودة» وولده التمنع بأدب، لكن الحاج «عبد المجيد» لم يقبل الرفض، وكأن إصراره كان تعبيرًا عن حب لا يقبل المساومة. أما ليلى، فابتسمت بهدوء، وراقبت المشهد بصمت، وقد لمعت في عينيها فكرة واحدة، ربما تكون هذه الزيارة هي الفرصة التي تنتظرها لتعرف ما الذي دار بين «ياسين» ووالده. فلم تعلق على الأمر، لكنها كانت تترقب، آملة أن يفتح هذا اللقاء نافذة صغيرة إلى قلب «ياسين» المغلق.

حين دلفا إلى مدخل العمارة، أراد «ياسين» التملص من تلك الزيارة، مُتحججًا بصداع قاتل يُجبره على النوم، ولكن «ليلى»، بإصرار لا يقل عن إصرار والدها، واجهته أمام الجميع - أبيها وأبيه - بابتسامة هادئة، وقالت بلطف لا يقبل الرفض: "الست محاسن، ماما، هتحضرلك فنجان قهوة هيعدلك مزاجك ويطير الصداع على طول".

لم تترك له مجالًا للتراجع، فقد كان واضحًا أنها لن تسمح له بالانسحاب بهذه السهولة. وفي هذه الأثناء، كان عم «جودة» و«عبد المجيد» يتقدمانهم بخطوات واثقة ومرتاحة، يصعدان الدرج ببطء، مستندين على ذكريات عمر قضياه معًا، وكأنهما يستمتعان بكل لحظة من هذا اللقاء البسيط. الابتسامات الهادئة والعيون التي تحمل الكثير من الحنين رافقت صعودهما، تاركة خلفهما أثرًا من الدفء يلامس القلوب.

رمقها «ياسين» لدقيقة ثم وافق على مضض. صَعِدا ثم وقفا لدقيقة أمام الباب، عدل فيها "ياسين" من قميصه الفضفاض، ومسح على شعره فبططه، قبل أن تفتح لهما الست "محاسن"؛ والدة "ليلى"، للوهلة الأولى امتقع وجه "ياسين" لما رأته عيناه، فكانت تلك هي المرة الأولى التي يرى فيها الست محاسن؛ امرأة غانية، تخطت عقدها السادس ببضع سنين، أسوانية الأصل، شديدة الشمرة، عيناها كانتا سببًا فيما ألمّ بـ"ياسين"، فعين الست "محاسن" اليسرى كانت مفقودة، مجوفة، يمُر بها جرح طولي ممتد من منتصف الجبهة وحتى أسفل العين، نشع العرق على جبين "ياسين"، فحدجته "محاسن" بالعين الأخرى، للحظات طالت، تمنى فيها «ياسين» أن يكون أخرسًا كـ"إسماعيل سلطح"، فلا يدري ماذا يقول أو كيف سيقوله، قبل أن تمزق "ليلى" أستار الصمت بجملة، ولَولا كلمة ماما التي قالتها للست "محاسن" لما عَلِم "ياسين" أنها حقًا والدتها، فربما ظن أنها ليست سوى أضغاث أحلامه التي تطارده منذ أيام، فتجويف العين واسع بلا جفون، غاص فيه قبل أن يُدرك، فالتقطته "ليلى" وهي تسحب ذراعه، دلفا إلى الداخل، جلس "ياسين" وغابت

"ليلى" ووالدتها عن أنظاره بضع ثوانٍ، قبل أن تعود "ليلى" بمفردها، مُبتسمة، تأملته ثوانٍ قليلة، قبل أن تلتقطه من شروده، وتقض عليه حكاية العين المجوفة. الست "محاسن" كانت تعمل منذ سنين في إحدى دور الأيتام الصغيرة، دارٌ يعرفها كُل كبير وصغير في الحي، كانت ترعى واثنتين من العاملات معها؛ سبعة صبيان في سن المراهقة، سبعة أشقاء، أو كذلك حسبوا أنفسهم، وفي أحد الأيام عَلمت "محاسن" ومن معها أن القائم على الدار قد أختلس مبلغًا من التبرعات الأخيرة التي تبرع بها أحد فاعلين الخير لهؤلاء الصبيان، وما هي إلا أيام معدودة وتسرب الخبر إلى السبع صبيان، ثار أحدهم وحرّض الباقين أنه إذا ما لم تُرد لهم أموال التبرعات فما هُم بصانعيه ليس بخير، مؤكدًا المثل القائل: "اتقي شر من أحسنت إليه"، فقد كانوا يعتبروه أبًا لهم، يستقبلوه بالأحضان، يُثني عليهم بكلمات على غرار "إنتوا ولادي"، ولكنه ما إن عَلِم بأن ثمة مبلغًا كبيرًا تبرع به أحد الكِرام، فاعلو الخير بلا بمُقابل؛ نسي من قال لهم يومًا "أولادي"، طغى، نهب واختلس، وبرر سرقته بأنه يُواجه بعض الحسابات المُتعثرة فيما يخُص مصروفات الدار واليتامى والأمهات(6)، وكان تبريره سخيفًا، حيث أنه لا يخفى على أحد في الحي من هو "جابر البدري"، الرجل الذي أتى الحي منذ سنين، لا يملُك سوى ملابسه الرثّة، التي بدا فيها كعود قصب نخره السوس، ادّعى أن له في المنطقة بيتًا، قد عَلِم القليل أن هذا البيت يرجع إلى الست "إيرين" الأيرلندية، التي قام بذبحها أحد البلطجية القاطنين بعزبة "همام"، طمعًا في مصوغاتها، قبل أن يهرب على سفينة بضائع مُتجهة إلى اليونان، بعد أيام اشتم أهالي الحي رائحة عطن تفوح من بيتها،

فعزموا على اقتحامه، وفي صباح أحد الأيام، تسلق أحد الفتيان سور بيتها في خفة، وتخطى الباب المكسور مسبقًا، اتبع الرائحة الخانقة حتى الطابق العلوي، فإذا بجسد الست "إيرين" مُلقى على الأرض في غرفتها، تستند مؤخرة رأسها على ظهرها، فالنحز كان قد تخطى نصف قطر الرقبة، فمالت الرأس إلى الوراء بجرحٍ مُقصّعٍ تحجرت دماؤه من تحتها.

سُئِلَ "جابر" عن صلته بهذا البيت، فأذاع فتنةً صماء بأنه كان متزوجًا من الست "إيرين" قبل وفاتها بزوجٍ أعوام، أبقيا ذلك سرًا تلبيةً لرغبتها في ذلك، وأنه - وبفضل الله - استطاع أن يُهديها إلى دين الإسلام، وتعليمها مبادئ الدين والسنة، وتزوجا على سنة الله ورسوله، بعدما كانت لا تعتقد في وجود إله من الأساس، وأنها عزمت على تغير اسمها من "إيرين" إلى "نيرمين"، قبل أن يُسافر ليُباشر بعض أعماله في الخليج، وما أن عَلِم بما حدث لها من مكروه، عاد مُنكبًا إلى مِصر، تاركًا خلفه كُل قرش جناه في الغربة، عازمًا على أن يجعل من ذلك البيت دارًا لليتامى، تكريمًا لسيرة الحجة - التي لم تحج - "إيرين" سابقًا، "نيرمين" حاليًا.

وبكى "جابر" أمام أهالي الحي، فصدقه المغفلون والسُذّج، وراحت نساء الحي يتداولون سيرته بين بعضهن بعضٍ، باكياتٍ على فراق الحجة "نيرمين"، التي تُقسم إحدى النساء إن قبل وفاتها بأيام، رأتها تقف في شُرفة منزلها تنشر ملابسها مرتدية الحجاب، وسمعتها تُتمتم بآيات من سورة الناس، وأضافت "بلكنة عربي مكسّر زي عوايدها". واستطاع "جابر" أن يُنكل بأهالي الحي ويظفر بالبيت، ولم يكتفي بذلك، فقد طلب من رجال الحي أن يزودوه بالأموال، حتى

يفتتح دار الأيتام، واعدًا إياهم برد تلك الأموال فور ما تتيسر له الأمور، ويسترد أمواله من الخليج، وللعجب، وافق البعض، وأعاروه الأموال حتى افتتح دار "النيرمين" للأيتام، مؤكدًا المثل القائل: أشترى بدرهم بلح، بقى له في الحي نخل.

يئس السبعة أشقاء بعد محاولاتٍ مضنية في إقناع «جابر» الخسيس بالعدول عن نهب حقوقهم، فقد عزف «جابر» عن زيارة الدار، وأهملها لشهور، قبل أن يذهب بلا عودة، فتصدعت جدران الملجأ بضيق من فيها، ونهش الشعار بطون الصبية، ووقفت الأمهات مكتوفات الأيدي، فهن أيضًا عاشوا في سخرة طوال تلك الشهور دون راتب، كانت الست "محاسن" لم تُنجب "ليلى" بعد، وكان زوجها الريس "عبد المجيد" يعمل بمحلج للقطن قبل عمله في هيئة السكة الحديد، فكل ما استطاعت فعله هو استقطاع جزء بسيط من مدخراتها، فقط لتلبي احتياجات الصبية من مأكل ومشرب، ولكن أتى ذلك بعد فوات الأوان. هاج أكبر الصبية سنًا، وبمنتصف ليلة في شتاءٍ كَلِب، سَمعث إحدى الأمهات صوت خبط منتظم يأتي من غرفة أحدهم، فراحت لتلقي نظرة، وما إن اقتربت من باب الغرفة، حتى اندفع بقوة ومن وراءه الصبية في غضب حانق، أطاحوا بها أرضًا، وفي أثناء خروجهم، ضرب أحدهم وجه الست «محاسن» بملعقة مسنونٍ طرفها، غشيّت في مكانها من شدة الألم، لتستيقظ فتجد نفسها ومن معها من أمهات، يفترشون الشارع أمام بوابة الملجأ، الذي قام الصبية بإحكام إغلاق أبوابه وشبابيكه من الداخل، حتى لا تتسنى لأحد فرصة الدخول بينهم، فرضوا سيطرتهم على الدار بما فيها، متوعدين بالموت لمن تسوّل له نفسه بالدخول، ومنذ

ذلك الوقت ذاع صيت السبعة أشقاء بين بلطجية الحي، فأصبح كُل من يحمل ضغينة تجاه أحد في الحي، يستعين بهؤلاء الأخوة في التنكيل به، فأخذوا يضربون وينتقمون لغيرهم، مقابل عدة جنيهات تكفيهم للعيش فقط ليوم إضافي، وانزوت المسكينة "محاسن" في المشفى بضعة أيام، عَلِمت فيهم أنها فقدت عيناها اليسرى من أثر الضربة، ولأن ما باليد حيلة، كان من المُستعصي عليها أو على زوجها دفع تكاليف سد الفتحة بعين زجاجية، فظلت تلك الفجوة مُصاحبة لوجه الست "محاسن" منذ ذلك الحين، وكانت ترتعد لها "ليلى" في طفولتها، ولكن سرعان ما اعتادت وجودها.

بعد قليل، كان الطعام قد حضر، فجلسوا جميعًا لتناول الغداء. الأجواء كانت دافئة وهادئة، وابتساماتهم تخفي وراءها مشاعر دفينة تتلاطم في قلوبهم، وبعد الأكل، قرر «عبد المجيد» وصديقه الجلوس في البلكونة، حيث اعتادا الحديث لساعات طويلة، يستعيدان ذكريات الماضي وكأنهما يحاولان تجديد صداقة لا تنقطع.

أما «ياسين» و«ليلى»، فقد جلسا معًا في الصالة، يحتسيان القهوة التي أعدتها والدتها. ارتشف ياسين بعضًا من القهوة الساخنة، ثم نظر إلى «ليلى» وكأنه أخيرًا وجد في عينيها من سيصغي له حقًا. بدأ يروي لها عن مشاكله الأزلية مع والده، مشاكل قديمة ومتجذّرة، لها أسباب كثيرة ومتراكمة عبر سنوات، وكان صوته يحمل شيئًا من الحزن والاستياء، كأنه يعترف للمرة الأولى بعمق تلك الجروح التي لم يقدر على البوح بها من قبل. «ليلى»، بصبرها وهدوئها المعتادين، استمعت إليه بانتباه، محاولة أن تفهم كل ما لم يُقال بقدر ما فهمت

ما قاله بالفعل.

- المشاكل دي.. هي السبب في إنكم تيجوا هنا؟

أومأ برأسه إيجابًا، وبعد لحظات من الصمت، قرر أن يشاركها ببعض مما يحمله في قلبه. لم يروِ لها كل التفاصيل؛ ولكنه اكتفى بما قد تكون تعرفه بالفعل من والدها، بحكم عمله مع والده. تحدث عن العلاقة المتوترة، عن الجراح القديمة التي لم تندمل، وعن الأيام التي دفعته إلى الابتعاد عن البيت الذي كان ملاذًا يومًا ما. حاول أن يبقى على السطح، لكنه لم يستطع إخفاء الألم العميق الذي كان يتردد في نبرة صوته. لتسأله ليلى بهدوء: "وناوي تعمل إيه دلوقتي؟".

تنهّد ياسين، وعينيه تتجنبان النظر إليها مباشرة، وأخبرها أنه ينوي كتابة روايته الثانية، ولكنه يجد صعوبة في ذلك، وربما سيكلفه الأمر بعض الوقت. لاحظت «ليلى» أنه لم يسألها شيئًا عن نفسها، كان منشغلًا في دوامة مشاكله. فأخذت على عاتقها كسر حاجز الصمت حول حياتها، وبدأت تتحدث عن دراستها المُتعثرة، وكيف أن مشروع تخرجها يقف عقبة في طريقها، تمامًا كما تعوقه روايته. وكأنها تعكس عليه جزءًا من ذاته، شعرت أن الحديث عن تحدياتها جعله ينفتح قليلًا، ولو في صمته. بعد لحظات، غادرت «ليلى» المكان لتعود حاملة روايته الأولى. وضعتها أمامه على الطاولة، وابتسامة صغيرة تلوح على شفتيها. تجمد «ياسين» في مكانه، ولم يدرِ ماذا يقول. لم يكن يتوقع أن «ليلى» قد قرأت عمله، وأنها كانت تراقب تفاصيل حياته عن قرب. كان يشعر بشيء من الدهشة، لكنه في الوقت ذاته كان ممتنًا لهذا الاهتمام الذي لم يتوقعه.

ثم، وكأنها تلتقط الخيط الذي تركه «ياسين»، أضافت بابتسامة مرحة ونبرة مليئة بالدعابة أنها ترغب في التودد والتقرّب، ولكن ليس إليه، بل للبومة خاصته؛ «نوحي». خاصةً بعدما هَرِب وعاد مُجددًا، وكان ذلك بالنسبة لها خيالًا بحق. في باطنها «ليلى» لم تكن ترى في «نوحي» مُجرد بومة؛ كانت ترى فيه شيئًا من «ياسين»، شيئًا لم يتخلّ عنه رغم كل ما مر به، شيئًا ترغب في اكتشافه بطريقتها الخاصة، وأخبرته عن رغبتها في تقديم المساعدة إليه في إنهاء روايته الثانية. تأمل «ياسين» في العرض، وأخذ يفكر لوهلة، ولكن بعد قليل، تذكّر «ياسين» أن هناك عدة طلبات تنتظره على الموقع. شعور المسؤولية نبهه بأنه لا بد أن يغادر لفحص تلك الطلبات. تنهد بعمق، ثم قرر أنه يجب أن يذهب. استأذن ثم دخل إلى البلكونة حيث كان والده يجلس مستمتعًا بأحاديث الذكريات مع «عبد المجيد»، صديقه القديم. اقترب منه ولم يتحدث، فقط نظر له وأومأ برأسه في ضرورة المُغادرة، ولكن عم «جودة» الذي بدا مرتاحًا في جلسته، أدار رأسه بعيدًا عن ابنه ولم يُعره انتباهًا، وكان «عبد المجيد» يقرأ المشهد في صمت، قبل أن يتدخل ليقول: "لو وراك حاجة يا ياسين يابني روح.. سيبه معايا يستريح وندردِش شوية".

شعر «ياسين» أن والده يحتاج إلى هذه اللحظات من الراحة والحديث، فوافق على مضض. خرج من البلكونة واتجه نحو الباب، و«ليلى» تسير خلفه. عندما وصل إلى الباب، استدار نحوها ليودعها، لكنها سبقته بابتسامة ماكرة، مؤكدةً عليه ضرورة تقديمها كصديقة لنوحي. ابتسم «ياسين» بخفة، متعجبًا من اهتمامها غير المتوقع بالبومة، وعدها ثم خرج من الشقة، ليترك وراءه أجواء دافئة

ممزوجة بالأحاديث والأمل.

عاد إلى غرفته وأغلق الباب خلفه بلطف، وكان أول ما فعله هو التوجه إلى وكر «نوحي»، والذي كان مستريحًا على عوده الخشبي. ابتسم «ياسين» وتحدث إليه وكأنه صديق قديم: "بقى ليك معجبين عايزين منك أوتوجراف! هتبقى نجم؟".

رفع «نوحي» رأسه قليلًا، وكأن هناك فهمًا متبادلًا بينهما. ابتسم ياسين ثم ربت على رأسه برفق قبل أن يتجه نحو المكتب. جلس على الكرسي وفتح اللاب توب. بعينين مرهقتين، بدأ يفحص الطلبات التي وردت على الموقع، محاولًا التركيز على طلب لا يستنزف من وقته الكثير دون فائدة.

وبينما كان يتصفح قائمة الطلبات، توقف فجأة حين رأى طلبًا غير عادي يتوسط القائمة. كان الطلب مختلفًا تمامًا عن البقية، وكأنه يقفز أمام عينيه بجرأة. جاء الطلب من شخص يحمل اسمًا غريبًا وغير مألوف، وكأن يرغب في إخفاء اسمه الحقيقي. الشخص الذي أرسل الطلب كتب رسالة قصيرة لكن مُريبة: "أرغب في التحدث مع كاتب، للضرورة".

تجمد ياسين للحظة، وكأن حواسه كلها استيقظت فجأة. ثم بدأت ابتسامة صغيرة تتشكل على وجهه، ابتسامة شخص وجد أخيرًا شيئًا يثير اهتمامه. فكر في نفسه: من يبحث عن كاتب بالتأكيد يبحث عن «ياسين». دون تردد، قرر قبول هذا الطلب بالذات، حفاظًا على ما تبقى من وقت. لكن عندما وافق على الطلب، تفاجأ برسالة فورية ظهرت على الشاشة، حملت عنوانًا أكثر إثارة للقلق: "إن كنت

تبحث عن رواية جديدة مستوحاة من أحداث حقيقية، واقعية، حول جريمة قتل.. قابلني غدًا في السابعة مساءً، «قهوة بيرم»، عمارة السعادة، القاطن أسفل حانة «دياڤلو»!".

***

الثاني والعشرون

في العاشرة إلا ربع مساءً، داخل إحدى الكافيهات الهادئة بحي «عماير سموحة»؛ انتظر الطبيب الشرعي «يوسف قابيل» قليلًا قبل أن يصل المُقدم «خالد الكومي»، جلس ولم تُفارقه نظرات الفضول، وبعد تبادل السلام وطلب القهوة والشاي بعيدان القرنفل، استطرد دكتور «يوسف» قائلًا: "قضية البنت اللي اتقتلت في عمارة السعادة على السطح، القضية دي فيها إن".

- اشرح ووضح لي يا دكتور.

اسند المُقدم «خالد» ظهره إلى الوراء قبل أن يستمع إلى ما جاء دكتور «يوسف» ليقول:

- امبارح قبل ما أكلمك.. جالي استدعاء عند مُدير المصلحة.. وقالي إنه أمر بوقف العمل على القضية مؤقتًا.. نظرًا لوجود قضايا أهم.. وأنا عارف إنه مفيش ولا قضية مُهمة تقريبًا غير القضية دي.

- وهو هايعمل كده ليه؟.. مش من عادته يعني!

- الموضوع مش كده وبس.. الحقيقة كمان إنه.. أعفاني منها بشكل كامل.. وكلفني بشوية قضايا تانية أقل أهمية.. طبعًا إنتَ عارف إنه مفيش حاجة اسمها قضية مهمة وقضية لا.. لكن صعب نقول على قضية قتل زيها زي حادثة سير مثلًا.. فيه فرق في ملابسات القضيتين يعني.. المهم.. مُدير المصلحة كلف مين بقى بالقضية دي؟

- مين؟

- ممدوح الفولي.

- مين ممدوح الفولي؟

- دكتور بهايم.. يومه بسنة.. من الآخر.. الموضوع عايزه يتأخر لسبب أنا ما أعرفهوش.

فكر المُقدم «خالد» للحظة بعد تلك الجُملة القصيرة، وكأن كل كلمة سينطق بها كانت محملة بالمعنى والتمحيص: "أول قضية امسكها هنا لازم تبقى معقربة كده.. طب ليه يعطل التحقيقات؟".

- صدقني مش عارف.. بس بحكم خدمتي مع الراجل ده أقولك إنه تقريبًا كده والله أعلم.. مش بيأخد قرارات زي دي من دماغه.

- بمعنى؟

- بمعنى إنه بينفذ كلام حد تاني.

- مِتساق يعني؟

- أو على علاقة بحد من مصلحته القضية تتعطل.. إنتَ مش كنت قولت إن الجريمة تمت على سطح عمارة فيها نايت؟.. وإن صاحبه واصل وبيجيله ناس مُهمين؟

- أيوة بس راجل زي ده إيه يخليه يعطل القضية.. ده من مصلحته تخلص بسرعة من غير كلام وتحقيقات كتير.. عايز يخلص منها يعني.

- إلا لوا.. إلا لو اللي بيعطل ده.. عايز يأخر القضية عشان يعرف يخلع منها.. بيماطل لحد ما يخفي دليل.. لحد ما يبعد الشبهات.. كده

يعني.

- والله مش بعيد.. خصوصًا إنه لحد دلوقتي مفيش قاتل ظهر في اللي بيتحقق معاهم.. ما أستبعدش.. عشان كده بفكر نعمل مُعاينة تانية لمسرح الجريمة قبل ما ييجي قرار بتعطيل التحقيق.. جايز غفلوا حاجة هناك سَقطوا حاجة.. وممكن تيجي معايا.

- بصفتي إيه بعد ما استبعدوني من القضية؟

- بصفتك دكتور واشتغلت على القضية قبل كده.. وأنا حاسس إننا كُنا بنقرب.. عشان كده استبعدوك.. وأنا مش عاجبني إطار المُتهمين اللي فيه أبوها وخطيبها ده.. حاسس إنه فيه حد بره الدايرة دي بيلاعبنا.

- والله أتمنى مسرح الجريمة ينصفنا.

***

الثالث والعشرون

بعد موت الست «عزيزة»، وانتقال الأسرة بالكامل إلى غياهب منطقة محمد نجيب، والتي انتقلوا إليها بعدما عرض «عبد المجيد» على «جودة»؛ شقة إيجارها بسيط، بدت وكأنها بداية جديدة لعائلة تبحث عن الاستقرار.

في تلك الأثناء، كان العم «جودة»، بعدما أزيح عن منصبه كمدير مخازن بالسكة الحديد بفضيحة مدوية، لا يزال يتابع من كثب قضية الأرض التي كانت بمثابة محور اهتمامه. بالرغم من فصله، بقيت مسألة الأرض، التي كانت في يوم من الأيام جزءًا من صراعه المستمر، تمثل نقطةً شائكةً في حياته. ومع مرور الوقت، بدا أن الأرض قد أعيدت دراسة ملفها بسرية، وكأن الريس «جودة» لم يكن له وجود. فقد تزايدت الدلائل على أن الأرض كانت في طريقها إلى التنازل عنها بالقوة لمستثمر قوي، «أمجد زهران»، وكأن كل ما حدث لم يتجاوز كونه مجرد زوبعة في فنجان. على الفور، تم إرسال الأوراق التي طلبها وزير النقل بخصوص قطعة الأرض البديلة التي عرضها «أمجد زهران». رغم أن تلك الأوراق قد لا تكون مستوفية لبعض الشروط، ولكن المسألة كانت أكثر تعقيدًا من مجرد قبول أو رفض.

وزير النقل الذي كان تحت ضغط مستمر، وافق على الأرض البديلة واتفاقية سعر بيع المتر، الذي تم تخفيضه في سرية. كان هناك تلاعب غير ظاهر في سعر متر الأرض، حيث تم تعديلها بشكل لا يظهر الفارق الكبير في سعر المتر بين الأرض القديمة والأرض

الجديدة. هذه الحيلة سمحت لأولئك الذين أرادوا الانتقام من الريس «جودة»، بأن يجدوا فرصتهم المثالية في هذه الصفقة، مما جعل الجوانب السياسية والتجارية تتداخل بشكل معقد، وكأنما كانت كل خطوة موضوعة بعناية لعرقلة «جودة» وإلحاق الضرر به. على الرغم من أن الريس «جودة» كان الوحيد الذي وقف بوجه التيار الجارف، رافضًا التفريط في تلك الأرض، إلا أن نصيبه كان مريرًا. فقد انتهى به المطاف مفصولًا من عمله، محاطًا بفضيحة هزت أركان حياته وأصبحت تهديدًا لما تبقى من سمعته. تلك الفضيحة، التي نسجت خيوطها بمهارة من قِبل من أرادوا إسقاطه، لم تكتفِ بتدميره وحسب، بل امتدت لتلحق الأذى بكل من اقترب من دائرته.

وبالرغم من خدمته الطويلة التي تجاوزت ستة وثلاثين عامًا، سنوات مليئة بالنزاهة والشرف، إلا أن الريس «جودة» وجد نفسه في النهاية وحيدًا، يحمل عبء تلك الفضيحة التي لم تكن مجرد نهاية لعمله، بل كانت نقطة فاصلة، جعلت كل ما كان يظنه ثابتًا، يتحطم أمام عينيه.

على صعيد آخر، جلس «أمجد زهران» يراقب الأمور بابتسامة باردة وهدوء لا يُخالطه تردد، كمن يستمتع بمشهد قد خطط له بعناية. كان مطمئنًا بعد أن أتم صفقته المنشودة، وحصل على تلك الأرض الثمينة التي كانت بالنسبة له مفتاحًا لإقامة مشروعات ضخمة، مشاريع لا يُستهان بها، سيجعل الدولة نفسها مضطرة لتمويلها، تحت شعار التطوير الاقتصادي المنتظر ضمن المرحلة القادمة. لكن، في غمرة انتصاره الواضح وتشفّيه في سقوط ذلك الموظف البسيط، لم يكن يعلم أن الزمن يحمل في طياته مفاجآت

غير محسوبة. فبعد مرور سنوات من نجاح صفقته وتحقيق مُراده، بدأت الأمور تتغير بشكل لم يخطر بباله. كما انقضت الفضيحة على أسرة الموظف البسيط، لتغرقهم في دوامة من المعاناة، وجدت عائلة «زهران» نفسها في دوامة مشابهة، ولكن على نطاق آخر.

ما لم يدركه «أمجد» هو أن التاريخ لا يَنسى ولا يَغفر. فقد بدأت تظهر في حياته شقوق صغيرة، تزايدت حتى أصبحت صدوعًا عميقة. قراراته السابقة، التي كانت تبدو كخطوات نحو المجد، انقلبت لتلاحقه بطرق غير متوقعة. أسرته، التي لم تكن جزءًا من معادلة نجاحه، أصبحت فجأة جزءًا من معادلة معقدة أخرى. في النهاية، كما طالت أذرع الألم أسرة «جودة»، لم تستثنِ أسرة «زهران». فقد بدأ «أمجد» يدرك أن الحسابات التي أهملها، والأشخاص التي تجاهلها، كانت تحمل وزنًا أكبر من أي صفقة أو مشروع. تلك الخسائر التي لم تكن في حسبانه، أصبحت حقيقة تقض مضجعه، وتذكره دائمًا بأن العدالة قد تتأخر، لكنها حتمًا تأتي.

***

الرابع والعشرون

في عشريناته، لم ينعَم «ياسين» بما حظي به أقرانه. كانت حياته أشبه بصدى بعيد ممتد لما جرى لوالده في العمل. في البداية، ظَل صامتًا، لا يتفوه بكلمة، لكنه كان صمتًا مشوبًا بالغضب المكتوم. سريعًا ما تحول هذا الصمت إلى سخط يملأ صدره، سخط على أفعال أبيه، وعلى تصرفات أخيه «علي»، وعلى الحياة البائسة التي انقلبت رأسًا على عقب بعد فصل والده من العمل. فالبيت الذي كان يومًا يعج بالضحك والأمل، صار الآن مليئًا بالشكوى والمشاحنات. كل ثانية تمر بعد ما حدث، تذكره بما فقده، وما كان يمكن أن يكون. فوجد نفسه مُنجرفًا نحو الكتابة، ليس كملاذ بل كسبيل للخروج من هذه الحياة، أملًا في أن يجد فيها طريقًا آخر، منفذًا يستطيع من خلاله الهروب من واقع لم يعد يُحتمل. كانت الكتابة بالنسبة له ثورة صامتة، وسيلة ليعبر عن كل ما يعجز عن قوله لأبيه وأخيه، وللحياة نفسها.

لم يكن «ياسين» يعلم أن تلك الخواطر المتناثرة، التي بدأها كمجرد هروب من واقعه، ستتحول سريعًا إلى سلسلة من الأحداث المتشابكة، لتكتمل أمامه الصورة في النهاية كرواية كاملة، تنبض بالحياة. كانت الرواية بحاجة إلى بعض التعديلات والرتوش النهائية، ولكنه قرر أنه لن يحتفظ بها لنفسه. برغم الشكوك التي أحاطت به، قرر ياسين أن يرسل مخطوطته إلى إحدى دور النشر الناشئة، ظانًا أن ما كتبه سيُرفض بالتأكيد. كان يرى في الرفض إثباتًا نهائيًا لشكوكه في كونه ليس كاتبًا حقيقيًا، وإنما مجرد هاوٍ

يحاول الهروب من حياته عبر الكلمات. ولكن ما حدث بعد ذلك فاق توقعاته. الرواية قُبلت، بل وذعي «ياسين» لإجراء مقابلة مع دار النشر. كانت المفاجأة تُربك خطواته، لكن حين جلس أمام الناشر واستمع لكلمات الإعجاب التي نالها عمله، شَعُر بشيء جديد، مزيج من الفخر والخوف. مضى العقد، واتفقوا على التفاصيل، وعاد إلى منزله وهو يحمل السر الكبير في قلبه.

بدأت عملية النشر، في حين أن والده وأخيه كانا يعيشان حياتهما دون أدنى فكرة عن ما يخطط له ياسين. لم يكن الأمر مجرد نجاح أدبي بالنسبة له، بل كان انتصارًا على الحياة التي أراد الهروب منها. كانت تلك الرواية بمنزلة الخطوة الأولى نحو مسار جديد، مسار لم يكن يتوقع أن يسلكه يومًا، لكنه الآن يمضي فيه دون رجعة.

في تلك الأوقات، عندما حان وقت تصميم غلاف الرواية، بدأت معرفة «ياسين» بصديقه «رامي». كان رامي مصمم أغلفة انضم حديثًا إلى دار النشر، ورغم أن علاقتهما كانت محدودة في البداية، إلا أن الأمور تغيرت تمامًا عندما رأى «ياسين» غلاف روايته لأول مرة. كان الغلاف يتنفس بروح الرواية، يعكس ببراعة أحداثها التي استلهمها ياسين من حياته، تلك الأحداث التي كانت شبيهة بما مرّ به والده، وتلك المحادثات التي التقطتها أذناه من مشاجرات والده ووالدته - رحمها الله - تلك اللحظات لم يكن فيها سوى مستمع صامت ومُدوِّن بارع.

ورغم أن «ياسين» ودار النشر لم يحظيا بشهرة واسعة، إلا أن روايته الأولى فاجأت الجميع، بما فيهم هو نفسه. فبعد صدورها، ذاع

صيتها بسرعة غير متوقعة، وبيعت منها أكثر من ثلاث طبعات في غضون أسابيع قليلة. كان النجاح يتخطى توقعاته بكثير، ليجد نفسه على أعتاب عالم لم يكن يتخيل دخوله يومًا. الآن، لم يعد مجرد كاتب مجهول، بل أصبح اسمه يتردد بين القراء، وبدأت دار النشر تنتظر منه عملًا جديدًا قريبًا، مما وضعه تحت ضغط لم يكن مستعدًا له.

في خضم هذا الزخم من التفكير، كان ذلك الطلب الغريب ينتظره داخل الموقع، وكأنه يحمل في طياته فرصة قد تقلب الأمور رأسًا على عقب. شعر «ياسين» أن هذا الطلب ربما يحمل الإجابة التي كان يبحث عنها، أو على الأقل قد يكون بداية لقصة جديدة تستحق أن تُروى. تردد قليلًا قبل أن يرد على الرسالة، أخبر المرسل أنه يتوق لمعرفة المزيد عن هذه الرواية الغامضة، مشيرًا إلى أنه يهوى هذا النوع من القصص. لكنه لم يستطع كبح فضوله وسأل عن سبب ضرورة اللقاء الشخصي، بدلًا من التحدث عبر الموقع. ولم تمضِ سوى لحظات حتى جاءه الرد، وكان أكثر غموضًا وإثارة. الرسالة الجديدة أكدت أن التفاصيل سرية ومهمة للغاية، وأنها تحمل إمكانيات لجعل روايته القادمة عملًا أدبيًا سيتحدث عنه الجميع، وربما تتحول إلى عمل فني أو سينمائي. أضاف المُرسل أن هذه التفاصيل لا يمكن الوثوق بها عبر الموقع، وأن اللقاء الشخصي هو الخيار الوحيد لنقل تلك المعلومات الحساسة. وختم الرسالة بعبارة مليئة بالإصرار: "ولحسن الحظ أننا من الإسكندرية، وده يخلي مُقابلتنا ضرورية في المكان اللي ذكرته لك في الرسالة اللي فاتت".

شعر ياسين بمزيج من الفضول والخوف، لكنه أدرك أن هذه قد

تكون الفرصة التي كان ينتظرها، الفرصة التي ستغير مجرى حياته إلى الأبد. عندما سأل «ياسين» عن سبب اختيار هذا المكان تحديدًا، جاء الرد محملًا بنبرة حازمة ومثيرة للريبة. أن هذا المكان ليس مزدحمًا في أي ساعة من ساعات النهار أو الليل، وأنه مكان مضمون بالنسبة له، وإذا لم يكن «ياسين» مستعدًا للحضور في الوقت المحدد، فقد يكون بذلك يتخلى عن هذه الرواية ويتركها لكاتب آخر. والكتاب كثيرون.

كانت الكلمات تحمل تحديًا مبطنًا، وكأنها تختبر مدى التزام «ياسين» واهتمامه بهذه الفرصة الغامضة. ثم أضاف المرسل بعد لحظة من الصمت: "قرر، وابعتلي.. وما تنساش تاخد معاك ورقة وقلم، هتحتاج تدون كل اللي هايتحكالك، التفاصيل كتير ومعقدة".

جلس ياسين يتأمل الرسالة، وشعر بأن كل كلمة محفوفة بالغموض والخطر. هذه الدعوة لم تكن مجرد لقاء عابر، بل كانت مفتاحًا لقصة قد تحمل في طياتها أكثر مما يمكنه تخيله. والآن، كان عليه أن يقرر ما إذا كان مستعدًا للولوج في هذا العالم، مسلحًا بقلمه وورقته، وتلك الرغبة العميقة في اكتشاف الحقيقة، مهما كانت مخيفة.

خرج «ياسين» إلى البلكونة، وبمجرد أن لاحظ أن مخزونه من الفئران قد نفد، تملكه القلق. نظر إلى الشارع فرأى مجموعة من الأولاد يلعبون كرة القدم تحت ضوء المصابيح الخافتة، من بينهم «تيفا» المعروف بجالب الفئران. رفع «ياسين» يده مشيرًا نحو الصبي، ثم أومأ له بعرض مغرٍ: "عشرة جنيهات بدلًا من الخمسة المعتادة". تلألأت عينا «تيفا» فرحًا، ومن دون تردد، ترك الكرة

وانطلق مسرعًا في مهمته.

عاد ياسين إلى الداخل وكتب في المحادثة أنه سيكون متواجدًا في الميعاد والمكان المحدد غدًا. أرسل الرسالة ثم استلقى في كرسيه للحظات، منتظرًا أن تهدأ تلك الرجفة التي تسللت إلى قلبه بعد هذا التبادل الغريب. ولم تكد تمر دقائق حتى سمع جرس الباب. نهض وتوجه نحو الباب ببطء، فتح الباب ليجد والده، عم «جودة»، شاردًا بالسقف. كان «ياسين» ينتظر أن يرى في عيني والده نظرة لوم أو عتاب، ربما غضبًا خافتًا. لكنه وجد شيئًا مُغايرًا تمامًا.

ملامح العم «جودة» كانت مرهقة، شاحبة، وكأن الزمن نقش على وجهه خريطة تروي قصة حياة مليئة بالمحطات والتحديات. كانت عيناه منكسرتين، بلا محاولة لرفعهما. تجاعيد وجهه بدت أعمق، وكأنها قد زادت في تلك اللحظات. لاحظ «ياسين» في بؤبؤ عيني والده شريطًا يمر سريعًا، يحمل ذكريات من ماضٍ بعيد، ينبعث من تجاويفها روح كانت قوية في فجر حياته، لكنها الآن تتلاشى كالضباب. وقف العم «جودة» للحظة، وكأن الزمن تجمد معه، قبل أن تمتلئ عيناه بالدموع التي لم تذرف.

اقترب العم «جودة» من «ياسين» بخطى متثاقلة، وكأن الأرض تحت قدميه أصبحت ثقيلة بأعباء السنين. رفع يده ببطء حتى مستوى كتفه، وظن «ياسين» في البداية أن والده يحاول الاستناد عليه خشية الوقوع. ولكن ما إن لامست يده وجه ياسين، حتى أدرك أنه ليس بحاجة إلى دعمه الجسدي، بل إلى شيء آخر أعمق بكثير. كانت لمسة والده على وجهه أشبه بلمسة شخص يكتشف شيئًا ثمينًا

للمرة الأولى، وكأن ملامحه قد أصبحت غريبة عنه في بحر السنين التي مضت.

عينا العم «جودة» زاغتا في الفراغ، متجولتين بين أركان البيت، ثم فجأة، وكأنه استعاد جزءًا من ذاكرته الضائعة، انفجر بالبكاء. كان بكاءه مكتومًا، لكنه كان يحمل في طياته سنوات من الألم المكبوت، دموعًا لم يسمح لها بالانسياب من قبل، خوفًا من أن يظن الآخرون به ضعفًا. سأل «ياسين» والده بلطف عن السبب، فأتى الرد مفاجئًا ومشوبًا بالندم: "إزاي... إزاي نسيت؟!".

تردد «ياسين»، متسائلًا عما نسيه والده، فأتى الرد مجددًا، لكن هذه المرة بنبرة مكسورة، مُحملة بتأنيب الضمير: "مدافن عيلتنا.. مكانها فين؟".

كان السؤال غريبًا لدرجة أن «ياسين» لم يعرف بماذا يجيب. لكنه أدرك من وراء الكلمات حقيقة أشد حزنًا، أن والده يشعر بتأنيب الضمير لعدم زيارته لأحبائهم الذين رحلوا. كأن تلك الأرواح البعيدة تناديه من أعماق ذاكرته، تلومه بصمت. دعاه «ياسين» للدخول إلى غرفته والراحة قليلًا. وببطء شديد، خطا العم «جودة» نحو الغرفة، متمسكًا بجوهره البسيط. كان يطمئن على كل ما في جيوبه، متلمسًا دبلة الزواج التي أضاف إليها قماشة ملفوفة، بعدما نقص وزنه بسبب السجائر وقلة الأكل. تلك الدبلة التي كانت دائمًا مناسبة لإصبعه، لكنها الآن تحتاج إلى دعامة لتبقى في مكانها. دخل العم «جودة» الغرفة وأغلق الباب خلفه بهدوء، تاركًا النور مضاءً، وكأنه يخشى أن تطبق عليه ظلمات الوحدة. لم يكن بحاجة إلى إغلاقه،

فالضوء الباهت كان يحمل معه شيئًا من الدفء الذي افتقده، بينما كانت أفكاره تجول في أركان الغرفة، تتلمس آثار ماضٍ بعيد.

عاد «ياسين» إلى غرفته بعد حديثه مع والده، وجلس على مكتبه حيث كان اللاب توب ما يزال مفتوحًا. عندما نظر إلى الشاشة، وجد رسالة جديدة من الشخص المجهول، قصيرة ومباشرة، تؤكد موعد المقابلة وتشير إلى ضرورة ترك رقم هاتفه لتسهيل التواصل، وأنهى الشخص رسالته بتوجيه غامض: "تأكد من تحميل تطبيق التليجرام، ستعرف السبب لاحقًا".

تأمل ياسين الرسالة لثوانٍ قبل أن يُغلق اللاب توب، متسائلًا عن سر هذه الإضافة الغامضة، ولماذا كان هذا الشخص حريصًا على هذا التطبيق بالتحديد. بعد لحظة من التردد، نهض من مقعده واتجه إلى البلكونة. الهواء الليلي كان منعشًا، ورائحة البحر تسللت إلى أنفه، تمنحه بعض الراحة وسط كل هذا الغموض. أخرج هاتفه واتصل بصديقه «رامي». حين رد «رامي» بصوته المعتاد المفعم بالحيوية، قال «ياسين» بنبرة نصفها جاد والنصف الآخر ساخر: "أخيرًا بقى لك فايدة.. جالي طلب غريب.. ربنا يستر ويطلع من وراه قصة عدلة".

ضحك «رامي» بخفة وأجاب: "عشان تعرف أفكاري يا بني، الموقع ده فكرة عبقرية. إن شاء الله تلاقي فكرة وتخلصها.. بس ما تتعودش على كده. بعد ما تخلص، لازم نقفل الموقع. مش عاوزين حد يلبسنا في مصيبة. الموقع مش قانوني، خلص دنيتك ونقفله".

سكت «ياسين» للحظة، وكأن كلمات رامي حملت ثقلًا أكبر مما قصد. أغلق المكالمة وأخذ نفسًا عميقًا، مستمتعًا بالصمت الذي يغلف

الليل.

في اليوم التالي، نهض «ياسين» من فراشه مبكرًا، شعور بالتوتر يتسلل إلى قلبه، لكنه كان يعلم أن هذا اليوم قد يحمل معه بداية فعلية لروايته القادمة. وضع دفترًا وقلمًا في حقيبته، وأخذ هاتفه قبل أن يغادر. بينما كان يسير نحو المكان المحدد، لاحظ أن الشارع خالٍ تقريبًا، وكأن العالم يتباطأ في خطواته. تردد في أذنه صوت أم كلثوم من بعيد، يغمره بإحساس من الطمأنينة والغموض في آنٍ واحد. وصل إلى المكان الذي وصفه له الشخص المجهول؛ «قهوة بيرم»، واختار طاولة خارجية، حيث جلس ووجهه مشحون بالقلق والفضول. مرت الدقائق بسرعة، وكانت الساعة تشير إلى السابعة، لكن لم يظهر أحد. بدأ التوتر يتسلل إلى نفسه، لكن قبل أن يطغى القلق عليه تمامًا، رن هاتفه. كانت رسالة على تطبيق التليجرام من رقم خاص. فتحها ليقرأ نصًا غريبًا:

"الموضوع غريب ومرعب، يخص جريمة قتل حصلت من مدة مش كبيرة. السبب مش معلوم حتى بالنسبة للقاتل. تخيل قاتل ما يعرفش قتل ليه! لكنه فجأة بيلاقي نفسه قدام جثة مايعرفهاش! ويا إما يهرب، وإما يستنى ويلبِس الجريمة.. يا ترى تفتكر يعمل إيه؟"

التفت «ياسين» حوله بسرعة، كأنما يحاول التقاط أي حركة تدل على وجود هذا الشخص المجهول في الجوار. ثم كتب في تردد: "هي دي المقابلة؟".

ولم تمضِ سوى لحظات قليلة حتى وصله الرد: "المقابلة مش

هتيجي غير بعد شوية وقت. لازم أثق فيك. اللي بحكيه وهحكيه هيكون عصب الرواية. اللي ممكن بعد ما تسمعه، تبطل حتى تسمع مني.. وطالما جيت في الميعاد يبقى إنتَ في أمس الحاجة إلى أفكار، والفكرة موجودة بحبكتها وأحداثها. بس لازم أثق فيك عشان أسلمهالك وأنا مرتاح أنك تستاهلها".

أحس «ياسين» بقبضة الخوف تشتد حول قلبه، ولكنه شعر في الوقت ذاته بأن شيئًا كبيرًا على وشك أن يحدث. بعد لحظات، لاحظ حركة غريبة في المكان. لفت انتباهه وصول سيارة نزل منها شخصان يظهر عليهما بوضوح أنهما من المباحث أو النيابة، وكان هذا واضحًا من طريقة مشيهم ووضعية جسدهم المتوترة، وكذلك من مظهر السائق الذي بدا بقصة شعره ومظهره كأنه عسكري. شعر بقشعريرة تسري في جسده، والريبة بدأت تتغلغل في أعماقه. دون أن يفكر كثيرًا، نهض من مكانه بسرعة، أخرج نقودًا ووضعها على الطاولة كأنه يدفع ثمن قهوته، ثم غادر المكان فورًا. قلبه كان يخفق بشدة، ويده ترتعش قليلًا بينما كان يغلق هاتفه. أخذ خطواته متجهًا إلى بيته بخطوات متسارعة، محاولًا الحفاظ على هدوئه الخارجي، بينما عقله كان يصرخ بأسئلة وفرضيات تزدحم في رأسه. عندما وصل إلى مدخل العمارة، فوجئ برؤية «ليلى» تقف هناك وكأنها تنتظره. تقابلت عيونهما في لحظة صامتة، قبل أن تسأله بهدوء عن حال والده. رد عليها مطمئنًا، رغم أن القلق كان يسيطر عليه بالكامل. كانت الكلمات تخرج من فمه آلية، وكأنه في عالم آخر، غير قادر على التخلص من المشاعر التي تجتاحه. وفي أثناء حديثهما، نزل «علي»، أخوه، من الدرج. كانت نظرته لياسين محملة بالغضب والاحتقار.

اقترب منه وقال بصوت منخفض، لكنه حاد: "نتكلم على جنب إذا سَمَحت". شعرت «ليلى» بالتوتر يشتعل بينهما، فاستأذنت وصعدت إلى بيتها.

وقف «علي» أمام «ياسين»، نظراته تحفر في عيني أخيه وكأنه يريد استخراج ما بداخله من أسرار. ثم قال بنبرة مليئة باللوم: "واقف مع بنت صاحب غمره؟ عايز تجلطه؟ افرض حصل مشاكل وخسر صاحبه.. إنتَ إيه يا أخي.. ما بتخافش على أبوك؟".

حاول «ياسين» أن يبرر تلك الوقفة بينه وبين «ليلى»، لكنه كان يعجز عن ترتيب الكلمات في رأسه. عصبيته بدأت تتصاعد، لكنه لم يجد فرصة للرد، حيث تركه «علي» فجأة وذهب دون أن يمنحه فرصة للتوضيح. وقبل أن يبتعد، ألقى عليه جملة أخيرة: "ما تعملش دوشة وإنتَ طالع، أبوك كان صاحي طول الليل ما صدّق نام".

ترك «ياسين» واقفًا في مكانه، يشعر بثقل الكلمات التي سمعها، وكأنها طبقات من الجليد تضغط على قلبه. وبخطوات بطيئة، بدأ يصعد السلالم، محاولًا أن يهدئ من ضجيج أفكاره قبل أن يصل إلى باب شقته، دخل في هدوء وقبل أن يُغير ملابسه، دلف ليطمئن على والده، فوجده نائمًا. لم يرغب في إيقاظه، خرج إلى غرفته ليستلقي بجسده المهدود فوق السرير. مرّت ساعات كان يحسبها دقائق، وشعر ببزوغ فجر يوم جديد. لا يزال البيت هادئًا كما تركه منذ قليل، قام بِثِقل، ثم دخل غرفة أبيه على أطراف أصابعه، محاولًا عدم إزعاجه. كانت الغرفة مظلمة إلا من ضوء خافت يتسرب من النافذة. بمجرد دخوله، شعر بشيء غريب؛ رائحة باردة، مُقبضة، لم يعتدها

من قبل في هذا المكان. كانت تملأ الهواء حوله بشعور ثقيل. وجد والده نائمًا في هدوء غريب، وجهه مُستريح على الوسادة، مع هدوء يخيم على ملامحه، كأنما تسللت إليه الراحة بعد سنوات من العناء. همّ بالخروج، لكنه توقف فجأة عندما لمح شيئًا غير عادي؛ مجموعة من الأوراق كانت مبعثرة على مكتب والده. هناك أيضًا، على السرير، كان كيس بدلة فارغ مُتسخ ببعض فضلات قديمة لنوحي، مُلقى بجانب والده. اقترب «ياسين» ببطء ورفع الكيس ثم نظر إلى والده ليكتشف أنه يرتديها وهو نائم، تلك البدلة التي كان ينوي ارتدائها في حفل خروجه على المعاش، ولكن لم تتح له الفرصة لارتدائها أبدًا. تقدم ببطء نحو المكتب، كان هناك شيء يجذبه لتلك الأوراق. رفع الورقة الأولى، وكانت بخط يد والده المميز، خط متعرج قليلًا من أثر الزمن، لكنه لا يزال قويًا بما يكفي ليحكي قصته الأخيرة. كانت الكلمات تحمل ثقلًا غير عادي، كأنها تحمل روح والده في سطورها. كتب فيها:

"كنت أتمنى لكم سيرة عطرة من بعدي، تمنيت لو كانت والدتكم معكم بعد ما أرحل، فهي الوحيدة التي كانت ستعرف كيف تهون عليكم ما أنتم مقدمون عليه.. حاولت قدر استطاعتي في السنوات الماضية أن أثبت براءتي وشرفي، لكنني لم أتمكن من ذلك.. وصيتي لكم لا تقيموا لي عزاءً، واقتصروا على أخذ العزاء في المقابر. ياسين، لا تتواصل مع عمك جابر أو غريب ابن عمي بشأن فتح الثربة، هؤلاء لن يساعدوك... كلّم التربي فورًا".

شعر «ياسين» بأن الكلمات تخترق روحه، ثُقل عليه أنفاسه، وكأنها خيوط تشده نحو شيء لا يمكنه الهروب منه. بيده المرتعشة،

التقط ورقة أخرى كانت بجانب الأولى، ليجد رسمًا كروكيًا لمدافن العائلة. الخطوط كانت بسيطة، لكن بها تفاصيل دقيقة، وكأن والده رسمها من ذاكرته في محاولة لتوجيهه للمرة الأخيرة. وقف «ياسين» للحظات، عينيه ملتصقتان بالورقة، لكن عقله كان مشوشًا بمئات الأفكار والمشاعر. كانت هذه الأوراق كأنها كلمات والده الأخيرة، حملت كل ما لم يستطع قوله له في حياته. كانت وصية محملة بالحب والألم والتأنيب. وهو يحمل الأوراق بين يديه، بدأ يدرك أن ما كان يحمله والده على مدار السنوات لم يكن فقط صراعًا من أجل البراءة، بل كان أيضًا محاولته الأخيرة لترك بصمة تُذكر من بعده، بصمة تحمل شرفه وكبرياءه الذي تمسّك بهما حتى النهاية. اقترب من والده بحذر، كأنما يخطو على خيوط من ضوء ضعيف يتدلى من النافذة. وكلما اقترب، ازدادت تلك الرائحة الباردة، كأنها تعلن عن حضور غير مرئي، حضور الموت. لمس كتف والده برفق، لكن جسده لم يستجب، كانت بشرته باردة كملمس الرخام في فصل الشتاء، ساكنة بلا حياة. في تلك اللحظة، تجمّد الزمن، لم يَعد هناك صوت إلا نبضات قلب «ياسين» المتسارعة. أثقل صدره بشيء لم يستطع تحمله، حاول أن يتنفس لكن الهواء رفض الدخول. عينيه امتلأتا بالدموع، كأنها أمواج بحر عاتية تتصاعد من أعماق روحه، ومع ذلك، لم تستطع دمعة واحدة أن تجد طريقها خارجًا. وقف أمام والده المنطفئ، وقد انقلبت الدنيا عليه في لحظة واحدة. أحس كأنما جدران الغرفة تضيق عليه، تكاد تسحقه. حاول أن يتحدث، أن ينطق بكلمة واحدة فقط، ربما ليتأكد أن هذا ليس سوى كابوس، لكن صوته خذله، الكلمات تجمدت في حلقه مثل قطع جليد لا تذوب.

تحجر في مكانه، عاجزًا عن الفهم أو الاستيعاب، بينما الدموع التي تجمعت في عينيه صارت سدًا يعكس كل ما فقده. ركع بجانب السرير، دَفن وجهه في يد والده الباردة، وانفجر في بكاء صامت، نحيب مكتوم، وكأنه يخشى أن يوقظه من نومه الأبدي. كانت تلك اللحظة كافية لتحطيم كل ما كان يحمله من مشاعر مكبوتة. لكن حتى في انهياره، لم يستطع أن يعبر عن كل ما في داخله، كانت الأحزان أقوى من أن تتحول إلى كلمات، فظلت محبوسة في قلبه، تتحول إلى جرح لن يندمل بسهولة.

على المقابر، ارتفعت أصوات الترانيم والحزن، وازدحمت الأرض بمئات من الوجوه، بعضها يعرف معنى الفقد بعمق، والبعض الآخر جاء لأسباب أقل وضوحًا. كان «عبد المجيد» في مقدمة الحضور، وقد بدا وكأنه حمل على كاهله أعباء سنين عمره كلها. عينيه، المحملتين بالتجاعيد، بدت شاحبة كأنها فقدت بريقها، وحزنه كان واضحًا في كل خطوة يخطوها. في المقابل، وقف «عبد اللطيف الزنخ»، في نفس المكان، بدا خاليًا من أي ملامح عاطفية، عينيه الجافة تنظر إلى الأفق كأنما لا يشغلها سوى صمتها الثقيل، وكأنه لا يزال مشبع بذكريات غير مريحة.

بينما كان «رامي»، صديق «ياسين»، يطأ أرض المقابر بثبات، وقد ارتسمت على وجهه ملامح من الألم الصامت. وعلى جانب آخر كان «علي» برفقته أصدقائه من شباب الملجأ، وبعض شباب الحي. في تلك اللحظة، تجلى توتر آخر، حيث طلب أحد الحاضرين خلسة من التربي أن يستفسر من أبناء المُتوفى عن حقوق الاشتراك في الجمعية المالكة للمدفن. صاح التربي بحنق، ثم هدأ بينما بدأ يحكي

لياسين عن خيانة الزمن. قال إن عم «جودة» كان له فضل كبير في إنقاذ تلك المدافن قبل سبع سنوات، عندما غرقت، وقام بما كان في وسعه ليثبت الحق ويسترد الحقوق. ويأتي الآن هؤلاء يطالبون بتسديد مستحقات متأخرة، حقًا: "ناس تخاف ما تختِشيش".

على الرغم من وصية الأب بعدم إقامة عزاء، فإن عدد الحضور كان يفوق التوقعات، وجاءوا من كل حدب وصوب، كأنهم جاءوا يحملون عزمًا على التضامن مع روح رحلت عن الحياة ولكن لم تُنسَ، تجسيدًا لأثر كبير تركه الراحل في قلوبهم.

عاد «ياسين» إلى بيته بعد أن تفرّغ من تقديم العزاء إلى آخر الحاضرين، مصطحبًا «رامي» الذي أصر على عدم تركه في هذا الوقت العصيب. بينما توجه «علي» إلى موقف السيارات لتوصيل بعض أقربائهم. دخل «ياسين» إلى غرفته منهكًا، وجلس على طرف السرير، محاطًا بصمت يخترقه صوت تنفسه المضطرب. اتخذ «رامي» مكانًا بجانبه، محاولًا تقديم العزاء والمواساة، ولكن الصمت بينهما كان أثقل من الكلمات. بعد لحظات من الاسترخاء المحموم، تحدث «رامي» بلهجة هادئة، لكنه محملة بنبرة تتسم بالحذر، قائلًا: "والدك يستحق تكريم كبير.. أقل حاجة تعمله إهداء في روايتك الجاية".

ثم أضاف، بعد تردد: "شايف إنك ممكن تخلصها إمتى؟".

فوجئ ياسين بالجرأة، نظر إلى «رامي» نظرة مليئة بالاستغراب والدهشة من هذا الخلط بين التقدير والفضول. كانت تلك النظرة تحمل في طياتها مزيجًا من الألم والإحباط، والرد على تلك البجاحة

كان متروكًا للساعات القادمة، والتي ستحدث فارقًا في خضم هذا الحزن.

***

الخامس والعشرون

في تمام السابعة والنصف مساءً، وصل المقدم «خالد الكومي» بصحبة الطبيب الشرعي «يوسف قابيل» إلى مسرح الجريمة، حيث امتزج الهواء البارد برائحة الغموض التي تُخيم على المكان. كان الشارع شبه خالٍ، إلا من بضعة أشخاص يجلسون داخل وخارج القهوة أسفل العمارة. في أثناء صعودهما إلى السطح، مرّا على حانة «دياڤلو»، التي كانت تطلق أضواءها الخافتة على السُلم، كأنها شاهدٌ صامتٌ على ما حدث في تلك الليلة.

توقف المقدم «خالد» للحظة، وعيونه تلتقط تفاصيل المكان، قبل أن يقول بنبرة ملؤها اليقين: "تعرَف يا دكتور.. دايمًا عندي إحساس غريب إنه لو جريمة قتل عدّى عليها وقت من غير ما نعرف القاتل.. بيكون عندنا احتمال كبير إن القاتل نفسه يزور مسرح الجريمة أو يحوم حواليه. كأنه مش قادر يسيب المكان، عايز يتابع التحقيقات أو يعرف إيه الجديد في القضية".

أردف «خالد»، مستندًا إلى ذاكرته العميقة: "الإحساس ده مش جاي من فراغ، ده ليه أصل قديم.. فاكر في سورة البقرة؟ لما الراجل راح يسأل النبي موسى عن تفاصيل البقرة؟ عن ماهيتها ولونها؟ وقال 'إن البقر تشابه علينا'.. الراجل ده كان القاتل نفسه. دايمًا المجرمين في سلوكهم، بيلاقوا نفسهم بيحوموا حوالين فعلتهم، كأنهم مش قادرين يهربوا من اللي عملوه".

نظر الطبيب الشرعي «يوسف» إلى المقدم بنظرة تفحص، محاولًا استيعاب الكلمات التي ألقت بظل ثقيل على تلك الليلة. كان حديث

«خالد» مشبعًا بتلك الحكمة التي تجمع بين الإيمان والتجربة، وكان يعلم أن وراء هذا الإحساس ربما تكمن خيوط لم تُكتشف بعد في هذه الجريمة الغامضة.

صعدا إلى سطح المبنى، حيث كان مسرح الجريمة. بدأ الاثنان في البحث بحرص، عيونهم تمشط المكان بدقة، بحثًا عن أي دليل ربما غفل عنه فريق الأدلة الجنائية في وقت سابق. الجو كان مشحونًا بالتوتر، وصوت حذائهما وهو يلامس الأرضية كان يعكس الثقل الذي يشعران به. وبعد بحث طويل، لفتت نظر «خالد» زاوية مظلمة تحت أحد الكراسي المهملة والمُلقاة على السطح. نظر عن قرب، ليكتشف بُقع دم صغيرة تكاد لا تُرى. كان الدم قد تجمد وأصبح داكن اللون، لكنه كان واضحًا بما يكفي ليشير إلى أمر مريب.

"يوسف.. تعالى شوف ده"، قالها «خالد» بصوتٍ هادئٍ لكن ملؤه الترقب.

انحنى الدكتور «يوسف» ونظر إلى البقع بعينين مُدربتين: "دي بقع دم.. لازم ناخد عينة ونحللها عشان نعرف مصدرها".

نزل «يوسف» مسرعًا ليجلب شنطة الأدوات الخاصة به، تلك التي تحتوي على كل ما يحتاج إليه لأخذ عينة دقيقة مثل تلك من مسرح الجريمة. بعد دقائق قليلة، عاد وبدأ في جمع العينة بحذر، وفي صمت يتخلله نظرات متبادلة بينه وبين «خالد»، وكأنهما يعلمان أن ما اكتشفاه قد يكون الخيط الذي سيربط الأحداث ببعضها بعضًا.

غادر المقدم «خالد» مسرح الجريمة متأخرًا، ورغم إحساسه بأن شيئًا ما لم يكن على ما يرام، قرر الانتظار حتى الصباح. ومع شروق

الشمس، تلقى مكالمة تُخبره عن جريمة جديدة. الملامح على وجهه تغيرت، وتحولت من الترقب إلى القلق. على الفور، أرسل تسجيل صوتي إلى الدكتور يوسف:

"يوسف، فيه جريمة تانية لسّة متبلغ بيها.. لازم أروح أشوف إيه اللي حصل.. كمّل إنتَ وشوف العينة دي هتطلع إيه.. ولو طلعت بحاجة مهمة.. كلمني فورًا".

أجابه «يوسف» سريعًا بالموافقة، وهو يعلم أن تلك العينة قد تحمل مفتاحًا لكشف هذه الجرائم، أما «خالد»، فقد اندفع نحو سيارته متجهًا إلى مكان البلاغ الجديد. وصل «خالد» إلى موقع الجريمة الأخرى ليجد شابًا يقف مرتعشًا بجانب جثة صديقه. المكان كان فوضويًا، وآثار الصراع كانت واضحة في كل زاوية من الغرفة.

سأل «خالد» عما حدث بنبرة حاول أن تكون هادئة لكنها لم تخلُ من الحزم. فأجابه الشاب، بصوت مخنوق، عيناه تائهتان بين الخوف والصدمة، وكأنه لم يصدق بعد ما حدث. بصوت مخنوق بالكاد خرج من حلقه، بدأ يحكي تفاصيل ما حدث. جاءه صديقه، كان مُضطربًا، وجهه شاحب وعيناه تحملان رعبًا لم يره من قبل. أخبره بصوتٍ مرتعش أنه ارتكب جريمة قتل. لم يكن ليصدق ما سمعه؛ وحاول تهدئته، وأقنع نفسه بأنه ربما يتوهم أو يبالغ. ولكن حين كشف له عن تفاصيل فِعلته، شعر بأن العالم من حوله ينهار. توقف لثوانٍ ولم يعرف كيف سيتصرف. كان محتارًا بين ولائه لصديق قديم وبين مسؤوليته الأخلاقية، خاصةً بعدما فهم مدى خطورة ما فعله صديقه. قرر أن يفعل الصواب، ويقوم بالإبلاغ عن الجريمة. فرأى

في عينيه نظرة الجنون، الهلع. لم يترك له مجالًا للحديث، بل هاجمه بعنف، غير عابئ بوفاة والد صديقه التي لم يمر عليها ساعات قليلة. كان واضحًا أنه كان مستعدًا ليقتله كما قتل تلك الفتاة الأخرى. في تلك اللحظة، لم يكن أمامه خيار سوى أن يدافع عن نفسه. كان يعلم أنه لو لم يفعل، حتمًا كان سيصبح هو الجثة التالية.

نظر «خالد» إلى الشاب، وقد أدرك أن ما حدث هنا كان نتيجة للذعر والخيانة. الشخص الذي كان يبحث عن ملاذ آمن قد تحول إلى قاتل، والشاب الذي حاول فعل الشيء الصحيح وجد نفسه في مواجهة لا مفر منها، انتهت بموت صديقه بين يديه.

أدرك «خالد» فجأة أن هذه الجريمة لم تكن مجرد حادثة أخرى تُضاف إلى التحقيقات. البلاغ الذي تلقاه بعد اكتشاف بقعة الدم ربط بين خيوط كانت مبعثرة، ليكشف أن ما حدث هنا هو مفتاح لحل لغز الجريمة الأولى. كل شيء بات واضحًا؛ بدأت الأدلة تتجمع لتظهر الحقيقة التي كانت مخفية. في تلك اللحظة، فهم «خالد» أن هذا التحقيق سيغلق ملفًا معقدًا ويكشف عن سر دفين طال انتظاره.

***

السادس والعشرون

تتحرك الشاحنات الثقيلة في قافلة، واحدة تلو الأخرى، في مشهد يعكس ذكاءً فطريًا في الاقتصاد. الشاحنة الأمامية تفتح الطريق، تواجه مقاومة الرياح وتستهلك الوقود بكميات أكبر، بينما تستفيد الشاحنات التي تتبعها من الظل الذي تتركه، تستهلك وقودًا أقل وتحتفظ بقوتها. يشبه هذا تمامًا حال الناس؛ الذين يختارون السير في الخلف، يتجنبون المواجهات المباشرة، يطيلون عمرهم بعيدًا عن المخاطر، يختبئون في الظل حتى لا يكونوا في الخطوط الأمامية، حيث الضربات تأتي أولًا.

كان ذلك ما لم يتبعه الريس «جودة»، وأخبره به «عبد المجيد» صديقه الوفي، بعد فصله عن العمل بتلك الفضيحة المُدوية، ولكنه لم يعبأ بذلك أيضًا.

وبعد تلك الفضيحة التي أحاطت بالريس «جودة»، بلغ بطش «أمجد زهران» ذروته، وكان أول من شعر بثقل هذا البطش هم أفراد أسرته، وأقربهم إليه.. ابنه «رامي».

«رامي»، الذي لم يستطع تجاهل حقيقة فساد والده والوسائل التي استخدمها للوصول إلى قطعة الأرض تلك، وقرر أنه لا يريد أن يكون جزءًا من هذا الظلام. بجرأة اختار الابتعاد عن حياة والده، متخليًا عن الثروة والشركة التي كانت تمثل إرثه.

في ذلك الوقت، كانت هناك أسرة بسيطة دمرها «أمجد زهران»، وحاول «رامي»، بدافع من ضميره، تقديم المساعدة لهم. لكنه أدرك

أن الاقتراب منهم كان مثل اللعب بنار كامنة، قنبلة موقوتة تنتظر لحظة الانفجار. ومع ذلك، لم يستطع تجاهل خبر الكاتب الذي خرج من رحم تلك الأسرة المُحطمة، «ياسين»، الذي قرر أن يستخدم قلمه ليعبر عن الظلم والقسوة التي عصفت بحياته. ومن هنا، قرر «رامي» التقرب من «ياسين»، ليس فقط كمحاولة للتكفير عن ذنوب والده، ولكن ليكون عونًا وصديقًا لمن أثقلته الحياة بالهموم. وهكذا بدأت تلك الصداقة، التي جاءت بغتة، لتصبح دعامة من القوة والأمل لكليهما، أو هكذا ظن «رامي».

«ياسين» لم يكن ليأمن مكر أي شخص، خاصة حين اكتشف أن «رامي»، صديقه الجديد، هو ابن «أمجد زهران»، الرجل الذي دمر حياة والده وأسرته بأكملها. شعر حينها بالحيرة، لم يكن يعرف كيف يتصرف، فآثر الصمت والانتظار، مراقبًا نوايا «رامي» بعناية. ثم قرر أن يختبر ولاء «رامي»، ليس فقط ليحكم إن كان يستحق ما سيفعله به، بل ليتأكد إن كان «رامي» يحمل في دمه نفس غدر أبيه. لم يكن هذا الاختبار سهلًا، لكنه كان ضروريًا وحتميًا في بعض الأحيان. وهكذا، خطط «ياسين» بعناية ليوقع برامي في شر مكيدة، انتقامًا لوالديه، دون أن يخبر والده. لكنه لم يعلم أن الوقت لن يسعفه، وأن والده سيموت قبل أن يتمكن من إخباره بما ينويه حتى يسترد له حقه.

على الجانب الآخر، «أمجد زهران» لم يكن يعلم بكل ما يدور في رأس ابنه «رامي»، ولكنه كان يشعر بأن شيئًا ما قد تغير. حاول مرارًا وتكرارًا الاطمئنان عليه، يرسله رسائل غير مباشرة أو يطلب لقاءً سريعًا، لكن كل محاولاته باءت بالفشل. كانت المسافة بينهما تتسع،

حتى جاء «رامي» في إحدى الليالي، مُنهارًا، مُسرعًا، عيناه مملوءتان بالرعب، وهو يلهث من فرط التوتر. حكى لأبيه عن تلك الليلة في حانة «دياڤلو». وجد نفسه ملقى على ظهره فوق السطح، وإلى جانبه جثة غارقة في الكحول. كان عقله ضبابيًا من شدة السُكر، لا يذكُر سوى أنه جاء إلى الحانة مع صديقه «ياسين»، ليُعرفه على هذه الحياة. كان صوته يرتجف وهو يتذكر اللحظات، كيف نزل بسرعة، ووجد «ياسين» واقفًا ينتظره، غير مدرك للكارثة التي حدثت فوق.

كان «أمجد» مستمعًا بصمت، وعينيه تضيقان بتفكير عميق. هذا الوضع كان فرصة لا يُمكن أن يُفوتها. لم يُفاجأ بعودة ابنه إليه في وقت الشدة، بل كان يتوقعها. هدوءه الظاهري كان يُخفي دهاءً عتيقًا. أجرى اتصالاته ليعرف تفاصيل القضية، ثم عاد ليجلس أمام «رامي» بهدوء محير، ليوجه له نظرات تقطر لومًا وتوترًا.

بصوت مُبطّن بالخبث، قال «أمجد»: "قولتلي مين كان معاك وقتها؟.. ياسين مين؟".

ابتسم بسخرية خافتة عند ذكر اسم «ياسين» ووالده «السيد جودة»، وكأن الصورة بدأت تتكامل في ذهنه. شعر «رامي» أن جسده كله يتجمد من الداخل، وهو يدرك ببطء نوايا والده. «أمجد» لم يترك لابنه مجالًا للتراجع، بل طرح عليه العرض ببرود قاتل: "لفق التهمة لياسين.. مفيش حل تاني. أنا مش هقدر أخرجك منها من غير ما حد تاني يلبسها".

كانت الكلمات تتساقط كحجارة ثقيلة على صدر «رامي»، وكان «أمجد» يراقب ابنه بعينين ثاقبتين، يعرف جيدًا أنه وضعه في

زاوية لا مفر منها. فأكمل: "مش هتعرف تسافر ومش هقدر أهربك.. اسمك هيطلع في التحقيقات.. إلا لو.. إلا لو حطينا اسم تاني مكانك".

لم يستطع «رامي» الرد. الفكرة نفسها كانت تُمزق عقله. لكنه كان يعلم جيدًا، في تلك اللحظة الفاصلة، أن والده لن يتردد لحظة في إلقاء «ياسين» تحت عجلات العدالة، لو كان هذا هو الثمن لإنقاذه.

جلس «رامي» صامتًا لفترة طويلة، يحاول الاعتراض، لكن في النهاية أدرك أن هذا هو الحل الوحيد أمامه. عاد إلى البيت مع والده، ليُخططا معًا كيف سيلفقان التهمة لياسين بشكل لا يمكن دحضه. بخبث مُتقن، نصح «أمجد» ولده بعدم الاقتراب من الحانة أو الشارع بأكمله في الفترة المقبلة، حتى يتأكد من كيفية تعطيل مجرى التحقيقات وجعل التهمة تناسب «ياسين» تمامًا. وأكد: "عشان التهمة تلبسه مظبوط، لازم يروح المكان ده كذا مرة.. لما المباحث تيجي وتلاقيه هناك، الشك هيُقع عليه". عندما اقترح «رامي» أن يعطي «ياسين» ميعادًا ولا يذهب، رفض «أمجد» الفكرة تمامًا: "تديله ميعاد وماتروحش؟ لا طبعًا.. ده هيشككه فيك.. ومش هيفيدنا بحاجة.. لازم يروح لسبب تاني، حاجة تخصه.. حاجة تخليه يقعد هناك ساعة أو اتنين، يحوم حوالين المكان لو أمكن.. وإنتَ بشطارتك تعرف هو محتاج إيه عشان يروح هناك".

أدرك «رامي» أنه بات الآن في لعبة خطرة، حيث الصداقة والولاء سيكونان أدواته لضمان سقوط «ياسين» في الفخ الذي نصبه والده.

فكر «رامي» لوقت طويل، محاولًا إيجاد السبيل لاستدراج «ياسين» نحو المصيدة، وكانت الرواية الجديدة التي يعاني

«ياسين» في إيجاد فكرتها، هي الباب الذي يمكن أن يقوده نحو ما يريد. حينما ألقى «أمجد زهران» ببعض الأفكار بصوت عالٍ، أدرك «رامي» أن الموقع الإلكتروني الذي كان يعمل عليه منذ فترة، يمكن أن يكون الوسيلة المناسبة لاستدراج «ياسين»، وبما أن «ياسين» غير متمكن من التكنولوجيا والسوشيال ميديا بشكل عام، استغل «رامي» هذا الضعف، بينما كان والده يتابع التحقيقات من بعيد، ويحاول تعطيلها بكل الطرق الممكنة. ولحسن الحظ، لم تكن كاميرات المراقبة دليلًا قاطعًا في القضية، مما أعطى «أمجد» و«رامي» وقتًا للتحرك. ولكن تعقدت الأمور كثيرًا عندما توفي «السيد جودة»، والد «ياسين». وظن «رامي» أن خطته تعثرت وأن الوقت اللازم لتنفيذها قد يضيع. لكن «أمجد» شَدّد عليه بضرورة الإسراع في تنفيذ خطته، خاصة بعد أن علم أن المقدم المكلف بالتحقيق بدأ يشك في تعطيل سير القضية، مدعومًا بتعاون نشط من الطب الشرعي.

«رامي»، قلقًا من أن كل شيء سينهار، قرر زيارة «ياسين» بعد جنازة والده مُباشرةً. كان يأمل أن يتمكن من إعادته إلى الطريق الذي سيؤدي إلى سقوطه في الجريمة، مشددًا التأكيد على المثل القائل: "مايبقاش موت وخراب ديار". ولكن ما لم يكن يعلمه «رامي» هو أن «ياسين» الذي ذهب إليه، لم يكن نفس الشخص الذي كان يعرفه.

***

الأخير

بعد مغادرة عائلة «ياسين» المقابر، عاد الجميع إلى البيت، ولكن شعور العزاء لم يكن كافيًا لملء الفراغ الذي خلفه فقد الأب. ورغم عرضهم للمساعدات المالية والنفسية، تبقى أصداء الحزن في أرجاء المنزل. ذهب «علي»، الأخ الأصغر، لتوصيل الأقارب إلى موقف السيارات، تاركًا «رامي» مع «ياسين» في الشقة. دخل «ياسين» إلى غرفته وجلس على السرير، بينما كان «رامي» يراقب الصمت الذي خيم على المكان، ولاحظ اللابتوب مغلقًا في زاوية الغرفة، وكان صمت «ياسين» غير معتاد، فبدأ الحديث بحذر: "شد حيلك يا صاحبي، راح للي أحسن منا كلنا".

رد «ياسين» بعد قليل: "ونعم بالله".

سأله «رامي» بقلق: "إنتَ هتعمل إيه الأيام الجاية؟.. محتاج أي مساعدة؟.. أنا مش عايز حياتك تتعطل".

بدا على عينا «ياسين» التعب، ورده كان موجعًا: "هيكون ورايا إيه أهم من أبويا يا رامي؟".

- مش بقول أهم.. أنا بقول شوف حياتك.. ما تعطلهاش.. دار النشر كلمتك تاني صحيح؟

نظر «ياسين» إلى «رامي» بنظرة مملوءة بالاستياء: "محدش كلمني.. وحتى لو كلموني، خلاص... مفيش رواية".

قفز رامي من مكانه بقلق: "مفيش رواية ليه؟.. ليه كده يا بني؟ إنتَ بتدمر مستقبلك بنفسك.. على فكرة بقى.. الحاج «جودة» الله

يرحمه عمره ما كان هيبقى مبسوط لو اللي إنتَ بتقوله ده اتحقق.. أبوك كان نفسه يحس إنك حققت حاجة بتحبها".

نظر «ياسين» إليه نظرة مطولة قبل أن يقول: "عندك حق.. لازم أحقق له اللي كان نفسه فيه، حتى بعد ما مات.. تشرب قهوة؟".

لاحقه «رامى»: "خليك إنتَ، أنا هعملها".

- لا لا خليك.. أنا عايز أعمل قهوة.. افتح كده اللاب توب شوف إيه آخر مستجدات الطلب الأخير.. على ما آجي.

قالها وتوجه «ياسين» إلى المطبخ ليعد القهوة، بينما فتح «رامي» اللابتوب ليبحث في الطلبات. وفي تلك اللحظات، استخدم «رامي» هاتفه في الخفاء ليرسل رسالة إلى الموقع، يؤكد فيها بالكشف عن التفاصيل الكاملة للجريمة والرواية إذا التقوا مجددًا في نفس المكان وفي أقرب وقت. وبينما كان «رامي» مشغولًا، سمع أصوات أشياء تقع في خارج الغرفة، نادى على «ياسين»، لكنه أخبره أن لا شيء يحدث. عاد «ياسين» إلى غرفته وهو يحمل صينية بها فنجاني قهوة، وسلّمها إلى «رامي». لكن قبل أن يستقر «رامي»، سحب «ياسين» سكينًا - حرص على أن يكون عاديًا ليس مميزًا - من أسفل الصينية وضربه في صدره بقوة، مستهدفًا منطقة ليست بقاتلة إلى حدٍّ كبير، ولكنها حتمًا ستتسبب بنزيف قاتل.

تجمدت نظرات «رامي» في عينيه، وجاءت آخر لحظات حياته في مواجهة «ياسين»، الذي همس له بالكلمات الأخيرة المملوءة بالمرارة والغضب، حين قال: "ده اللي كان أبويا نفسه فيه.. كان نفسه حقه يجيله قبل ما يموت، بس هو هيسامحني على الكام ساعة الفرق

دول.. وإنتَ.. مش هتعرف تستوعب.. لأنك هتموت خلال دقايق.. من أول يوم حاولت تداري عليا فيه إنتَ مين وابن مين وأنا شكيت فيك.. مش لأنك يتشك فيك لا.. أنا اللي ما كنتش ناوي أدي الأمان لأي حد تاني بعد اللي حصل مع أبويا وفي أمي.. لكن فجأة يظهرلي حد وعايز يبقى أعز صحابي؟.. عايز يساعدني بدون مقابل؟.. عبيط أنا بقى!.. ما كونتش عارف إنت جايلي ليه وقررت تظهر في حياتي ليه.. بس عمري ما كنت هآمنلك بعد اللي أبوك عمله في أبويا، وبعد الحال اللي وصلناله وأمي دفعت تمنه حياتها.. كان مستحيل أسامح أو أقبل بصحوبيتنا تحت أي ظرف".

دارت الدموع في عيني «ياسين»، وهو يشاهد «رامي» ينزف ويواجه مصيره ببطء.

ياسين: "كان ممكن أقبل بيها في ظروف تانية خالص غير دي.. ظروف ما قولش فيها إني مصاحب ابن الراجل اللي دمر حياتنا وكان السبب في موت أمي زمان، وموت أبويا دلوقتي.. ما تستغربش، أبويا ما كنش من النوع اللي بينسى بسهولة.. وكان بيحب شغله للدرجة اللي تخليه ما ينساش اللي أبوك عمله فيه.. ف آه أبويا مات بعد المدة دي كلها بحسرته على اللي حصل معاه.. ده ممكن ما يكونش مستوعب لحد قبل ما مات كمان..".

حاول «رامي» التمسك بحياته، لكن «ياسين» أمسك يده، ومنعه من الوصول إلى هاتفه. بينما كانت دموع «رامي» تنزف من عينيه وتقل حركته، قال ياسين بنبرة باردة: "عشان تموت وإنتَ مرتاح.. هقولك على حاجة.. إنت خطتك كانت 10/10.. ما فيهاش نقطة

ضعف واحدة.. وأنا كنت مستني اعرف هَتلبسهالي إزاي.. وعشان أريحك.. إنت أساسًا ما قتلتهاش علشان تلبسهالي.. بس هَتلبسها.. حتى بعد ما تموت".

سقط «رامي» من بين يديه، وخرج «ياسين» إلى الصالة، اتصل بالنجدة وأبلغ عن جريمة قتل وهو في حالة من الانهيار العاطفي. ثم قام بتلاعب بالأدلة، وقام بنقل بصمات «رامي» على السكين لتبدو كأنها كانت بيده، ثم وقف «ياسين» أمام المرآة، متمعنًا في علامات الخنق التي تركها «رامي» على رقبته، متفحصًا جروحًا غائرة تُبين أنه مجني عليه. ثم غادر الغرفة، عازمًا على ترك بصمات تُبرئه من الجريمة؛ فقام بتشتيت الأدلة في المنزل، مقلبًا درج السكاكين على الأرض بعناية، ومستخدمًا أدوات ليس له بصمات عليها. ولكنه فجأة سمع صوتًا مفاجئًا من الخارج، ليُصاب بالذهول: هل يمكن أن يكون القتيل قد عاد إلى الحياة؟

فزع «ياسين» عندما تكرر الصوت مجددًا، خرج ليتبيّن أنه «علي»، أخوه، قد عاد إلى الشقة. صدم «علي» عند رؤية الدماء والجثة، وسأل بقلق: "يا نهار طين! إيه ده.. مين اللي عمل فيه كده؟".

بسرعة، قال «ياسين»: "علي.. ما فيهاش وقت للكلام ده خالص.. تاخد بعضك وتمشي دلوقتي حالًا قبل ما البوليس ما ييجي".

سأل «علي» بذهول: "بوليس إيه؟.. مين اللي عمل فيه كده؟.. إيه اللي على رقبتك ده؟".

رد «ياسين» بجدية: "امشي يا علي.. ما تبقاش غبي.. اسمع الكلام.. حق أبوك.. خلاص رجع.. ده اللي أقدر أقولهولك.. بس لازم تمشي

دلوقتي.. تمشي وماترجعش دلوقتي خالص".

عندما نطق «ياسين» بجملة "حق أبوك رجع"، تجمد «علي» في مكانه وعيناه تتسعان من الصدمة. تراجع خطوتين إلى الوراء، ثم تملكه الذعر فهرع نحو الباب، هاربًا من الشقة وكأنه يهرب من شبح. ترك «علي» الشقة وهو مشوش، بينما عاد «ياسين» إلى الغرفة، وأعاد ترتيب الجثة.

في غضون أقل من ساعة وربع، كانت الشرطة قد وصلت إلى مسرح الجريمة. بعد المعاينة الأولية، تم استدعاء المباحث وفريق من المعمل الجنائي والطب الشرعي. وصل المقدم «خالد الكومي» إلى مسرح الجريمة الثاني، حيث تبين أن القتيل كان قد توفي قبل 48 دقيقة بالضبط.

عند استجواب «ياسين»، بدا عليه الصدمة العميقة، وهو يستعرض تفاصيل الأحداث الأخيرة التي تلت وفاة والده. روى «ياسين» ما حدث بصعوبة بالغة: "رامي كان معايا من الصبح.. ما فارقنيش إلا بمكالمة جاتله وبعدها رجعلي تاني.. بعد ما قرايبنا مشيوا وراح أخويا عشان يوصلهم.. فاجئني إن عنده سر عايز يحكيهولي.. استغربت التوقيت اللي بيتكلم فيه.. قولتله مش وقته.. أصر.. بعدها حكالي حاجة أنا.. أنا لغاية دلوقتي مش مستوعبها.. قالي إنه قتل بنت.. كان عايز يعمل معاها علاقة.. وقتلها عشان رفضت.. في الأول فكرته بيهرتل وبيقول أي كلام.. لكن لما ذكرلي المكان والزمان كمان.. استغربت اكتر.. وسكتت.. قالي إنه كان سهران ليلتها في مكان زي نايت كده اسمه ديفل أو ديفلو..".

- دياقلو. (صححها له المُقدم «خالد»).

- هو ده تقريبًا اللي كان يقصده.. قالي إنه استدرجها لحد السطح بتاعه وحاول معاها.. ولما رفضت قتلها.. وإنه خايف لا يتمِسك ، بس بيحكيلي عشان ألاقيله حل ومخرج من المصيبة دي.. وقتها أنا ما بقتش عارف أعمل إيه.. بس موت أبويا غيّر فيا حاجات كتير.. قبل ما يموت كان ممكن أسكت أو أخاف.. لكن موت أبويا خلاني أحس إن الموت بيقرب في أي وقت.. خفت.. قعدت معاه أكلمه براحة رغم إني مش في موود للراحة أصلًا.. قولتله يحاول يفكر في حاجة تانية غير إني أساعده في حاجة زي دي.. صعب عليا أساعده في جريمة!.. سِمع كلمة جريمة دي من هنا.. قَلَب وشه.. فكرني بهههه.. قام وزعق وهلل.. وقبل ما صوته يطلع من شقتنا قومتله.. قولتله يروّح علشان عيب، أبويا لسّة ما ارتاحش في تربته.. قالي إنتَ بتطردني وبتمشيني من بيتكوا علشان تبلغ عني؟.. بصراحة هو كان معاه حق.. أنا فعلًا كنت ناوي أول ما ينزل أتصل وابلغ.. عشان ألحقه من نفسه، أنا عارف إنه لو اتساب لنفسه ممكن يعمل حاجة أسوأ.

- وبعدين.. ايه اللي حصل؟

- رفض ينزل، وقالي انه مش هينزل ومش هيروح أصلًا.. شديت معاه في الكلام، قام زقني وبدأ يتهجم عليا بالتهديد يعني عشان يخوفني ما أبلغش عنه.. لكن التهديد زاد عن حده.. حاول يخنقني.. يموتني.. حاولت أمنعه وأقوم.. قومت من هنا وطالع على برا.. جري سبقني على المطبخ ورجعلي بسكينة.. حاولت أهديه ما كنش شايف قدامه.. هجم عليا، فاديته.. وِقع والسكينة اتنطرت منه.. جري عليها،

حاولت أمنعه كان مستقتل عليها.. قام عليا خنقني وكنت خلاص بطلّع في الروح.. ضربته برجلي، وقومت.. جريت أنا على السكينة ومسكتها.. جه يقرب مني هَوشته.. ما رجعش، حدف نفسه عليا.. صدرت السكينة حماية لنفسي.. جت فيه.. وقع.. بلغت فورًا.. ده كل اللي حصل.

في التحقيقات، أعزى الطب الشرعي إلى أن الوفاة كانت نتيجة لطعنة سكين نافذة بعد سلسلة من المناوشات والخناقات بين «ياسين» و«رامي». أظهرت الفحوصات وجود سحجات واضحة وآثار خنق على رقبة «ياسين»، دليلًا على صراع محتدم انتهى بتلك الطعنة القاتلة دفاعًا عن النفس، بناءً على معطيات مسرح الجريمة، وأثبت قسم الأدلة الجنائية بصمات «رامي» على السكين ومهاجمته لياسين. ومع استمرار التحقيقات، اتضح أن الدم الموجود في مسرح الجريمة الأول يرجع إلى «رامي»، الذي تم التعرف عليه في نهاية الأمر.

بعد انتهاء التحقيقات، شعر المقدم «خالد» بشيء من القلق والحيرة يتسلل إلى داخله. كانت القضية تبدو مغلقة، ولكن هناك تفاصيل صغيرة لم تكن تبدو واضحة بنسبة كبيرة. وظل في حيرة، هل يكتفي بهذا النجاح في أولى قضاياه في الدائرة الجديدة، ويغلق الملف؟ أم يستمر في التدقيق، تاركًا القضية مفتوحة قليلًا ليتأكد من أن كل خيط قد تم التحقق منه؟ كان يعلم أن الخيار الثاني قد يطيل من التحقيقات، وبالتالي سيكلفه الأمر بعض الأوامر التي لا يتمنى سماعها من رؤسائه. ولكنه لم يستطع تجاهل ذلك الشعور الذي يهمس له بأن هناك شيئًا ما لم يُكشف بعد.

***

بعد 7 شهور

في ليلة هادئة بإحدى الشوارع، التقى «ياسين» صديقةً قديمة لم يرها منذ أيام، وهي نفس الصديقة التي وقفت بجانبه في التخلص من «نريهان»؛ «غرام»، كانت على معرفة وثيقة بالقتيلة، صديقتها منذ أيام الكلية، وبالمثل كان «ياسين» صديقًا لهما، ولكن ما دفع «ياسين» إلى التخلص من «نريهان»، هي علاقة قديمة جمعت بين «ياسين» و«نريهان». علاقة انهارت عندما تخلت عنه «نريهان» بعد أن اكتشفت حالته المادية المتردية ووضع أسرته المتأزم. كان اللقاء بين «ياسين» و«غرام» يحمل ثقل الذكريات والقرارات الصعبة التي اتخذت في لحظات يائسة. تقابلا وتمشيا في إحدى الشوارع الهادئة، تبادل معها الحديث حول الأحداث الأخيرة، وقام بتسليمها روايته الثانية التي انتهى منها منذ أيام، طالبًا منها إيصالها إلى دار النشر الجديدة. «غرام»، بعينيها المليئة بالتساؤلات، طلبت منه أخيرًا إجابات للأسئلة التي قامت بكتمانها لشهور: إزاي عملت فيها كده؟

- ما نسيتش اللي هي عملته زمان.. وعمري ما كنت هنسى.. لحد ما جت الفرصة، زي ما إنتِ كنتي مستنياها بالظبط.

- نريهان ماكنتش تعرف إن إحنا بنتكلم من أيام الكلية.. بس أنا عارفة إنها لو عرفت، ماكنتش هتبقى على صحوبيتنا.. على طول شايفاني الصاحبة المش كويسة، اللي تتكسف تمشي جنبها.. بس صحيح.. عَمِلت إيه صحيح لما شافتك يومها؟

- استغربت طبعًا بس ما كنش فيه وقت للكلام.. كان لازم أخلص بسرعة عشان أنزل أطلع المحروس بعد ما شِرب كاسه بالبرشامة اللي حطيتهاله.. خلصت ووضبت الحاجة فوق زي ما طلعتي شوفتيها على السطح وبس.. طلعته فوق وسيبته جنبها وأخدت العينة ورميتها في جنب.. ونزلت.

- كنت هتعمل إيه لو لقوا العينة في ساعتها وقبضوا عليه وما حصلش كل ده؟

- ولا حاجة.. كُنا هنوصل لنفس النتيجة بس أسرع شوية.. وما كنتش هعرف إذا كان هيحاول يلبسهالي ولا لأ.

- طب وإنتَ كنت عارف منين إنه هيعمل اللي عمله؟

يجيبها ياسين بهدوء: "ما كنتش عارف حاجة.. بس هو الحمار المكّار غَتَراته كتيره.. ورامي كان مكّار كفاية عشان يقع في الفخ".

صمتت «غرام» لدقيقة قبل أن تباغته سؤال من ذاكرتها: "مين البنت اللي زَقيتها على خطيبها في الشركة؟".

ضحك «ياسين» قبل أن يردف: "واحدة من بتوع إعلانات SHAREit".

ثم تسأله عن «ليلى»، ليعترف بأن الأمور بينهما غير واضحة بعد، مشيرًا إلى أن حياة «ليلى» معه، قد لا تكون كما يتوقع، فهي تحبه، لكنه لم يتأكد بعد من مشاعره نحوها.

ترك «ياسين» «غرام» وتوجه إلى بيته، حيث التقى أخاه «علي»، ليشاركه كل ما حدث في الأيام الماضية، بل وفي السنوات الماضية.

ثم اكتشف أن «علي» سيبدأ إجراءات التقديم إلى أداء الخدمة العسكرية قريبًا، وحاول «ياسين» نصحه بعدم الهروب، مشددًا على أن الجيش "للرجالة"، ولأول مرة يقول له: "إنتَ راجل يا علي.

دخل «ياسين» إلى غرفته، مرر يده على الآلة الكاتبة التي حاول إصلاحها كثيرًا حتى تمكن من إعادتها تقريبًا لكي تعمل مجددًا. جلس بجوار «نوحي»؛ صديقه المُخلص، هامسًا إليه أنه الشاهد الوحيد على ما حدث، وأنه سيظل الرفيق الحقيقي الذي خرج به من هذه الدنيا.

النهاية

شكر خاص

عائلتي العزيزة

زوجتي الغالية

الريس علي حسن

أحمد الخراشي

حسن علي حسن

رنا صُبح

محمد عصمت

مُهاب محيلبه

Notes

[←1]

دفتر المصادر: دفتر يتم إصدارة بشكل رسمي يضُم مصادر رئيس المباحث عن دائرته، ويضم كل الأسماء التي من الممكن أن تُعاون البحث الجنائي.

[←2]

التيبُس الرّمي: حالة تصل إليها الجثة بعد الوفاة، تتصلب فيها العضلات وتتشنج فيها ملامح الوجه لمدة قد تُقارب الست وثلاثين ساعة بعد الوفاة.

[←3]

يمكن فتح الهاتف باستخدام بصمة الإصبع بعد الوفاة لفترة قصيرة، لأن البصمة تظل فعّالة لفترة معينة قبل أن تتغير حالة الأنسجة في الجسم، فإذا مر وقت بعد الوفاة من المُحتمل ألا تعمل البصمة.

[←4]

الدّس: قفاز من الجلد يوضع في اليد حماية له من مخالب الطير الجارح.

[←5]

السبوق: عبارة عن خيط سميك مكون من قطعتين متساويتين في الطول تربط في رجل الطير من طرف، والطرف الآخر يُثبت في المرسل ومنه إلى الوكر.

[←6]

الأمهات: في ملاجئ الأيتام يُطلق على المُشرفات أمهات.